

إصدار  
مُتميز

Special Edition

روايات  
د. نجيب الكيلاني  
من روائع الأدب الإسلامي

# مواكب الأحرار

Processions  
of  
Freedom

Dr. Naguib Al Keilany

# روايات و نجيب الكيلاني

من إصداراتنا



  
**دار الصحوة**  
ALSAHOB

دار الصحوة للنشر والتوزيع  
تليفاكس: +20242106060  
Email: daralsahob@gmail.com

  
دار المعارف

عالم المعرفة  
الجزائر

تليفاكس : 021.30.56.62  
حي باحة 02 فيلا 07 تماريس - الجزائر الجزائر  
Email: daralmaalmaarif@yahoo.fr

# مواكب الأحرار

«رواية»

---

نجيب الكيلاني

---

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للنشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ١١٣٧٨/٢٠١٤

الترقيم الدولي:

978-977-255-424-9



دار الصحوة  
ALSAHOH

للنشر والتوزيع

٥ صحنه فريد - من شارع مجلس

الشعب - السيد زينب

تليشون: ٢٠٢٠٢٢٢٩٢٧١٨

تليفاكس: ٢٠٢٠٢٢٢٩٢٧٦٧

daralsahoh@gmail.com

بولاق فى أواخر القرن الثامن عشر . .

والسفن ترسو بالميناء الشهير حاملة أنواع البضائع من أنحاء الأرض . . وقصور الكبار من رجالات القاهرة تقف شامخة، كقلاع صغيرة، وأغلب هذه القصور يسكنها المماليك والأتراك، وعدد قليل من المصريين الأثرياء كالتجار وأصحاب المناصب . . وخلف تلك القصور الشامخة وحدائقها الشائقة، تقبع البيوت الصغيرة الكثيرة، حيث يعيش أبناء الطبقة الدنيا، وفيهم أصحاب الحرف الصغيرة، والباعة المتجولون، وصغار تجار التجزئة، وفقهاء «الكتاتيب»، والخدم والخفراء وغيرهم . .

والحركة فى بولاق دائبة لا تكلّ، وأصوات الباعة تملأ الطرقات، والنسوة يسرنّ متشحات بالملابس السوداء، على وجوههنّ خمر شفافة، تزيدهن جاذبية ورقة، وعدد من الأطفال الحفاة يتخطبون ويسرسعون هنا وهناك، ومن آن لآخر تظهر عربية مزركشة محلاة بالمعادن الثمينة، تجرّها الجياد

المطهمة ، يسبقها اثنان أو ثلاثة من العبيد المهرولين ، وبداخلها مملوك كبير المقام ، أو تركى من علية القوم ، ترتسم على وجوههم سيماء الكبرياء والثقة التى لا حد لها . . وقد يخترق الشازع فارس من رجال مراد بك أو إبراهيم - قادة الممالك وحكام مصر - فى رعونة وطيش ، دون أن يخشى زجراً أو عقاباً .

وفى مكان لا يبعد كثيراً عن ترسانة بولاق الشهيرة ، كان يوجد منزل الحاج مصطفى البشتيلى ، أحد كبار التجار . لم يكن منزله قصرأ كباقى القصور ، ولم يكن متواضعاً كبيوت الطبقة الكادحة ، وإنما كان فى مكانة بين الاثنتين ، يتكون من طابقين ، يملأ واجهته عدد من المشروبات البسيطة الجميلة ، وعلى مقربة من الباب الضخم تسمق النخيل ذات العقود الحمراء . وبيت الحاج مصطفى ينقسم إلى قسمين : القسم الأمامى حيث حجرات استقبال الضيوف ، وحجرات الطعام ، وبعض حجرات النوم المخصصة للغرباء والزوار ، أما القسم الخلفى فهى المأوى الحقيقى لأهل البيت ، والنساء والأطفال والخدم .

وفى حجرة الاستقبال الرئيسية جلس الحاج مصطفى ، وحوله عدد من الأصدقاء فيهم الشيخ «على الجنجيهى» مقرأ القرآن الكفيف وصاحب الصوت الرخيم ، وفيهم العالم

المتبحر «الشيخ إبراهيم سلامة»، و«أحمد المدبولي» صاحب الخبرة في صناعة البارود والسلاح، والحاج غمرى التاجر الصديق، وغيرهم من الشيوخ والشبان . .

كان الوقت مساءً بعد صلاة العشاء، وقنديل زيتي ضخمة يتدلى من وسط السقف معلقاً في سلسلة معدنية مزدوجة . .  
الجميع يخيم عليهم الصمت، وتوهج القنديل ينعكس على وجه الحاج مصطفى البشتيلي، فيشى بما يعتمل في نفسه من انفعالات شتى . .

إنه لا يعرف كيف يتلقى الأمر، ولا كيف يزنه الوزن السليم . . كل شيء في هذا العالم من حوله مضطرب متناقض، والحياة تمضي على نسق غريب يثير التقزز والغثيان، أشياء كثيرة تؤرقه وتؤلمه، ولطالما حلم بالتغيير، لكن كيف؟ إن العجز يحاصره من كل مكان، لكأنما قد قيدت يديه ورجلاه بقيود لا فكاك منها، لا . . . بل إن روحه هي الأخرى يشعر وكأنها سجينه مقهورة لا تستطيع التحليق والانطلاق، لطالما فكّر في أن يشور . . أن يحمل سلاحه وينطلق في شوارع القاهرة وميادينها ومسامرها ليسحق الرءوس العفنة، ويحطم كل القيم السخيفة التي تشعره دائماً بالذل والهوان . . لكنه وحده . . والوحدة هي العجز . . لكن لماذا يشعر دائماً أنه وحده؟ آه . . التجربة . . الناس

كثيرون، والسخط يملأ القلوب، والألسنة الثائرة تعبر عما يجيش فى القلب من تمرد مكبوت . . لكن عندما يجد الجند يحدث الشلل . . ذلك المرض الخبيث . . يقف الناس مطرقين عاجزين، والخوف يقيدهم، والرغبة تخرس ألسنتهم فقد أيقنت غالبيتهم أنه لا جدوى من أية تضحية . . الناس نائمون مخدرّون . . لا . . إنهم ميتون . . هو لا ينسى يوم أن دهم بعض الممالك متجره، ونهبوا قدراً كبيراً من تجارته وأمواله تحت سمع الناس وبصرهم، بل أمام عينيه هو . . ماذا حدث؟ الناس الذين طالما أحسن إليهم، ويسر لهم سبل العيش جمدوا فى أماكنهم، وقد أفرعتهم بريق السيوف، وأصدقائه الخالص تواروا عن الأنظار؛ مخافة أن يحقق بهم الضرر، وأهل الحى كانوا يرمقون ما يجرى من خلف النوافذ والأبواب المغلقة والمشربيات، وهم يتمتمون: «ياساتر استر». ولم يطق الحاج مصطفى آنذاك أن يصمت، بل صرخ لاعتنا الممالك والأترار والزمن الأغير الذى كتب عليه فيه الذل والهوان، وحاول أن يحضر سيفه ويخوض معركة بائسة، لكن ابنته «زينب» تشبثت برقبته وكانت تقول له: «لتذهب التجارة إلى جهنم . . ليذهب المال . . ليذهب كل شىء إلى الجحيم . . . ولتبق أنت لنا». أما زوجته فقد اعترضت طريقه فى إصرار وحزم لم يالفهما فيها من قبل وهمست: «لن تخرج من هنا إلا على جثتى». وابنه الحسين

أطرق برأسه شاحب الوجه، ولم يعبر بغير الدموع التي تنسكب على خده. عند ذاك تطلع الحاج مصطفى حوله وتنهد... آه... ياله من عجز رهيب...! إنها لحظات مؤلمة... لحظات العجز تلك، مليئة بكل الحقد البشرى الذى لا حد له، مكتظة بالسخط المكبوت الذى لو تفجّر لحطم العالم بأسره، لا شئ أشع من العجز، إنه رذيلة الرذائل...

طافت كل هذه الخواطر برأس الحاج مصطفى وهو يتوسط حلقة الأصدقاء بمنزله، وشعر بعد فترة بيد المقرئ المرح تزحف على كتفه وتربت في حنان، وقال الشيخ على الجنجيهى متصنعاً البهجة:

- لا أسكت الله لك حساً...

هز الحاج مصطفى رأسه فى حسرة:

- الحس تبلد يا جنجيهى... أو قل إنه مات.

تظاهر الجنجيهى بالضيق وقال:

- أتوى إقامة ماتم من أجل إشاعة كاذبة؟

- كاذبة؟ أفق يا مولانا... إنك لا تقلُّ غباءً عن مراد بك

وإبراهيم بك. تدخل الحاج غمرى التاجر وقال:

- ليكن... لو فرضنا جدلاً أن حملة فرنسية فى طريقها إلينا

فما يزعجنا؟ لن يكونوا أسوأ من الممالك، ولا ألعن من

العثمانلى . . لن يتغير الحال كثيراً، وقد تروج تجارتك يا حاج مصطفى .

احتقن وجه الحاج مصطفى، وبدرت نذر الغضب على وجهه المستطيل النحيل، وبرقت عيناه فى حدة، وقال مهتاجاً:

- كلهم ملعونون . . لكن نحن! . . ما مصيرنا؟ . . وإلى متى نظل ألعوبة فى يد الغرباء والغزاة؟ . . هل خلقنا الله لنكون مطية يركبها كل قادم من وراء البحر؟ . . هل كتب علينا أن تبقى حياتنا سلسلة متصلة الحلقات من الإذلال والضياع؟!

ثم التفت إلى الشيخ إبراهيم سلامة، وكان يجله ويحترمه، وقال:

- تكلم يا مولانا .

هز الشيخ رأسه وتمتم:

- إن ما تقوله يا بشتيلى هو الصواب، لكن لا تنس أن الأتراك والمماليك مسلمون مثلنا، لكن الفرنسيين شىء آخر .

- هذا لا يهم يا شيخ إبراهيم . . أين نحن من هذا كله؟ وإلى متى نظل ألعوبة؟

- هذا قضاء الله يا بشتيلى، نسينا الله فوكلنا إلى أنفسنا، ونحن تقاعسنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله . .

ومرت لحظة صمت قال الشيخ إبراهيم بعدها:

- ومع ذلك فأنا أشك في المراكب الإنجليزية التي رست بشط الإسكندرية ثم رحلت بعد أن أطلقت تلك الشائعة، لعلهم كانوا ينوون التهامنا، وأعتقد أن قوة الحكام العسكرية -عل أسوأ الفروض- تستطيع أن تصمد أمام عدوان فرنسا المحتمل، وقد أكد إبراهيم بك ومراد بك ثقتهما الكاملة بالنصر.

ابتسم البشتيلي في غيظ وقال:

- إنه الغرور.. ألم تسمعوا عن نابليون وتدويخه لأوروبا؟  
ألم تسمعوا عن أسلحتهم الخبيثة؟..

قال الحاج غمرى التاجر:

- نحن وراءنا تركيا بأسرها، والسلطان لن يفرط في شبر من مملكته.

ردّ البشتيلي:

- السلطان في حالة لا تسرّ.. إنه يعاني سكرات الموت من الضربات التي يكيلها له أعداؤه في روسيا وغيرها.. ومع ذلك فأنا أفكر في اتجاه آخر.. نحن! نحن! كيف نتصرف؟!!

لقد ظل أحمد المدبولي صامتاً طوال الوقت يستمع للحوار المحتدم، ثم نطق أخيراً:

- أما أنا فنفى الانتظار، وما على إلا أن أضعف الإنتاج من السلاح والبارود، وسأبيع لمن يشتري ما عدا الفرنسيين...  
يكفيننا نقاشاً، ولنستمع إلى الشيخ الجنجيهي.

تربع الشيخ، ووضع يمينه على يمين وجهه، وتنحنح، ثم استعاذ وبسمل وأخذ يقرأ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]..



يا بنت «فرط الرمان» يا حلوة . . .

همسات كانت تدور كلما خطرت «هيلدا» الجميلة ابنة برتلمى الرومى، ويطلق عليه العامة «فرط الرمان»، أما الطبقة العالية فتسميه برطلمين. وكان برطلمين يحب ابنته الوحيدة البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً حباً ملكاً عليه فؤاده، ومن ثم كان لها أطوع من بناتها، لكأنما هو عاشق متيم يأسره عنفوان الحب وسطوته التى لا تقهر. ولشدة تمكنها منه واستئثارها بلبه، لم يكن ليرفض لها طلباً، أو يوجه إليها عتاباً يخدش من كبريائها، أو ينال من تدللها. ومن ثم وجدت نفسها حرة طليقة تفعل ما يحلو لها، فلم يك أبوها بمستطيع أن يعترض على سيرها فى شوارع القاهرة فى حارة النصارى أو الأزبكية حاسرة الوجه، محبوكة الثياب، ولم يكن يجد حرجاً يذكر عندما يراها تجالس سمّاره، وتجاذب أصدقاءه أطراف الأحاديث، بل كان يطرب عندهم يرى أحداً من رؤسائه

الممالك أو الأتراك أو أحد فرسانهم يش لها، ويحنى رأسه إجلالاً لجمالها، أو يحاول جاهداً أن يختار الكلمات المناسبة ليطرى حسنهما الفتان، ولم لا وهو يرى أن ابتسامتها في وجه رؤسائه تبدد غيوم المشكلات والشكوك التي تخيم على أفق حياته العملية بين السادة الحاكمين .

وهيلدا عاقلة، أوتيت حذراً ولباقة وذكاء تفوق الكثيرات من بنات طائفها في القاهرة، فلم تتورط في عبث مشين، ولم تسر في طريق التبذل الفاضح حتى نهايته الشائكة الكثيبة . كانت مرحلة لعوباً، تملأ أفق البيت بهجة وسعادة، وتضفي على الزائرين متعة خالصة مؤثرة، لا يستطيعون نسيانها .

ولبرطمين دكان يبيع فيه القارورات الزجاجية وبعض المساحيق الكيماوية والنباتات والبذور المطحونة، وله عدد كبير من الزبائن، هؤلاء الذين يتكاثرون في الأيام التي تأتي هيلدا للدكان . وما أكثر ما كان يتجرأ بعض الشبان الجسورين، ويقتربون من المحل ثم يهمسون وعيونهم تذوب رقة وخجلاً: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» . لم تكن تغضب أو تثور، بل كانت تبتسم لهم ابتسامة بريئة لا تخلو من وقار، فيهرولون وقد غمرتهم نشوة رائعة المذاق، حتى أبوها لم يكن ليتضايق كثيراً - برغم غيرته - عندما تتناهى إلى أذنيه الحادتين تلك الهمسات المعجبة .

وقد يكون تصرف «فرط الرمان» ابنته أمراً مستغرباً بالنسبة لما يسود القاهرة من تقاليد آنذاك، لكن تلك التقاليد نفسها لم تكن لتنطبق كلمة على الأجانب من أرمن وإنجليز وغيرهم؛ لأن شيئاً من هذا لم يكن ليحدث في بيت الشيخ السادات أو الشرقاوى أو المهدي أو عمر مكرم - أكبر علماء ذلك العصر - ولا في بيوت غيرهم من المحافظين الذين يمثلون الطبقة الوسطى.

وكان واضحاً أن «هيلدا» تحب أباهما وتحقق عليه في الوقت نفسه، ولم يكن حنقها يحتاج إلى دليل يؤكد، فهي تراه - برغم عاطفته العارمة نحوها - يسلك سبلاً ملتوية في حياته الخاصة والعامة، مغرماً بتتبع عورات الناس، والبحث عن خباياهم. والأغرب من هذا كله أن لديه كراسة ضخمة يطلق عليها «الكتاب الأسود» يسجل فيها كل شيء لمجرد الرغبة في ذلك كما يزعم، ولم يكن تصرفه هذا رغبة مجردة كما يدعى، لأنه كثيراً ما يلجأ إليها عندما تشور فتنة من الفتن، سواء بين زملاء العمل الحكومي، أو في مجالات التجارة؛ لأنه لا يفتأ يخطط ويدبر ليقضى على منافسيه في المجالين، حتى لو كانوا من أعز أصدقائه. لم يكن إذن خبثه ومكره وقسوته البالغة لتخفى على ابنته وإن خفيت على كل من يعرفونه.



الوقت صيف . . أوائل يونيو . . وهيلدا تقف أمام المرأة  
كزهرة متفتحة ، تحاول أن تنسق شعرها ، وتسوى هندامها ، ثم  
تتحرك أمام المرأة يميناً وشمالاً وكأنها راقصة بالية ، والسعادة  
تكاد تنطق في عينيها . ومن آن لآخر تنشر أمام عينيها ورقة  
صغيرة معطرة وتقرأ وهى فى غاية النشوة : «ل سوف آتى إليك فى  
المساء يا حبيبتى . . إن اللحظات التى أقضيها إلى جوارك تفوق  
العمر كله . . لست أدرى كيف تكون الحياة بدونك يا بنت فرط  
الرمان يا حلوة؟ . . المخلص إلى الأبد : إبراهيم أغا . . .» .

ودخل برطلمين فجأة ، ثم سعل ، أفاقت من حلمها الجميل  
وغمغمت : أبى؟

فلم ينطق ، ظل صامتاً بعض الوقت ، شملته بنظرتها ،  
فاستطاعت على الفور أن تقرأ على سحته الشقراء أموراً  
جديدة ، وتمتت : ماذا؟ . . فخطا نحوها بثبات ، ووضع يده  
المرتجفة على كتفها المستدير وقال :

- لن تقابليه الليلة . .

أدارت رأسها مستغربة :

- ماذا؟ هل بدر منه ما نفرك؟

- إنه وغد . . سافل . .

- أمرك عجيب يا أبى ! . . إنه إنسان طيب لم يقدم على ما

يسوؤك طوال علاقته معنا، ثم إنك تبش في وجهه، وتثنى عليه دائماً، وكنت راضياً تمام الرضى عن علاقته بنا، وما أكثر ما وقف إلى جوارك وحماك من بطش الأعداء، لقد كنت تفخر بمنزلة إبراهيم لدى الحاكم مراد بك، وتقول دائماً إنه شاب ممتاز.. ترى هل جد جديد؟!

ألقي بجسده على أقرب مقعد، بينما أعطته هيلدا ظهرها واتجهت إلى المرأة، كان كل منهما يرى وجه الآخر في المرأة.. وتمتت: ما أكثر ما تصدر منك تصرفات يا أبى لا أستطيع تفسيرها!.

قال برطلمين:

- لا تنسى أنه يدين بدين يخالف عقيدتك يا هيلدا، ومن ثم فزواجك منه مستحيل إلا إذا ترك دينه، وهذا افتراض لا يقوم على برهان.

- نبراتك غريبة الليلة، ألم تكن تعلم من قبل؟.. كل ما أعرفه هو أنى أحبه لدرجة العبادة.

- تضعين أهواءك ونزواتك فوق عقيدتك؟، ما هكذا يجب أن تكون بنت برطلمين..

قالت فى حدة تشوبها الحيرة:

- إن منع اختلاف العقيدة مراسيم الزواج، فأظن أنه لا يمنع أن يقع الحب الطاهر بين مخلوقين لا ينويان شراً..

صاح مهتاجاً :

- إنه عبث .

- ماذا تعنى ؟

- إن نابليون قادم . .

- وما شأننا به ؟

قال وقد امتزجت نبرات صوته بالرقه :

- سيتغير وجه مصر . . سينتصر نابليون يا هيلدا . .  
وسيمزق الأتراك والمماليك شرمزق ، سترينهم بين قتيل وأسير  
وجريح وهارب فى فجاج الأرض . . وأنا يجب أن أستعد . .  
لقد جاء اليوم الذى كنت أنتظره ، لقد عشت دائماً فى هذه  
الديار كغريب . . لم أنل ما أستحق من مناصب . . لطالما  
عذبنى العجز ، أترضين لأبيك أن يكون بائع قارورات ؟ . . إن  
عقلى يزن ألف عقل تسكن رأس مراد وإبراهيم بك والوالى  
التركى . . ومع ذلك فأنا أعيش فى الذليل . يجب أن أطأ  
رأسى وأخادع وأكذب وأنافق وأتأمر لأصل إلى ما أريد . . إن  
القوى التى تتناحر هنا قوى فاسدة تالفة ، صراع من أجل  
الكسب الشخصى ؛ حيث لا مثل ولا وطنية . . وأنا تلميذ هذا  
الصراع الدامى فى مدرسة المماليك والأتراك . .

كانت تستمع إلى أبيها وجسدها يرتجف، وتمتت:

- إذن هي الحرب على الأبواب؟

- هذا لا يهمنى يا هيلدا . . إن بنت برطلمين يجب أن تعيش في قصر منيف، ويجب أن يجرى حولها الوصيفات والخدم والعبيد، وأن يثر تحت أقدامها الدنانير الذهبية . . وأبوها . . أبوك يا هيلدا يجب أن يقف على قمة شاهقة حتى يُشار إليه بالبنان، ويقول الناس: هذا برطلمين الرومي العظيم صاحب الكلمة المسموعة . . إنها فرصة العمر يا هيلدا . . وإبراهيم أغا يجب أن يطرد من هنا طرداً . . لا يصح أن تكون له علاقة بنا، فنحن لانحب المماليك أو الأتراك، أو هذا ما يجب أن يعرف؟ . . وأنا لن أذهب إلى عملى منذ الغد . . ليكن بحجة المرض . . لقد دالت دولتهم، وأتت دولتنا يا هيلدا . .

لأنما تساقطت أكداس من الصخور والرمال فوق رأس هيلدا . . إن أباهما يقذف بالكلمات فى صراحة أقرب ما تكون إلى الصفاقة، العالم كله تحت قدميه بما فيه من حب وعلاقات وقلوب وحيرة ووفاء . . وسمعتة يقول:

- لم أقف فى طريقك يوماً ما يا هيلدا، لكنى أعرف عن يقين ماذا يجب أن أفعل الآن، إن علاقتك اليوم بإبراهيم أغا، ذلك الفارس المملوكى علاقة حب، لكنها ستكون غداً خيانة

كبرى لا يغتفرها الفرنسيون . . افهمينى يا هيلدا . . هذه هى  
الفرصة التى نستطيع فيها أن نتقم من عجزنا وذلنا وحياتنا  
المتواضعة السمجة . .

قالت وقد ترقرت الدموع فى عينينها :

- تتكلم يا أبى وكأنك تقرأ سطور الغيب، ألا يصح أن  
ينهزم الفرنسيون؟ وحتى لو انتصروا، هل أنت واثق أنك  
ستال المنزلة التى تحلم بها؟

ابتسم برطلمين، ثم قال :

- هذه بداية طيبة، لقد بدأت تناقشين الأمور بروية وتعقل،  
وستدركينها أكثر عندما تطردين نهائياً ذلك الشبح الذى يقف  
بينى وبينك - شبح إبراهيم أغا - حسناً . . إن من حطم  
إيطاليا، ودوَّخ النمسا، وأرعى أوربا لا يمكن أن يتقهقر أمام  
طائفة من الفوضويين والمغرورين من المماليك والأتراك  
وأذناهما . . أما بالنسبة لمستقبلى مع الفرنسيين، فهذا أمر قد تم  
تدييره مع قنصلهم هنا فى القاهرة . .

- تعنى أنك . .

فقطعها قائلاً :

- أجل قابلته . . ألم أقل لك إن وجه الأرض سيتغير؟

وشردت بنظراتها إلى بعيد، كانت تحلم بفتى أحلامها  
 الفارس المشوق أمامها كطفل وديع، ولم يكن يستعصى عليها  
 أن تشكله كيف شاءت، كان يرضى طموحها وكبرياءها كأنثى،  
 لم تكن لتجد فيه شيئاً ينفرها منه، لقد روى لها ذات مرة إحدى  
 مغامراته الطائشة فى الهجوم على حى من الأحياء بالقاهرة،  
 والاستيلاء على كثير من المجوهرات والمقتنيات، وكم كانت  
 دهشته عندما سمعها تقول: «حبيبى لا يصح أن يكون قاطع  
 طريق... و... لص... إن فارس أحلامى شىء آخر...» لشد ما  
 ندم يومها، ولشد ما تكرر أسفه واعتذاراته، كان يظن أنه يأتى  
 عملاً عادياً من أعمال البطولة التى يفخر بها زملاؤه، ولم يكن  
 يظن أن ذلك سيغضب هيلدا، ثم وعدا وعداً قاطعاً ألا يعود  
 لمثل ذلك مرة أخرى... أه لسوف يعود الليلة، وسأسمع صدى  
 حوافر الجواد الأبلج، وسأقف عاجزة خلف النافذة لا أستطيع  
 أن أفعل شيئاً، وسيخرج إليه أبى بابتسامته المصطنعة ليقول له إن  
 هيلدا ليست هنا الليلة... وسيرجع من حيث أتى، وقد تدهمه  
 الحرب فلا أراه مرة ثانية... وارتمت هيلدا على أرض الحجر  
 الخبيثة وهى تجهش بالبكاء... وعندما اقترب أبوها منها،  
 صاحت فى ثورة عارمة، وهى تشيح بيدها العارية البضة:

- دعنى... دعنى... اخرج من هنا.

- هيلدا... ماذا جرى لك؟

أخذت تجفف دموعها، ثم استردت قليلا من هدوئها،  
وتمت:

- معذرة يا أبى . لقد كان الأمر مفاجأة لى . . لم أكن  
أتصور أننى سأفترق عنه . .

- هدئى من روعك يا ابنتى . . تلك هى الحقيفة المرة، إن  
طرد جميع الممالك أو قتلهم هو الخطوة الأولى للفرنسيين،  
وأنت لا يمكن أن ترتبى برجل مصيره بين اثنين كلاهما  
مر . . إننى أقدر مشاعرك تمام التقدير، لكن أبك له من الخبرة  
والحدب عليك ما يجعلك تثقين بكلامه وتصرفاته . . أنا أبوك  
يا هيلدا . .



لم يأت الفارس المنتظر فى مواعده، لكنه أتى فى الصباح  
الباكر . . . . . وحينما وقف بالباب كانت هيلدا تتوسط باحة  
البيت، وعندما رأته جمدت مكانها، وساد وجهها شحوب  
ظاهر . وخطا نحوها فى قلق، وهو يتمتم: «ماذا بك يا  
هيلدا؟» فألقت بنفسها بين ذراعيه وهى تردّد: «لا تتركنى . .  
لا تتركنى . . أتوسل إليك»، وخرج برطلمين عندما سمع  
صوتها، فتسمّر فى مكانه محنقًا، لكن سرعان ما عادت  
الابتسامة الشاحبة المصطنعة إلى ثغره الواسع، ثم قال:

- حسناً . . لا داعى لكل هذا يا هيلدا .

قال إبراهيم أغا محرراً :

- لا شك أنك علمت نبأ الاستعدادات للحرب . . لا تقلقى يا عزيزتى ، فالفرنسيون لن يجرءوا على مهاجمتنا ، ولو فعلوها فلن يكون هناك سوى جولات قليلة لا تستغرق بضعة أيام يعودون بعدها مدحورين . . أنت تعرفين من نحن .

وكزّ برطمين على أسنانه فى غيظ وأخذ يحدث نفسه :  
« هذا المغرور لم يزل يعيش فى الوهم الذى صنعه له غباؤه  
وغباء أمثاله . . جولات قليلة ! بضعة أيام ! مدحورين ! إنه لأمر  
مضحك » .

ثم عاد يقول بصوت مسموع :

- « هيا إلى الداخل لنشرب فنجاناً من القهوة ، إن هيلدا  
تكن لك فى قلبها حباً فوق طاقة البشر ، أكاد أحسبك على هذه  
العاطفة الخالصة » . .



عافت نفسه الطعام ، وجلس أمام المائدة وقد أسند ذقنه على قبضته اليمنى ، وجسمه يرتعد ، وجلس قبالته ولده الحسين مطرقاً لا يبدى حركة ، أو ينطق بكلمة . والحسين لم يعد صغيراً ، فقد تخطى التاسعة عشرة من عمره ، وتلقى كثيراً من علوم الدين ، ومارس التجارة إلى جوار أبيه ، وهو يعلم أن أباه لا يعاف الطعام إلا إذا تأزم الموقف ، أو أخذت بخناقه مشكلة عويصة الحل ، أما أخته زينب ، ذات السبعة عشر ربيعاً ، فهي تتحرك في وجل ، وتنقل إلى المائدة أطباق الطعام وأكواب الماء بنفسها دون معونة أحد من الخدم . أما الأم فقد جلست خلف زوجها واضعة كفين متشابكين في حجرها ، لائذة هي الأخرى بالصمت ، وأخيراً قالت :

- ألا تأكل يا حاج مصطفى؟

لم يرد عليها ، كان احتقان وجهه المستطيل الأسمر ، وارتعاشة يديه ، ويريق عينيه الحائرتين . . . كلها تعطى الجواب

المؤلم الحزين . مرة أخرى يستشعر الحاج مصطفى البشتيلي مذاق العجز بمرارته وعذابه ، فينتابه شقاء ما بعده شقاء ، لحظات عصبية ، الموت أهون منها .

وعادت زوجه تقول :

- ولماذا لا نرحل ؟

التفت إليها بوجه مكفهر :

- إلى أين يا امرأة ؟

- إلى أعماق الريف البعيدة ، أو نتجه ناحية بر الشام ، ولدينا من المال والمجوهرات ما يكفينا طول العمر . .

لشدّ ما ضايقته هذه الكلمات ، وحزّت في نفسه ! الحاج مصطفى يهرب ! يا للمهزلة ! وتمتم :

- هل أصابك مسّ من الجنون ؟

- وما جدوى انتظارنا؟ إنه الانتحار بعينه . . غداً يدهمنا هؤلاء الغزاة الكفرة ويجردوننا من كل ما نملك ، وقد يقتلوننا . . أنا لا أطيق الحرب ، ولم تعد أعصابي تحتمل ذلك العنت كله . . وأولادى ، كيف نفرط فيهم ونعرضهم للمخاطر؟

ولوّح بيده متوعداً ، وصرخ :

- كفى عن هذا الهراء . . إذا لاذ الجميع بالفرار فلمن تكون

تلك الديار؟ وكيف نقابل الله وقد تقاعسنا عن الجهاد في سبيله؟ لسنا وحدنا يا جاهلة .

قالت ساخرة :

- كنا دائماً وحدنا . . أنسيت يوم أن نهب المماليك متاجرك، ولم يستطع أحد أن يحرك ساكناً، حتى الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر لم يستطع أن يقدم بالنسبة لك سوى احتجاج أجوف لمراد بك، وانتزع وعداً شكلياً بعدم التعرض لك مرة ثانية . . أنسيت؟ كنا دائماً وحدنا . . نحن فى أيام شقاء ودماء، والسعيد من نجا بنفسه . . دائماً تسفه آرائى وتسخر منها . . لست أدرى متى تغير طريقة تفكيرك .

ابتسم فى مرارة وقال :

- إن طريقي واضح مستقيم وفكرى صاف كالشمس المشرقة . . لسوف أبقى هنا، وأقف فى وجه كل غاز، حتى ولو كنت وحدى . . لكن تيقنى أن الناس قد بدءوا يتغيرون . . إن المصائب الكبرى توقظ النيام، تحيى الموات . . تلك المصائب تنتصب كالمغناطيس الضخم وتجمع وتجذب الناس من حولها ولا يتخلف أحد . . حتى الجبناء . . إنه تجمع فهري يا أم زينب . ثم انتفض واقفاً، وانتعل حذاءه، وأخذ يرتدى بقية ملابسه . والتفت إلى الحسين قائلاً: هيا معى .

قالت زوجه فى ياس : إلى أين؟

- زيارة قصيرة للشيخ السادات .

- آه . . إنه رجل طاهر منسب ، وإنى لموقنة أن لديه الحل  
الأمثل ، مثل هؤلاء الرجال يتكلمون بوحى من الله . . لا تنسَ  
أن تطلب منه الدعوات لنا ولأبنائنا ، لعل الله يزيل تلك  
الغمة . . لكن ألا تتناول طعام الفطور؟

- ليس لدى أدنى رغبة .

الطريق عامر بخلق الله ، وأحاديث شتى تطرق أذنيه وهو  
يخترق الشوارع ، وعبارات قصيرة تخترق صدره كالحناجر :  
«لقد سقطت الإسكندرية . . الفرنسيون قادمون إلى القاهرة . .  
مدافعهم تحصد الناس حصداً وتهدم القلاع والطوابى والبيوت  
على رءوس من فيها . . لقد قامت القيامة . . هذا العقاب قد  
ساقه الله إلى العصاة والمذنبين» .

ويمضى الحاج مصطفى فى طريقه شارداً والناس يصخبون ،  
ويتحركون فى توتر ، لكنهم يأكلون ويشربون . . والباعة  
يصيحون ويعرضون سلعهم . . وفرسان الممالك يجوبون  
الشوارع ، وقد امتشقوا سيوفهم ورماحهم ، لم تفارقهم عنجھية  
الكبرياء والغرور ، وإن ظهروا أكثر رقة وأدباً مع الناس ؛ بغية  
حشد العامة ضمن الجيش المحارب ، حسنة وأنا سيدك .

وفى ساعة واسعة، رأى الحاج مصطفى حشداً ضخماً من رجال الطرق الصوفية وال دراويش والعامّة، وقد نصبوا محضر ذكر كبير، وأخذوا يجأرون إلى الله: «يا لطيف الطف بنا.. نحن عبيدك كلنا». وغير ذلك من عبارات الإبهال والدعوات، يرددونها ألف مرة، وهذا - كما يقول البعض - كفيل بأن يردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، ويشتت شملهم.

وقال الحاج مصطفى لولده:

- انظر.. إنهم يتخبطون.. الدعاء وحده لا يجدى يا ولدى، لابد أن يحملوا السيف ويهرولوا إلى ميدان القتال، تلك هي العبادة الحقّة.

وأشار بيده إلى ناحية أخرى قد تجمّع فيها بضع مئات من الشبان حول مدفعين قديمين يتعلمون كيف يطلقونها. ثم قال:

- هذا هو الأسلوب الذى يجدى فى الحروب.

وعندما اقترب من حى الأزهر الشريف سمع منادياً ينادى: «حى على الكفاح.. حى على الفلاح..» ما أروعه من نداء، والتفت إلى ولده:

- ألا تسمع يا ولدى؟ إنه نداء الحياة. انظر، الناس يتجمعون بالألوف، لم يعد هناك مجال للحزازت

والخلافات، طوفان الثورة يجتاح الجميع، ويصهرهم في بوتقة واحدة، ويخلق منهم كائناً جديداً.. هذا ما كنت أتوقعه.. لم نعد وحدنا يا حسين.

وفوجئ الحسين بأبيه يهرول مسرعاً، ويصعد مصطبة عالية ويصيح:

«أيها الناس.. حىّ على الكفاح.. حىّ على الفلاح..  
أيها الناس تذكروا ما قاله خالد بن الوليد وهو على فراش الموت: (لقد شاهدت مائة زحف أو زهاءها، وما فى بدنى شبر إلا وفيه طعنة سيف أو رمح، فلا نامت أعين الجبناء..)  
أيها الناس.. هذا يومكم الأكبر..».

وهبط منبره، وزحف نحو باب الأزهر، ودخل إلى المسجد بين التكبير والتهليل.. كان بالداخل الشيخ الشرقاوى، والشيخ المهدي، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والشيخ السادات شيخ طائفة السادات، والشيخ الفيومى والصاوى وقاضى مصر، وغيرهم من جلة العلماء وشاهبندر التجار السيد المحروقى، والشيخ البكرى شيخ السادة البكرية.. ومراد بك وإبراهيم بك والوالى التركى.

كانوا يتحدثون، وهدير كالرعد يصمُّ الأذان ينبعث من حول المسجد التاريخى الكبير. لقد تبدد كل خوف، وانقشع

كل تردد، أثار فيهم حماس الجماهير الصاخبة الثقة والحرارة، فانبروا يتحدثون ويرتبون خطوات المعركة القادمة . . لقد بات الاستسلام بدون مقاومة أمراً مستبعداً، لا بد من الجهاد حتى آخر رمق، وعلى السادة المشايخ ورؤساء الطوائف أن يعبثوا الجماهير، ويؤكدوا لهم أن العمل وحده هو المطلوب، وأن الهتافات بمفردها لا تجدى قليلاً.

ولم يغب عن الحاج مصطفى البشتيلي، وهو يجلس إلى جوار الشيخ السادات صديقه القديم، ما اعتري مراد بك من حيرة وقلق، والغريب أن مراد بك كان منكس الرأس مشتمت الذهن، يطأطئ رأسه لقوارع العتاب والملام التي تنصب عليه من أفواه الجالسين، وهل يستطيع أن ينكر أنه استنفد طاقاته المادية والمعنوية لما بدر منه من غرور وإهمال في إعداد العدة، وتزويد الجيش بما يحتاج إليه؟ أم تراه نسي ما شربه الناس على يديه من صنوف الإيذاء والإذلال والاستغلال؟ . . وتكلم مراد:

- أنا منكم ولكم، وبدونكم لا أساوى شيئاً . . إننى اليوم أقدم حياتى وحياة جنودى من أجل الحفاظ على حرية شعبنا العظيم . . لنذع العتاب، فهذا أوان الوحدة والضراب، أيها السادة الأحياء.

وابتسم الحاج مصطفى البشتيلي، ومال على أذن الشيخ السادات هامساً:

- ترى من كتب له هذه الخطبة المسجوعة التي يحفظها عن ظهر قلب؟

الجو شديد الحرارة، وشدة الازدحام تسيل العرق، وتكاد تزهق الأنفاس، لكأنما تحول شهر يونيو إلى أتون كبير ينضج على لهيبه عشرات الألوف من البشر! . .

ويهمس إبراهيم بك قائلاً: «ما أشد الحر!» .

فيرد الشيخ السادات باسمًا وهو يترنم بآية من القرآن:

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

وعقب البشتيلي: «صدق الله العظيم» .



فى ذلك الزحام والفوران الشعبى المهول، كانت هناك عينان ترقبان كل ما يحدث فى دقة وحذر، عينا برطلمين «فرط الرمان». فعلى الرغم مما عرف عنه من سفالة ونذالة، إلا أن الناس يعلمون أنه من عسكر محمد بك الألفى ضمن طائفة الطوبجية . . واليوم يجتمع الجميع على قلب رجل واحد، لا فرق بين تركى ومملوك ومصرى، ولا منسىحى أو مسلم، ولا أرمنى أو مصرى . . إنهم أبناء وطن واحد يدعوهم للذود عنه. ولم يخف عليه بالطبع ما يجرى من تعبئة واستعداد للمقاومة، لكن قنصل فرنسا أمره أن يحاول

تضليل القادة والجماهير، وأن يوهمهم بأن الفرنسيين قادمون من ناحية دمياط. وحاول برطلمين أن يجند ابنته هيلدا لهذه المهمة، فهي قادرة على أن تقنع حبيها إبراهيم أغا بصحة هذه الأنباء، وعندما فاتحها في الأمر أشاحت بوجهها قائلة:

- دعنى يا أبى لقد مللت كل شىء.

- أتعصين أباك يا هيلدا؟

- ألم تأمرنى بالابتعاد عن إبراهيم؟ .. ثم ألا يكفى أنك سحقت قلبى، وتريدنى أن أضع إبراهيم ورفاقه فى فخ قاتل يطعنهم الفرنسيون من الخلف؟

اقترب منها فى تودد وأخذ يلاطفها ويربّت على شعرها فى حنان، ثم قال:

- لنكن صرحاء، إن هذا الأمر يتعلق بمصيرنا ومستقبلنا، لو لم نقدم للفرنسيين ما يثبت تعاوننا معهم وحسن نوايانا نحوهم، لطاردونا كما تطارذ الذئاب الجائعة، ولخسرنا كل شىء.. أنسيت أننى من رجال محمد بك الألفى؟ ..

كل شىء فى أبيها يدعوها للنفور منه، والاحتقار له. لعل لقسوته السابقة كجندى من جنود الأمراء ما يبررها فى الماضى، لكنه اليوم يغرق نفسه فى مستنقع آسن من الخيانة

البسعة، إنه يخون سادته المالك، ويخون الأرض التي شب عليها، ورضع من خيراتها، ويتنكر للمشاعر الإنسانية التي لم يختلف عليها دين من الأديان.. لو لم يكن أباهما لبصقت في وجهه، ولطخت جبينه بالأقذار... آه.. لم يعد لهذه الحياة معنى بدون إبراهيم، وبعد أبيها هو الآخر.. إن أباهما حتى يرزق، لكنها قد افتقدته.. لقد تحول إلى ثعلب ماكر جائع يتلهف حرقاً لدماء الضحايا الأبرياء.. أين أحلامها الوردية الجميلة؟

وفجأة سمعها تقول:

- لماذا تكره الناس هنا يا أبى؟

- الكره لا يأتى وحده يا هيلدا.. لا بد أن هناك أسباباً أصيلة.

- أريد أن أعرفها لعلى أو من بها.

- لو لم تشكى فى أبيك لآمنت بما يقول دون حاجة إلى أسباب.. حسناً. أنت لا تحبينهم مثلى تماماً، لكن حبك لإبراهيم اتسع فى بلاهة فشمل كل شيء.. وإبراهيم ضابط صغير لا ينتظر لنجمه بزوغ.. لن أروى لك الأسباب، فأنت على غير استعداد لفهمها، لكنى واثق أنك ستدركينها بعد أن تطردى إبراهيم من قلبك..

كانت تتشرب كلمات أبيها فى تقزز كما تتشرب ذلك المحلول المر الذى يقدمه لها وهى مريضة، وكانت تدرك - أكثر

من أى وقت مضى - أنه والد بلا قلب ، بل أخذت تشك فى كل ما أغدقه عليها من حب وحنان فى سالف الأيام .

هزت رأسها فى عصبية ، ثم تمتت :

- لسوف أذهب إلى إبراهيم كما أمرت . .

- أنا لا أمرك يا مليكتى ، بل أرجو . .

\*\*\*

فى الطريق إلى إبراهيم كانت تتساءل : لماذا لم يخلقها الله على شاكلة أبيها من المكر والدهاء؟ ترى هل يرجع ذلك إلى أمها الطيبة المريضة التى كثيراً ما تحدثها عن جدها الكبير الثرى الذى كان يغدق الخير على الفقراء ، ويأوى الضائعين ، وينفق على الأديرة ، وهل معنى ذلك أن جذورها تمتد إلى الأرض المصرية الخصبة التى أنبتت أمها وجدها؟ . . إن ذلك التناقض بينها وبين أبيها ، ثم بين أمها وأبيها تناقض معذب محير . . لقد قضت طفولتها فى شوارع القاهرة وأزقتها وبيوتها ، كانت تدخل بيوت النصارى والمسلمين على السواء ، وتأكل وتشرب وتلعب . . لم يحدث خلال سنى الطفولة والمراهقة ما يحول قلبها عن أهل مدينتها الحبيبة ، أحبّت كل شىء فى وطنها : الأرض والماء والسماء والمباني والشوارع والناس . . وكانت تحفظ سورة الفاتحة والصمد والمعوذتين كما يحفظها أبناء

المسلمين . لم تستشعر في حياتها شيئاً من المقت والكرهية نحو أولئك الذين كانوا يطاردونها بعبارة الغزل الرقيقة المحببة إلى نفسها : «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» . قلّ ما كاوا ينادونها باسم هيلدا ، بل إن بعض المشايخ الكبار عندما سمع اسمها الحقيقي ، تربع وقال فيما يشبه الثقة : «أعتقد أن كلمة هيلدا كلمة محرفة ، وأظنها مأخوذة عن كلمة «خالدة» العربية الصميمة ، تماماً كما حدث لاسم قصر «الحمراء» بالأندلس حينما أطلقوا عليه «الهمبر» . ما زالت هيلدا تبحث عن الأسباب التي تدفع أباهـا لارتكاب تلك التصرفات الشائنة ، وكلما أمعنت في التفكير خيل إليها أنها تضرب في متاهات من الظلام والأوهام والشكوك القاتلة ، ثم تنتهي خطواتها المجفلة في تلك المتاهات إلى حقيقة مرة مفرجة تدين أباهـا .

وما فتئت تشق طريقها وسط حشود صاحبة من الناس المتجمهرين هنا وهناك ، وهى تقصد القلعة حيث معسكر إبراهيم ورفاقه . كانت هتافات الجماهير تتسلل إلى أذنيها ثم تمرق إلى قلبها فتسرع بنبضاته . لم تشعر بغربة أو تقزّز من تلك الأجساد التي ترتطم بها مصادفة في الطريق العام ، خيل إليها أن وشائج سحرية تشدها إلى تلك الجماهير ، برغم رثانة منظرها ، وحفاء أقدامها ، وهديرها الصاخب الذى يصم الأذان . لكم تمنى أن تنسى كل شىء وتندمج وسط

تلك الجماهير، وتشاركهم ما هم فيه من صخب وهتاف!!  
لكنها تسمع خلفها صوتاً ندياً لا تعرفه، صوتاً مجهولاً  
يقول: «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» فتتندى عيناها  
بالدموع، وتهزها فرحة مباغته تنسيها الكثير من آلامها  
وأحزانها، ومن خلال ستار الدموع الشفافة تنظر إليه في  
ود، لكنه سرعان ما يتوارى في خجل . . إنه واحد من فتيان  
الموسكى حيث يوجد دكان أبيها .

وعندما تبلغ القلعة، وتسال عن إبراهيم أغا، يخبرونها أنه  
قد رحل إلى إمبابة ضمن القوة الأمامية التي ستواجه الفرنسيين  
هناك، وتكون المفاجأة الكبرى عندما تعود إلى البيت، فيصر  
أبوها على أن يركبها عربة لكي تذهب إلى إمبابة لتؤدي المهمة  
القدرية التي كلفها بها . .



## [٤]

أدركت هيلدا عندما وصلت إلى معسكر إمبابة والشمس مائلة للغروب أية طعنة قاسية يريد أن يوجهها أبوها إلى تلك القوات المرابطة، التي لا هم لها إلا الدفاع عن شرفها وأرضها وقيمها الخالدة، وأيقنت تمامًا بالسفالة المارقة التي تكمن وراء لعبة أيها، وهو يناصر الأعداء، ويضع المدافعين في كمين ساحق. يا لها من لعبة! إنه يلهو بأرواح الآلاف. . . فأية أسباب وجيهة - مهما كانت وجاهتها - يستطيع أبوها أن يقنعها بها؟ وحينما سألت عن إبراهيم واستدعوه لها، رآته قادمًا من بعيد. . . كان مغبر السحنة، مشوش الشعر، تسيل قطرات العرق على جبينه الذي لوحته الشمس. . . ولم تتمالك نفسها وهي ترمق نظراته البريئة الوالهة أن تلقى بنفسها بين ذراعيه. . . وتمتم إبراهيم:

- لقد جئت في وقتك .

- كيف؟

- كنت أشعر بمسيس الحاجة لرؤياك . . يا لها من أيام! . .  
لم أجرب ذلك طول حياتي ، إنى أدرك الآن ماذا ينقص رجل  
الحرب المقبل على معركة ضارية .

- أى شىء تقصد؟

- قبيل المعركة الحاسمة أدرك أنى فى نهم شىء للحياة . .  
أريد أن أعب منها بشراة وبأكثر مما أستطيع . إن ما كنت أفكر  
فيه الآن ليس المعركة وحدها ، كنت أقول لىفسى : « ترى هل  
أعود إليك يا هيلدا مرة ثانية؟ » وأشعر بالندم فى كثير من  
الأحيان ، لماذا؟ لماذا لم نستمتع بحياتنا كأقوى ما يكون  
الاستمتاع؟ أعنى لماذا لم نتزوج قبل ذلك؟ لكأنما الأيام التى  
قضيناها معاً كانت مجرد لحظات قصار .

تبليت عيناها بالدموع وهى تستمع إلى حديثه ، وازداد  
تشبها به . وقالت فى نبرات يخالطها البكاء :

- تتكلم وكأنك تودعنى!

- لا أدرى بالضبط . . لكنى سعيد بلقائك .

وشعرت بمقت هائل يجتاح قلبها لكل سخافات الحياة . .  
لماذا الحرب؟ وما الذى يجعل هؤلاء القادمين من الغرب  
يتركون بلادهم وذويهم ويأتون إلى هنا ليريقوا الدماء ،  
ويقبلوا هناء البشر إلى شقاء ، واطمئنانهم إلى قلق؟! كان

بداخلها بركان ثائر، واضطراب فكرى لا مثيل له، وخيل إليها آنذاك أنها لو خيرت بين الدنيا كلها وبين حبيبها لاختارته مرتاحة الضمير، قد تكون هذه أنانية، لكنها لم تعد توقن بجدوى ذلك الشقاء البشرى وإشعال الحروب دون سبب، وبدا لها العالم كله فساداً فى فساد، فلم لا تختطف حبيبها وتهرب به، وتنزل عن الدنيا وما فيها، بعد أن اجتاح الفساد كل القيم النبيلة؟

ونظرت إلى حبيبها قائلة له:

- لست أدري لماذا تعرض نفسك للموت؟!!

ابتسم إبراهيم وهو يقول:

- إننى أؤدى الواجب.

- بل أنت تدافع عن سلطة سادتك المماليك والأتراك

ومجدهم.

- بالطبع، لكنى أدافع عن الوطن الذى يحكمونه فى نفس

الوقت، وعن شرفى العسكرى كجندى، وعنك أيضاً يا

هيلدا. إنها معركة مقيتة جاءت فى وقت غير مناسب، لكن

لا تنسى أنى برىء من تبعتها، فأنا لم أطلب من الفرنسيين أن

يأتوا إلى هنا. اللوم كله ينصب على هؤلاء المعتدين يا

عزيزتى، ومع ذلك فغداً تنجلى الغمة، ويعود الصفاء. كثيراً

ما يقع الإنسان في أزمات خانقة يخيل إليه أثناءها أن ظلامها  
لن ينكشف، لكن لكل شيء أجل . . لن تستمر المعركة طول  
العمر، لا بد أن يكون لها نهاية .

قالت وهي تجفف دموعها:

- معذرة، لكم أتمنى أن تسحقوا العدوان، وأن تبقى هذه  
البلاد بخير، لكنني أخاف أن يصيبك مكروه .

قال وهو يشرد ببصره بعيداً:

- وأنت؟ أهناك ضمان ألا يصيبك مكروه وأنت في عقر  
دارك؟ إنه قدر الإنسان، وقدر الإنسان لا تقف في طريقه  
عقبات .

وتذكرت أباهما على الفور الذي نال الضمان لحمايته، بل  
نال الوعد بأن ينال الثمن، ويبلغ ما يريد من آمال على يد  
الفرنسيين، واقتنعت وهي تستمع إلى كلمات إبراهيم، أنه لا  
ضمان إزاء إرادة القدر، وبدا لها أبوها فأراً صغيراً يوهم نفسه  
أنه قد ملك مصير كل شيء . . وعلى الفور تذكرت المهمة التي  
كلفها بها أبوها، ثم فكرت . . ألا يمكن أن يستطيع أبوها  
حماية حبيبها؟ لا . . لشد ما تناقض نفسها، وتتخبط بين  
أفكارها! . . وأبوها قاس لا يرحم، ولن يعرض نفسه لأدنى  
شبهة من جراء نزوات ابنته . .

قالت هيلدا:

- ومتى تبدأ المعركة؟

- لا أدري، لكنني علمت أن العربان والفلاحين بالبحيرة قد بددوا شمل كتيبة فرنسية، وهذا يعنى الأمل . . زعموا أن الفرنسيين لا يهزمون، لكننا نسمع الآن عكس ذلك، وأعتقد أن المعركة على الأبواب، ولسنا ندرى هل سيقدمون من ناحية الشرق أم من الغرب؟

سرت الرجفة فى جسدها، وأدركت أن مثل تلك الحيرة قد تبدد نصف طاقة الجنود والقادة. ولم تستطع أن تتصور إبراهيم وهو يتجه ناحية الشرق، ثم تفاجئه الضربات من الخلف، فيخر صريعاً . . وتصورت أباها، وهو يقهقه فى شماته، ويربت على كتفها فى شكر وامتنان، ونظراته القاسية تلمع ببريق الشيطان، فلم تتمالك نفسها أن أجهشت باكية؛ مما أذهل إبراهيم، ثم أخذت تقول:

- أنا على يقين أنهم قادمون إلى هنا . . تأكد من ذلك يا إبراهيم، يجب أن تخبر الجند والقادة بذلك .

- أهذا كل ما يزعجك؟ على أية حال هذه مسألة بسيطة، وستوافينا الرسل بالأخبار من كل مكان. إن ما يفعله الفرنسيون فى الإسكندرية وما حولها تأتينا أنبأؤه أولاً بأول، ولا أظن أن هناك ما يزعجك لهذه الدرجة .

شعرت بارتياح عميق، وانجاب عن روحها أثقال كبيرة،  
لقد انتصرت للمعانى الكبيرة التى تؤمن بها عن فطرة،  
واستطاعت أن تخرس صوت الشيطان، الذى حاول أبوها  
أن يلبس به روحها وجسدها، ولسوف تعود إلى أبيها،  
وستخبره أنها قد أدت مهمتها على أتم وجه، وسيبش لها  
بشاشة من نوع غريب تكرهه ولا تتمنى أن تراه، وسيهرول  
أبوها إلى سادته الجدد، ويخبرهم أن كل شىء على ما يرام،  
وأن الأمور تسير سيرها الحسن، وبالطبع سيتلقى الأوامر  
الجديدة، ويقضى ليله ونهاره كادحًا من أجل تنفيذها .  
وتمت :

- إبراهيم . . . إننى أدعو لك بالنصر .

- وإذا انتصرنا يا هيلدا فسنحيا كأسعد زوجين فى الوجود  
إن لم يكن لدى أليك مانع، أعرف أن لديه حساسية غريبة  
بالنسبة لاختلاف العقيدة بيننا، وحساسيته قد تبلغ درجة  
التعصب الشديد . . . معذرة، فأنا لا أتصور أن أى شىء يمكنه  
أن يفرق بين قلوبنا .

وتذكرت ما انطوت عليه تصرفات أبيها من وحشية،  
فقال :

- شىء واحد . . الكراهية .

قال فى انزعاج :

- أنت تكرهين؟ لا أظن مطلقاً أنك تعرفين هذه الصفة المقيته .

- بل أعرفها جيداً . . لقد رأيتها كثيراً على وجوه بعض

الناس ، وفى تصرفاتهم .

- وأنا وأنت؟

فأخذت تقبله فى نهم وهى تقول :

- نحن خلق آخر . . إننا نعيش فى عالم رائع جميل خالص

لنا . . وحبنا أقوى من أى شىء فى الوجود .

- ولهذا فأنا أثق فى المستقبل وأؤمن بالله . . لشد ما أشعر

بأننى أتغير وأتغير كل يوم . . الإنسان فى المعركة يشعر أنه

قريب من الله . . دعينى أعترف لك ، لقد ارتكبت كثيراً من

ال حماقات ، كالألاف غيرى من عساكر المماليك وضباطهم ،

كنت أعتقد أنه من الضرورى أن أحترق الفلاحين والعامه ، بدا

لى الأمر كأنه سلوك اجتماعى لا مناص منه ، اتخذ سمة العرف

السائد ، لكن هذه الأيام كشفت لى الكثير . . كلنا بشر ،

والناس هنا طيبون ، ويقفون إلى جوارنا فى المعركة ، فى وقت

الشدّة وحدهم ينسون الإساءات . . لا أدرى لماذا أتطرق لمثل

تلك الأحاديث ، لكننى أريد أن أتكلم وأتكلم . . إن الشوانى

والدقائق التى تمر من العمر لا تعود ، والحرب عمياء يا هيلدا .

قالت فى انفعال :

- لكنك تؤمن بالله وبالمستقبل .

- أجل .

- وكل شىء له أجل كما تقول .

- أجل . . إلا حينا، فهو خالد خلود الشمس .

- ولسوف ننعـم بحياتنا المقبلة .

- أجل . .

وعادت من الطريق نفسه، كل شىء حولها يوحى بالحركة والحياة، الناس يستيقظون، وهدير الحياة أقوى من كل غباء الإنسان وجشعه، والخديعة رذيلة ليس لها ما يبررها، والطمع وحشية . . ولدى الباب كان أبوها يقف قلقاً متلهفًا، وصاح فى صبر نافذ :

- هيه . . هل وجدت إبراهيم؟

قالت فى اقتضاب، وهى لا ترفع رأسها :

- أجل .

- وهل استطعت إقناعه بوجهة نظرك؟

- بالطبع، إبراهيم يثق فى ثقة عمياء .

وبدت على وجهه فرحة الطفل الخبيث ، ثم تمتم :

- لقد قبض المماليك على الفرنسيين هنا ، وعندما يدخل نابليون القاهرة منتصراً فسأقدمك له شخصياً ، وستالين صداقة القنصل وأشرف الضباط العظام ، وستعلمين عندئذ أن أباك كان على حق يا هيلدا يا معبودتى . .

وانحنى على وجنتيها يقبلهما فى شغف . . كانت هيلدا تشعر بقبلاته وكأنها أشواك تدمى الوجنتين ، فأغمضت عينيها مستسلمة وهى تتمنى من صميم قلبها أن تنتهى هذه التمثيلية الرخيصة . وعندما توارت داخل حجرتها ، تنهدت فى ارتياح ، وشعرت برغبة جارفة فى البكاء ، لكن صوتاً جاءها من الخلف :

- بارك الله فيك يا هيلدا . . لكم أحبك . . كنت واثقاً أنك أكبر من سخافات الحب الطائش وتهويماته الفارغة .

قالت فى امتعاض :

- لندع هذا الأمر فلا نتكلم فيه مرة ثانية يا أبى .

- ليكن . . أمرك يا حبيبتي . . هذا عين الصواب . . لكن كيف استقبلك إبراهيم؟ وماذا وجدت هناك؟ . .

زفرت بملل :

- كما استقبلنى فى الأيام الخوالى ، والجميع هناك يستعدون للمعركة .

- كم عدد المالك؟

- المصريون أكثر من المالك، وأنا لم أقم بإحصائية.

- هذه مصيبة هؤلاء المصريون أمرهم غريب، هل نسوا

سريعاً ما أصابهم على أيدينا . . أعنى على أيدي المالك؟ . .

قالت هيلدا:

- إن لهم وجهة نظر أخرى . . وأنا فى الحقيقة أريد أن أنام.

- أعرف أنك متعبة . . تصبحين على خير . .



جلس الحاج مصطفى البشتيلي وحيداً إلا من أساه وعذابه . .  
لقد وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة . . وانهارت مقاومة  
المماليك والأتراك فى الإسكندرية وضواحيها ، وإن بقيت  
مقاومة أهاليها مستمرة فى موجات قد تضعف وقد تقوى ولكنها  
لا تموت ، ورسائل حاكمها «السيد محمد كريم» تأتى من يوم  
لآخر حاملة من الأنباء كل غريب وجديد . ومن أغرب رسائله  
ذلك المنشور المطبوع الذى أمر «السر عسكر الكبير أمير الجيوش  
الفرنساوية بونابرت» بتوزيعه على عامة الشعب .

وتحس الحاج مصطفى جيبه ، وأخذ يبحث عن المنشور ، ثم  
أخرجه ونشره وشرع يقرأ صامتاً : « . . بسم الله الرحمن  
الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه . . » .

وابتسم الحاج فى أسى ، ثم تابع القراءة بصوت خفيض :  
« . . يا أيها المصريون ، قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف

إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح لا تصدقوه،  
وقولوا للمفتريين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من  
يد الظالمين . . .» .

وهز الحاج رأسه، إنها اللعبة المكشوفة التى يلعبها الغزاة  
الجدد. يا له من رجل طيب ذلك المدعو نابليون! . . لقد تأثر  
قلبه الرقيق لما يعانيه المصريون من ظلم وهوان، فتكبد المشاق،  
وساق جنوده وأسطوله، وحمل سلاحه ليضحى من أجل  
البؤساء . . نظر إلى العالم كله، فلم يجد أحق بالرعاية  
والعطف منا . . القصة القديمة نفسها، التاريخ يعيد نفسه، كل  
طامع يحاول أن يخفى أطماعه وراء معسول الكلام،  
والادعاءات الزائفة . . لعل البشرية، فى فجر حياتها، كانت  
أكثر صراحة منها الآن . . كانوا يشنون الحروب الضارية،  
لكنهم - على الأقل - كانوا لا يكذبون . . وكلمما تقدمت  
الحضارة والعلم، ازداد الطغاة تفتناً فى إخفاء مراميمهم الخبيثة .  
والغريب أنهم قبل غيرهم يعرفون تمام المعرفة مدى ما تنطوى  
عليه دعاويهم من بهتان!

وعاد يقرأ المنشور من جديد: « . . أيها المشايخ والقضاة  
والأئمة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنسيات هم أيضاً  
مسلمون مخلصون . . » أهكذا دفعة واحدة؟ أ يصل الخداع  
لهذه الدرجة الصارخة من الصفاقة؟!

واستمر في القراءة: « . . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقدون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم، وتعلو مراتبهم». ها هو «المسلم نابليون» يلوح لمن يوالون بالفائدة العظمى، ويمنيهم بأعلى المراتب. . . يفتح مدرسة جديدة للخيانة والغدر، ويث فيها مبادئه المدمرة! . .

ويستمر المنشور: « . . طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين، فإذا عرفونا بالأكثر، تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على الممالك في محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر. . .».

هكذا يكشف الذئب عن نواياه! . . إنه يقسم البلد إلى طوائف، سيحارب طائفة ويهادن أخرى. أما من يعرف واجبه الوطنى، وينفذ ما يمليه عليه ضميره ودينه، فلسوف تحل به لعنة الرجل المؤمن، الموحد بالله، المسلم العريق نابليون بونابرت! . .

وتبلغ لحظة الكشف والوضوح مداها، حينما يقرأ الحاج مصطفى المادة الثانية التى تقول: «كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار». . . أجل، هكذا يكون الدين، وهكذا تكون المدنية، وهكذا يكون تخليص المظلومين والتعساء. . .

وطوى الحاج مصطفى البشتيلي الورقة، ثم أعادها إلى جيبه، لقد قرأها مراراً وتكراراً حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب، برغم ركافة أسلوبها، وكذب مراميها. والحاج مصطفى يعلم علم اليقين أنه ليس في مصر كلها من يصدق الفرنسيين، بما فيهم المتعلم والجاهل، والمشايخ أو التجار أو الفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة. . بل إن الشيخ السادات، عندما قرأ المنشور، قال: لعل المعركة القادمة من أحيث المعارك التي سنخوضها. لم يكن الصليبيون في حملاتهم السبع، التي استمرت قرنين أو أكثر من الزمان، لم يكونوا يلجئون إلى مثل تلك الحيل، والبلاغات الكاذبة، ولو فرضنا أن نابليون مسلم وموحد بالله، فهل يعنى ذلك أن نفتح له أبواب مدينتنا، ونسلمه قياد أمرنا؟! إنها الأعيب مكشوفة لا تخفى على أعين الخلق. . إن تهديده بحرق القرى التي تبدر منها أدنى مقاومة، له دلالة عميقة. . مثل هذا الرجل لا تعرف الرحمة ولا العواطف الإنسانية إلى قلبه سيلاً وعلى أية حال، فلن تكون هذه الحرب آخر ولا أول معركة نخوضها. إنها ابتلاء من الله، ولعل ذلك يكون فاتحة خير. . لكم طال نومنا، حتى خيل إلى أن اليقظة في هذه الأيام معجزة عسيرة التحقيق، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِشْيءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والحاج مصطفى يذكر أن الشيخ السادات شن حملة عنيفة على أولئك الذين يهجرون الديار المصرية، ويفرون إلى بر الشام أو الصعيد أو أقاليم مصر النائية، واعتبر ذلك جبناً يتنافى مع المروءة والشرف، وإن الواجب في تلك الأيام أن يقف كل إنسان على ثغرة من ثغرات الوطن، يدافع فيها عن حرите وكرامته حتى الموت. . ورأى الشيخ السادات أن يتنازل الأغنياء عن جزء من ثرواتهم ومقتنياتهم للمجاهدين في هذه المعركة المقدسة، والتأخر عن تأدية الواجب لا يمكن أن يسمى سوى جريمة شنعاء في حق الدين والوطن. .

وصاح الحاج مصطفى بولده الحسين، فأتى مسرعاً، فقال

الحاج:

- ما تنوى أن تفعل؟

- فيم يا أبى؟

- لم تعد صغيراً يا ولدى.

- أعلم ذلك.

- والمعركة على الأبواب، أتفهمنى؟ إن أمك رقيقة القلب

لدرجة مخزية. هز الحسين رأسه، واحتقن وجهه الغض،

وتمتم:

- «أدرك ما ترمى إليه، وأنا طوع أمرك فى أى ميدان تضعنى فيه. ليس هناك أعظم من أن يضحى الإنسان فى سبيل أمته ودينه. . . كثيراً يا أبى ما كنت أقرأ التاريخ، وأسمع الوعاظ، وأعيش بخيالى مع الأيام الكبيرة فى تاريخنا، ولا أكتمك الأمر حينما أؤكد لك أننى كنت أحلم بمثل تلك الأيام، برغم ما سيدور فيها من قسوة وتضحيات».

ابتسم الحاج فى ارتياح، واستعاذ بالله وبسمل، ثم قرأ:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وسادت فترة صمت، استطرد الحاج بعدها قائلاً:

- ما أعظم أن يعيش البشر فى هدوء وسلام، يسعون من أجل مصالحهم والبر بأبنائهم ومجتمعهم، لكن وجود الشر فى هذه الحياة هو الذى يثير قوى الخير ضده. . . تلك سنة الحياة. . . ليس الفرنسيون هم الشقاء وحدهم، إن هذا الشقاء الجديد يسبقه تاريخ طويل من العذاب والأسى على أيدى الأتراك والمماليك، لكننا لطول الأمد أوشكنا أن نهمل شقاءنا القديم وننساه، وإن كنا نعايشه معايشة أليمة. يبدو لنا أن المعركة الحالية ستصوغ حياتنا صياغة جديدة على أية حال. . .

وتنهذ، ثم عاد يقول:

- ليس هذا وقت التحليل والشرح، إنه وقت العمل . .  
ولتعلم أنه منذ الغد سنبدأ عملنا الحقيقي .

وانحنى الحسين على يد والده يقبلها، بينما تناهت إلى  
أسماعهما قرعات على الباب الخارجى، وصوت مألوف  
لديهما يهتف: «يا أهل الله . .»، وبعد أن فتح الباب دخل  
الفقيه الكفيف «على الجنجيهى»، ولم يكدير وقت قصير،  
حق تتابع الأصدقاء: الشيخ إبراهيم سلامة، وصانع البارود  
أحمد المدبولى، والتاجر الصديق الحاج غمرى،  
وغيرهم . .

وكان تقدم الفرنسيين نحو القاهرة هو حديث الساعة. فى  
كثير من الأحيان يبدو حديث الحرب والسياسة مملًا ثقيلًا، لكنه  
لا يكون كذلك عندما يجد الناس أنفسهم غارقين فى بحر من  
الهباج والتوقع والمصير المجهول؛ لأنهم يرتبطون بالأحداث  
ارتباطًا مباشرًا. لقد توارت المشكلات اليومية خلف واجهة  
ضخمة من الأحداث الجديدة، لم يعد الناس يفكرون كثيرًا فى  
غلاء الأسعار، أو الحوادث الفردية، أو الصراعات العائلية،  
ولم يعودوا يتذكرون بالتفصيل ما فعلته كوكبة من جنود  
المماليك فى حى من أحياء القاهرة، وهم ينهبون ويرتعون،

حيث لا يوجد من يستطيع أن يوقفهم عند حدهم . . الخلافات المذهبية الناشئة، التي كثيراً ما تدور بين حنابلة وشافعية، لم تحتل المركز المهم . . إن الحرب قادمة إليهم، وسيكونون وقودها لا محالة . . ومن ثم كان حديث الحاج البشتيلي وأصحابه وجيرانه، الذين تجمعوا في حجرة الضيوف الواسعة حديثاً متشعب الأطراف عن الحرب والمستقبل والخطط الحربية، واندحار الممالك والعربان والمصريين عند شبراخيت أمام الفرنسية .

الشيخ إبراهيم سلامة عالم متبحر، يبدو يقظاً ملمّاً بما كان يجري من أحداث قديمة أيام على بك الكبير وأبي الذهب وغيرهما، وعلى الرغم من أنه قد تخطى السبعين، إلا أنه يحظى بذاكرة واعية . . وعندما دار الحديث عن منشور نابليون القاهرة، تكلم الشيخ العجوز قائلاً:

- لا أصدق مطلقاً ما يزعمه نابليون من أنه تعهد بحماية حق تركيا والسلطان في حكم مصر، وأنه إنما جاء لتأديب الممالك والقضاء عليهم . . إنه لأمر مضحك أن يتطوع رجل من آخر الدنيا للدفاع عن حرمة الدولة العثمانية، والحفاظ على حق السلطان، دون أن يتدبه السلطان لذلك . .

وأخذ الشيخ على الجنجيهي يذب ذبابة تأبى إلا أن تلتصق

بأنفه، ويقول:

- السياسة بحر عميق واسع غامض.. لا يدركها إلا أولو العزم من الرجال.

قال الحاج مصطفى:

- هون عليك يا جنجيهي، المسألة - كما يقول الشيخ السادات - في غاية البساطة، طبعاً أنتم تعرفون شيئاً عن الإسكندر وأمثاله، ونابليون واحد منهم، رجل يحلم بالمجد والسيطرة السياسية والمالية، إنها عملية نهب أموال الشعوب لا أكثر، ولقد سمعت من أحد الأجانب - غير الفرنسيين - بالأمس، أن المعركة الحامية بين فرنسا وإنجلترا في أوربا اتخذ لها أرضاً جديدة، ف نابليون يريد أن يحتل مصر ليتحكم في مصير العالم التجارى والسياسى، وليجعل الإنجليز ومستعمراتهم في الهند تحت رحمته.. المعركة تتسع بين نابليون والإنجليز، وهذا تفسير يقبله العقل، ولهذا فأنا أميل إلى تصديق الشائعة التى تقول: إن الأسطول الإنجليزى يطارد الأسطول الفرنسى، ويبحث عنه فى عرض البحر الأبيض.

هز على الجنجيهي رأسه وتمتم:

- «يا خبر أسود.. لؤم خواجات صحيح.. الحكاية كبيرة

جداً . . رحمتك يا رب . . إن مصيبتنا ثقيلة! . . » .

دق قلب تاجر البارود المدبولى فى رعب وقال :

- يبدولى يا بشتيلى أن زوجتك كانت على حق حينما  
اقترحت عليك الهجرة! . .

والنفت البشتيلى إلى الشيخ إبراهيم سلامة قائلاً له :

- رد عليه يا مولانا .

قال الشيخ العجوز :

- القرآن صريح فى هذه المسألة ، لكن الناس فى هذه الأيام  
لا يهتمون بكلمات الله ، ولا يعملون على تطبيقها . . ألم  
تسمع قول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا  
فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤْكِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ  
مُتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ١٥ ، ١٦] هذا  
هو الحكم الشرعى .

قال الجنجيهى :

- أجل . . لكن الله يقول فى موضع آخر . . ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ  
اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] .

صاح الشيخ إبراهيم سلامة فى غضب :

- هذا تحريف للكلم عن مواضعه ، وتلاعب غريب بأيات

الله! .. أنت يا جنجيهى لا هم لك إلا تجويد القرآن وقراءته بصوت رخيم، أما التفسير واستنباط الأحكام فهذا أمر لا يخصك، إن فتياك عن جهل تورذك جهنم ..

قال الجنجيهى محاولاً أن يبدد جو التوتر:

- ألا ترى يا مولانا أن جهنم أرحم من ذلك الكرب الذى ينتظرنا؟ ..

- كل ما تراه من مظاهر القوة والبطش اليوم، شىء تافه أمام قدرة الله وجبروته .. ما أكثر ما رأينا وسمعنا وقرأنا عن سلاطين زالوا، وملوك اندثروا، ودول انهارت .. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وأدرك الجميع أن المدبولى على غير العهد به، ضائق النفس، ضمجر الحديث، فهتف البشتيلى به قائلاً: ماذا جرى؟  
قال أحمد المدبولى:

- رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندى من بارود دون أن يدفعوا شيئاً .. إن السلب والنهب لا يفارقانهم حتى فى أوقات الحرج! ..

أسرع البشتيلى قائلاً:

- وماذا فى ذلك؟

- لكنك أقت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك!

- الوضع يختلف يا مدبولي .

- وماذا أطعم أولادى يا بشتيلى فى هذه الأيام السوداء؟

- الحرب تعنى التضحية . . نعم ما فعلوا .

- التضحية يا بشتيلى لا تكون سلباً وقهراً، والذي يضحي

ويرتك أولاده خاوية بطونهم إنسان مجنون! . .

ابتسم البشتيلى وقال:

- لا تتكلم عن خواء البطون، فأنا أعرف الكتر الذى ترقد

فوقه .

- بصراحة يا بشتيلى . .

قاطعهُ قائلاً:

- تكلم . . خير لنا أن نمشى حفاة عراة جياعاً ونحن أحرار،

من أن نسكن القصور ونرقل فى الحرير والرغد، ونحن عبيد

للفرنسيين .

قال المدبولي:

- الكارثة هو أنى لا أو من بجدوى المقاومة بعد كل الذى

سمعته، يجب أن تفتحوا عيونكم جيداً، إن مدافع الأعداء لا

يقف فى طريقها شىء، وخبرتهم الحربية فوق التصور، واستعداداتهم لا مثيل لها. . دعوا الأوهام والحماس جانباً، وفكروا بعقل. أعرف أن كلامى قد يضايقكم، ولعله يوصمنى بالجن والحيانة، ليكن. . فأنا رجل أحكم عقلى وقد علمتنى التجارة أشياء كثيرة.

كان يتوقع أن تثور عاصفة من النقاش الحاد على أثر آرائه الخطرة الموثسة، ويبدو أن الشيخ إبراهيم سلامة كان على وشك أن ينفجر فيه غضباً، لكن البشتلى قال فى هدوء غير متوقع:

- لك أن تفكر كيفما شئت، وتصل إلى ما ينفعك من نتائج، لكن الشىء الذى لا جدال فيه، هو أن أية أمة يعتدى عليها المعتدون لا بد أن تهب للدفاع عن كرامتها. . لم نقرأ فى التاريخ أن أمة عريقة استسلمت هكذا دون مقاومة، والفرنسيون بشر مثلنا، والبشر قد يهزمون وقد ينتصرون، ولم تتصر أمة على طول الخط.

وبدا أن الشيخ إبراهيم قد عاوده الهدوء فقال:

- دائماً تنسى يا مدبولى حكم الله فى مثل هذه الأمور البديهية.

رد عليه المدبولى قائلاً:

- أتتهمنى بالغباء يا مولانا؟!!

فأجابه الشيخ إبراهيم بقوله:

- لا يصح أن تفكر في كل شيء بطريقة التجارة، في التجارة الربح بالطبع هو المفضل على الخسارة، لكن الجهاد شيء آخر، قد يخسر الإنسان ماله وحياته وأولاده، لكنه هو الظافر، كيف؟؟ هكذا قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].. إلى آخره من آيات الجهاد الكثيرة.

وشحب وجه المدبولي، وعاد يقول:

-التضحية مسألة اختيارية.

أجابه الشيخ العجوز:

- والجهاد واجب يا مدبولي.

وازداد شحوب وجه المدبولي عندما قال البشتيلي:

- أنا تاجر مثلك، وأعرف فيما تفكر.

- ماذا؟

- لقد كنت تظن أن الحرب سوف تنمي تجارتك، وتزيد من أرباحك، وخاصة أن بضاعتك هي البارود، لكن يجب أن تعلم أن هناك أوقاتا لا يصح أن يفكر فيها التاجر بعقلية

المكسب والخسارة .

- ولم لا تفعل أنت ذلك؟

- سترى . .

وسادت فترة صمت ، تلفت البشتيلي بعدها عن يمينه ، ثم

قال :

- هيا يا جنجيهي ، فإنني ظامئ لكلمات الله الحلوة .

قال الجنجيهي :

- والآن سيعرف مولانا الشيخ سلامة ، أنني لست جاهلا

بدرجة كبيرة ، لأنني أعرف على الأقل أن سورة «الأنفال»

مليئة بآيات الجهاد ، وسوف أقرأ لكم منها قسطاً كبيراً . .



توتر الجوفى فى منزل الحاج مصطفى بصورة ملفتة للنظر ، لقد كانت زوجه أطوع له من بنانه ، قلّ ما تسفه له رأياً ، أو تعترض على أمر من الأمور ، إن زوجها هو سيدها ، وهى تؤمن أنه يعرف أكثر مما تعرف ، وخبرته فى الحياة أثرى من خبرتها ، ثم إنه أولاً وأخيراً رجل ، وهل تستطيع أن تنسى وضعها البديهى المعروف كأئى فى منزلة التابع المطيع؟! لكنها خرجت عن الوضع المألوف فجأة ، وأقامت الدنيا وأقعدتها ، وخاصة عندما أعادت النظر فى تصرفات زوجها . . لقد رفض رأياها فى الهجرة قبل أن تقترب ساعات الخطر ، لم تستطع أن تلح عليه كثيراً ؛ لأنها تعلم الكثير عن صلابة تشبثه ، وعدم تنازله بسهولة عن رأى ارتآه ، لكنها فوجئت به يجند ابنه الوحيد ،

ويدسه ضمن القوات المحاربة، بل فى الصفوف الأولى تحت إمرة «إبراهيم بك» الذى عسكر بجيشه عند «بولاق»، معنى ذلك أن فرصة النجاة لولدها أصبحت نادرة الحدوث. ولم يكتف بذلك، بل دس بنفسه هو الآخر ضمن قوات البحرية على إحدى السفن الراسية فى الميناء. . والمصيبة أنه لم يرحم ابنته زينب، فاختطف خطيبها هو الآخر، ودفعه إلى الميدان مع ولده الحسين. . ومنذ يومين فقط، لجأ إلى عمل جنونى، فقد اشترى باروداً وسلاحاً بجزء كبير من ماله ووزعه على القوات الشعبية التى تخوض المعركة جنباً إلى جنب مع المماليك، وتخلص من كل المخزون لديه من البضائع بأبخس الأثمان؛ كى يساهم فى تقديم الأقات للمحاربين.

وعندما بدت الدهشة على وجهه وزوجه صرخ فيها محتداً:

- «أيتها الجاهلة، لقد استطاع عثمان بن عفان خليفة رسول الله ﷺ، أن يجهز جيشاً كاملاً من ماله فى صدر الإسلام، وما عند الله خير وأبقى، والدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. . لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل، فلم تعودى تفكرين فى شىء سوى بأولادك وبالمال والخنوع للحياة الدنيا، حتى اكتنز بدنك، وأصبحت كخنزير كبير! . . يا للمهزلة! . . منذ متى كنت تعترضين مشيئتي؟ . . لا تنسى

يا امرأة أننى هنا الرجل، رب البيت . . أتفهمين؟ . . .» .

ولم تكن زوجه - فى مثل تلك الأيام - بقادرة على أن تهضم كلماته، ولم يكن فى مقدورها أن تقتنع، مهما كان لهذه الكلمات من قوة المنطق والإقناع. لقد كانت الزوجة تفكر فى أولادها وزوجها ومستقبل الأسرة تفكيراً عاطفياً، فضلاً عن أن طبيعتها الخاصة - برغم عسرتها الطويلة لزوجها - لا تتعلق كثيراً بهذه المثاليات الكبرى، كالتضحية والفداء والجهاد وما إلى ذلك . . . لعلها كانت أكبر من تفكيرها واستعدادها، وخاصة أن مثالياتها لا تخرج عن العطف على المساكين، والبر بالأقرباء، والحذب على مآسى الناس، كل ذلك فى حدود معقولة حيث لا إسراف ولا إفراط . . . أما أن يبلغ بها ذلك مبلغ التضحية بالولد والزوج وكل ما يملك زوجها، ومستقبل ابنتها، فهذا ما لا تحتمله، ولا يمكنها أن تقتنع به .

ولم تقف الزوجة عند حد الاعتراض الأجوف، أو البكاء الصاخب، بل قررت أن تبطل تصرفات زوجها على قدر ما تستطيع، فأخفت عنه كثيراً من المجوهرات والمال، وأخذت تفكر فى طريقة لتحمى بها ولدها ثم خطيب ابنتها، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. أما زوجها فهى عاجزة تمام العجز أن تفعل أى شىء يحد من اندفاعه، وكانت لها أفكارها الغريبة فى الرد على زوجها، تلك الأفكار التى كانت تحنقه، وتشعره

بأن زوجه غارقة في الجهل والحماسة .

لقد كانت تقول له : «إن صداقتك للشيخ السادات ، هي التي غيرتك هذا التغيير الغريب الذي يرضيني ، والشيخ إبراهيم سلامة هو الآخر ، لا يفتأ يملأ رأسك بالأحكام الخطرة ، وكلاهما لا يحمل سيفاً ، ولا يخوض معركة . . الشيخ إبراهيم سلامة عجوز . . إحدى رجله في القبر . . لا يخاف شيئاً ، والشيخ السادات ، حوله العديدون من الأتباع ، وله عند الكبراء والعظماء كلمة مسموعة . . لقد خلق لي أمر وينهى ، أما أنت وأولادك فوقود النار . . من أنت حتى تشبه نفسك بعثمان بن عفان؟! مهما فعلت فلن تكون نبياً ولا خليفة من الخلفاء . . لم يعد في الدنيا خير ، وأنت لن تستطيع أن تغير المقدور . . وهل لنا في الدنيا غير الحسين وزينب؟ . . تريد أن تدفع الولد إلى جهنم الحمراء ، وتحرم البنت من مستقبلها ، وتبدد مالك ، ثم تتهمني بالجهل وقلة الدين! . . » .

وكلما حاول أن يفند دعاويها سدت أذنيها ، لم تكن لتريد أن تقتنع بغير ما استقر في ذهنها ، الحسين وزينب والحاج هم الحياة ، وقلبها يحدثها بأن المستقبل غير مأمون ، والعمر واحد ولا يمكن أن يستعاض عنه إذا قامر به الإنسان . . وهناك عشرات السبل لأن يظهر الإنسان استعدادة للبذل والعطف

والوطنية، هذه السبل أسلم عاقبة من الحرب المجنونة التي يشنها الكفار الفجرة.. كما تردد دائماً..



كانت زينب ابنة الحاج مصطفى فتاة وادعة، قليلة الكلام، ذات وجه مثلث، تزينه عينان واسعتان سودان، وفم دقيق، ولسمرة وجوها جاذبية حلوة، وميلها إلى الصمت يسبغ عليها رونقاً أخاذاً، ويزيد من شدة التعلق بها، والتفكير فيها.

وكانت زينب ترمق الأحداث دون أن تبدى رأياً، أو تعلق بكلمة، لم يبدُ عليها أنها تمالئ أمها، أو تميل إلى رأى أبيها، سلوكها ينبى عن السلبية المطلقة، لكنها لها عالمها الخاص الذى تعيش فيه، والذى لا يقتحمه أحد ليعرف أسرارها، وذكرياتها ضئيلة، فهي منذ زمن بعيد لم يعد يصرح لها أبوها أو أمها بمغادرة المنزل، شأن بنات الأسر الكريمة، ولا تختلط بأحد من الزائرين سوى النساء والفتيات من أمثالها وعندما تمت خطبتها لمصطفى الفرماوى، تناوبتها مشاعر جديدة، ثرية بالانفعالات والأشواق والأحلام، على الرغم من أنها لم تنفرد به مرة واحدة، أو تحظ بالحديث معه، فأمر زواجها كان شيئاً يخص أباه بالدرجة الأولى، ولم تعرف عن زوجها، فى بداية الأمر، إلا بعض الأخبار الغامضة، التى تسمعها على استحياء، حينما

تحدثها الخادמות، لكنها استطاعت أن تدبر مع إحداهن طريقة لرؤيته، أحاطتها بكل أنواع الحذر والكتمان، وهكذا أمكنها أن تراه يسير في الشارع من خلف النافذة المغلقة، كان قلبها يدق في رعب، ولم تستطع أن تبقى هكذا سوى لحظات قليلة؛ مخافة أن يفاجئها أحد متلبسة بتلك الجريمة البشعة . . . وبعدها كانت تعلم من الخدم أنه قد أتى لزيارة أبيها، فتحاول أن تسترق السمع لعلها تروى شغفها وهي تستمع إلى نبرات صوته . . . ومن أن لآخر تهزول إلى النافذة المعهودة لتراه من بعيد وهو ينطلق على شاطئ النيل إلى بيته . . .

لقد استطاع خيال مصطفى أن يؤنس وحشتها، ويروى أحلامها المتعطشة، وأن يسد فراغاً مخيفاً كان يخيم على روحها القلقة، وأصبح لاسمه رنين حلو، ولذكراه متعة فريدة لا يستشعرها إلا قلبها الخافق . وكلما اقترب موعد الزفاف سرت في جسدها رعشة لذيدة المذاق، وخالطت يقظتها أحلام جميلة في غموضها وتموجاتها، وهكذا كانت تأوى إلى فراشها، وتظل لفترة طويلة مفتوحة العينين، والظلام يحيط بها، لكم تمت أن تبقى هكذا أبد الدهر . . . وتحدثها نفسها أن «مصطفى» سيأتي ويترك باب نافذتها في رقة وهدوء، ولا شك أنها ستهرع إلى النافذة، وتعالجها برفق، ثم تفاجأ بوجهه المشرق، فتشبه مذعورة، أو تبدو وكأنها مذعورة، في الوقت

الذى تتمنى فيه أن تظل وقفتهما إلى جواره طوال العمر . .  
وتظل تتسمع خطوات السائرين فى الطريق، تنتظر أن يأتى  
فتاها الحبيب لينقر على النافذة . . لكنه لا يأتى . . وتظل تنتظر  
وتتسمع حتى يسلبها النوم إرادتها، فتغرق فى سبات عميق،  
ولا تكون أحلام النوم إلا امتداداً لأحلام اليقظة . . وأدركت  
أن دخول طيف مصطفى إلى حياتها قد أعطاها مذاقاً من نوع  
شهى، فلم يكن غريباً أن تقرأ «الفاحة» كل مساء لسيدنا  
الحسين وللسيدة زينب، آملة أن يساعدها أولياء الله الصالحين  
فى الإسراع بموعد الزواج المرتقب . .

لكن نفيير الحرب ينطلق، وطبول المعركة تدق فى أنحاء  
القاهرة، والأنباء تترى، وعشرات بل مئات الحكايات تروى  
عن الغزاة، وعن المعارك المقبلة، وأبوها يغرق فى دوامة من  
الأعمال التى تتعلق بالحرب، وأخوها يترك البيت ولا يأتى إليه  
إلا لماماً، وأمها لا تفتأ تثير المناوشات والمناقشات الحادة مع  
أبيها، وإذا لم يكن أبوها موجوداً فأمها لا تكف عن الصخب  
والاحتداء مع أى إنسان فى البيت، دون أن تنتظر جواباً من  
أحد . . ومصطفى هو الآخر، ذهب إلى حيث ذهب أخوها،  
لكنه بقى معها . . فى خيالها . . حتى لحظات الانتظار لدى  
النافذة فى المساء ظلت تشغل فكرها؛ لأنها لا تستبعد أن يتسلل  
مصطفى الفرماوى من المعسكر، ويترك النافذة فى هدوء، ثم

يشرق عليها بوجهه السمع الحلو، ولعله يجسر أن يلمس يديها. . إنها تستشعر القشعريرة تسرى في بدنها، لمجرد الفكرة. . ثم تصدمها الحقيقة المرة في بعض الأحيان، وهي أن مصطفى يتخذ مكانه في الطليعة، وأنه قد لا يعود. . وشعرت بحرق بالغ مكتوم، وهي تتصور أنه قد لا يعود، واجتاحتها موجة عارمة من السخط الذي لا يجد له منفذًا. . ما هذا الذي يحدث؟! ولم كل ذلك؟! يبدو أن أمها كانت على صواب، حينما اقترحت الهجرة بعيداً عن القاهرة وكوارثها. .

\*\*\*

عاد الحاج في المساء مرهقاً مكدوداً يرافقه الحسين، وتنهّد وهو يلقي بجسده فوق حشية طرية. . وبعد أن تناول عشاءه، ابتسم دون أن يفارقه قلقه، وقال :

- لتهدئي بالأيا زوجتي، فالله أرحم من أن يفجعنا في آمالنا. . لكن الأمر بسيط كما سبق وأوضح لك. . أيمن أن نستسلم هكذا ونترككم سبايا لهؤلاء الكفرة، أو ندعكم تهيمون على وجوهكم في الشوارع يلاحقكم الفرنسيون من كل جانب، ويعتدون على أعراضكم؟! الموت أرحم من ذلك، والموت والحياة أمرهما بيد الله سبحانه. . أتستطيعين أن تفعلني شيئاً إذا فاجأتك السكينة القلبية وودعت الحياة؟ قال

تعالى: ﴿أَيُّمَّا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

أومات برأسها غاضبة:

- الأمر لله .. ما شاء يفعل.

ثم التفت إلى زينب يضاحكها:

- وبعد المعركة يا زينب، سأقيم لك عرساً لم ترَ القاهرة له

مثيلاً .. إن مصطفى شاب فاضل، وأبوه من خيرة الرجال.

كان قلبها يدق في عنف، وتلون وجهها بحمرة الخجل،

وسادها ارتباك ظاهر، فطأطأت رأسها، وكأنها تهف

بالأرض من تحتها أن تنشق وتبتلعها.

ولم يغب عن قطته ما يحدث، فحاول أن يدير دفة الحديث

فقال:

- وأنت يا حسين، ما هي أخبارك؟

- لا بأس يا أباي .. لو كانت استعدادتنا المادية على نفس

مستوى استعدادتنا المعنوية، لأمنت بالنصر الأكيد ..

تصور .. الحصون مهدمة قديمة لم تتاولها يد الإصلاح،

والمدافع يعلوها الصدا، على الرغم من قلة عددها،

والتنظيمات والتخطيطات العسكرية يعوزها الكثير من التنسيق

والخبرة.. إن جريمة المماليك والأتراك لا تغتفر، والسلطان كان الأحرى به أن يسارع بإرسال نجدة للبلاد التي يحكمها منذ مئات السنين، وتدر عليه خيراتها.. أتراه صدق مزاعم نابليون حينما قال: إنه يؤمن بحق السلطان في مصر، وإنه إنما جاء لطرد المماليك وتأديبهم وتخليص مصر من قبضتهم؟

قال الحاج مصطفى البشتيلي:

- نحن في حاجة إلى معجزة..

- أجل.

- وما ذلك على الله بعزيز يا ولدي..

وقاطعتهما الأم قائلة:

- هل علمتم بالنبأ الجديد؟

قال الحاج: ماذا؟

- أخبرتنى إحدى الخادמות أن أحمد المدبولي وأسرتة قد

رحلوا.

- إلى أين؟

- ناحية الشرقية.

رد الحاج دون اكتراث :

- فى ستين داهية . . أحمق طول حياته . . بشس ما فعل ! . . إن جبه لنفسه يجعله يخسر الدنيا والآخرة .
- أهذا كل ما تقوله بالنسبة لصديق عزيز عاقل ؟ . .
- الوطن أعز يا امرأة . .
- عندما تحدث الطامة الكبرى فلسوف تقول : ليتنى سمعت كلام زوجتى .
- ليس من المكتوب هروب .

\*\*\*

وحاولت الأم جاهدة أن تحرض ولدها على الهروب لدى أخواله، كما بذلت جهداً كبيراً فى أن تقنع خطيب ابنتها أن يرحل عن هذا المكان الخطر؛ كى ينجو بحياته ومستقبله، ومع ذلك فلم تجد استجابة من أيهما . . كانت الأحداث أقوى منها، وكانت فورة الحماسة تلفح الجميع بنيرانها، ولم يكن فى الإمكان أن تجد مكاناً فى رءوس الشباب لنصائحها المثبطة، ومن ثم آوت إلى مكان منعزل واجمة النفس، مضطربة القلب، ومن آن لآخر تنهمر دموعها الغزيرة، وخاصة عندما يشردها الخيال، فتتخيل أن وحيدها قد لا يرجع إليها، وأن

الملك لله وحده . .

يا للكارثة! . . أيمن أن يحدث هذا وبهذه البساطة  
والسرعة المذهلة؟ . . من كان يتصور؟ . . هكذا كان يفكر  
الحاج مصطفى البشتيلي فى اليوم التالى لمعركة إمبابه  
الشهيرة . . كانت صورة ما حدث لا تفارق خياله مطلقاً . .  
نابليون يتقدم . . جموع الممالك تذوب أمام نيرانه الحامية . .  
أسلحتهم الصدئة البطيئة لا تستطيع الصمود أمام معداته  
الحديثة . . أفكارهم المتخلفة، وخططهم البالية البدائية،  
وغرورهم الأحق، سرعان ما تهاوى أمام أفكار نابليون  
الجريئة، ورسمه البارع . . جنة مصر الخضراء، وأهرامها  
السامقة تجذبه إليها، فيندفع هو وجنوده فى جنون . .

الملك لله وحده . .

مراد بك يفرُّ مذعوراً، مع البقية الباقية من رجاله نحو

الصعيد، ويكوات الممالك - الذين طالما تجبروا ويطشوا -  
يسرعون في رعب فيختطفون أموالهم ومجوهراتهم، وما  
خف من أمتعتهم، ويحملون أطفالهم ونساءهم، ويولون  
الأديار، تاركين المجد والقصور الفخمة والحدائق الغناء، ثم  
يبدؤون رحلة التشرذم والضياع في صحراء المجهول! ..

الملك لله وحده ..

ولم يبقَ في المعركة غير جماهير الشعب تقاوم في استماتة  
يائسة .. والممالك يعتبرون هذه المقاومة الشعبية الشريفة  
تغطية لانسحابهم وهروبهم .. والمصريون والعربان ورجال  
البدو يرمون بأنفسهم وسط لهيب المعركة، لا يفكرون في عدم  
جدوى المقاومة .. إن عليهم أن يواصلوا المعركة حتى  
الموت .. أجل .. حتى الموت .. وتمتلئ الطرقات بالضحايا،  
ويمتزج الدم الحر بالتراب الغالي ..

سبحان الله .. الحاج مصطفى ينظر إلى الممالك المطاردين  
الذين يعبرون النيل في هلع شديد، منهم من يصل إلى بر  
الأمان، ومنهم من يقصر جهده فتسلفه الأمواج فيهوى إلى  
قاع النيل، ومنهم من يدركه الفرنسيون فيخر صريع  
رصاصهم .. والغبار يملاً الجو الحار الخائق، والصراع محتدم  
مرير .. لكأنه يوم القيامة .. يوم الهول ..

الملك لله وحده . . .

إبراهيم بك وجنوده المعسكرون في بولاق، يغدون السير ناحية الشرق فراراً من مصير مراد بك . . لم يبق في أرض المعركة إلا أهل القاهرة الحقيقيون . . حتى هؤلاء أيضاً، عندما رأوا مراكب الماليك في النيل وقد اشتعلت فيها النيران إثر انفجار في سفن الذخيرة، وارتفع لهيبها ودخانها إلى عنان السماء، ظنوا أن الفرنسيين ينوون حرق القاهرة عن آخرها . . فحاول بعض المصريين القادرين من ذوى المكانة والثراء، الهروب بجلودهم . . .

ويكى الحاج مصطفى، وتلك الصور التعسة تتوالى على ذهنه المكدود . . بكى كما لم يبك من قبل . . لم يكن مرتاح الضمير، على الرغم من أنه بذل أقصى ما يستطيع في المعركة . . كان يجرى ويجمع الناس، وينفخ فيهم روح المقاومة، ويطلق النيران من مدفع قديم . . ويجازف بنفسه . . لم يكثرث عندما أصابته بعض الشظايا . . لم يكن يفكر في ولده الذي لم يره في جحيم المعركة، ولا وردت على ذهنه صورة أسرته الصغيرة وبيته المتواضع . . لقد نسى كل شيء إلا الصراع المرير الذي يخوضه .

«آه . . ! . . كان الفرنسيون يضحكون في غلظة، ويتحركون في عنف، ويقتلون ببساطة . . يقسمون أنفسهم على هيئة

مربعات، ويطبقون في نظام محكم . . وأنا أقف متحسراً . . آه لو كنت أملك مثلما يملكون من سلاح . . إذن لما دنست أقدامهم أرض بولاق والقاهرة . . إن الموجة الكاسحة التي اجتاحت القاهرة أمس، لا يمكن أن أنساها . . والفرنسيون، وهم يختالون على جثث الضحايا بخيولهم وفضاظتهم، ظلت أمام عيني طوال ليلة أمس . . لم أستطع النوم . . إن هدير الألوف، وهم يهرولون بأطفالهم ونسائهم أمام العاصفة التي لا ترحم، قد مزق نياط قلبي . . الجموع التعسة الهائمة على وجهها خارج القاهرة، لم تكن تفهم معنى مقنعاً لكل ما يحدث . . الشيء الوحيد الذي يفهمونه هو أن الأقوياء لا يرحمون . . والأقوياء يفعلون ما يحلو لهم . . الكوارث تقع دائماً تبعثها على رءوس هؤلاء التعساء الذين لا ذنب لهم . . آه . . إنه شيء فظيع أن تدوس حوافر الخيل جسد إنسان، سواء أكان حياً أو ميتاً . . إن الصورة لا تدعني أنام . . تملأ قلبي بالضياغ والألم، وبالحدق أيضاً . . مستحيل أن أنسى ذلك . . فلتسقط مدنياتهم . . فليسقط الخوف . . فلتسقط كل المعاني الساقلة . . برغم كل ما حدث، فأنا أتحرق شوقاً إلى معركة جديدة، ولو يائسة . . معركة ومعركة ومعركة . . صراع مستمر حتى ولو انتصر الأوغاد الكفرة . . لا بد أن تستمر المعارك حتى يتعبوا . . حتى ينفد رصيدهم من الجهد والحماسة . . إنهم

بشر، وتجرى عليهم سنن الهزيمة والنصر، والخوف والشجاعة،  
والياس والأمل . . إنهم لا يفترون عنا كثيراً سوى فى المظهر  
المادى للحرب والحياة . . عندما تتحول حياتهم إلى قلق دائم،  
وتوجس، فسيفقدون حلاوة النصر، وستتحول الجنة التى  
حلموا بها إلى جحيم لا يطاق . . هذا ما يجب أن يكون . .  
أجل . . الملك لله وحده . .

عندما عاد الحاج مصطفى بالأمس إلى منزله، كانت زوجته  
ترى ملابسه السوداء والخوف يغطى وجهها بشحوب جلى،  
وينبثق فى نظراتها التائهة القلقة، وصرخت بصوت مبحوح:

- أين ولدى؟!!

قال فى مرارة:

- كان الناس يسقطون بالآلاف . .

- ما شأنى بهم . . أسأل عن ولدى .

واستطرد شاردًا:

- وداست الأقدام وسنابك الخيل شيخًا عجوزًا . . كانت  
لحيته مضرجة بالدم . . ورأيت صبيًا يجلس فى الطريق منكسور  
الساق يتزف دمًا، ووجهه كوجه الموتى . . ورأيت . .  
ورأيت . . رأيت البشاعة فى حقل الموت . .

قالت في صبر نافذ:

- والحسين؟

- كانت ملامح الحسين تبدو على هذه الوجوه كلها.

فانفجرت باكية.

قال لها زوجها:

- لماذا تبكين؟

- ولدى.. ولدى ياسى مصطفى.

- أنا لا أعرف..

- ماذا لو سمعت كلامي؟.. أحمد المدبولي نجما بنفسه

وأسرته.. حتى السيد عمر مكرم، ألم تسمع؟.. لقد هرب

وهو العالم المنسب.. فمن أنت بالنسبة لهؤلاء جميعاً؟..

هز رأسه في أسى وقال:

- كل إنسان حر في اختيار الطريق الذي يسير فيه، وأنا

اخترت فلا أسف على شيء يحدث.. وعمر مكرم لا أظنه

يهرب، لا بد وأنه يتوى شيئاً، ويبدولى أنه سيقوم في بر الشام

كى يتصل بإخواننا العرب، ويحاول مناشدة السلطان التركي

كى يرسل نجدة لهذه الأرض الجريحة. إننى لا أشك لحظة فى

نوايا هذا الرجل العظيم الشريف.. أما أحمد المدبولي فهو

شيء آخر، كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني لو أتيتحت لى  
الفرصة للرحيل عن هنا فلن أفعل .. مستحيل أن أفعلها.

أخذت تجفف دموعها وتقول:

- لو لم تبحث لى عن ولدى، فسأخرج بنفسى ..

ودق الباب .. وصاح الحاج متوتراً:

- من؟

لقد حانت لحظة التنكيل بالبيوت والحريم .. وهل يفعل  
الجيش الغازى سوى ذلك؟! ووقف شعر رأسه، ونظر إلى  
سيفه المعلق .. وهبت زوجته واقفة .. وتمتم:

- «ومن مات دون عرضه فهو شهيد» .. صدق رسول الله ﷺ.

وصرخ مرة ثانية:

- من؟

وسمع صرير الباب .. ودخل ولده الحسين مغبر الوجه  
ملطخاً بالدم والأوحال والحدوش ..

وصاحت الأم: ولدى .. ولدى.

وقال الحاج فى هدوء:

- هل أتيت؟ ..

وقال الحسين :

- ليتنى ما أتيت ..

وانفجر باكياً .. ومن بين دموع أخذ يقول :

- لقد مات خلق كثير .. وحاقت بنا الهزيمة .

ثم شهق ملثاعاً :

- ومات مصطفى الفرماوى ..

وسمع فى داخل البيت صرخة عالية، وأنين خافت مخزن .

هز الحاج رأسه وأخذ يقول والدموع تنسكب على خده فى

سكون :

- زينب تبكى .. والقلب يبكى .

وأخذت الزوجة تضرب على صدرها، وتدق رأسها فى

الحائط وتقول :

- يا مصيبتى .. يا مصيبتى ! .. يا قلة حظك يا زينب ..

وتمادت فى البكاء والنحيب، حتى أصبح من العسير التمييز

بين نשיجها ونشيح ابنتها الكسيرة القلب .

ومضى الحاج يقول :

- لقد لقي الله على أنبل صورة يتعشقها مؤمن .. كم ألفاً

من الشرفاء على غرار مصطفى ودعوا الحياة بالأمس!؟ الذين يموتون قد يكونون أعظم ممن يبقون على قيد الحياة. . الذين يستحقون أن يوضع غار النصر فوق رؤوسهم يموتون مبكراً. . ما أشد حزني عليك يا مصطفى! . .

بينما كانت الأم تقاطعه منتحبة: يا بنتي. . يا بنتي يا مسكينة. . لم كل هذا؟! ويهمس الحسين:

- عندما دارت الدائرة على عسكرنا كاد يطيش عقل مصطفى، بل بدا وكأنه قد جن بالفعل. . كان يشب ويضرب بسرعة مذهلة. . كان يبذل جهداً فوق طاقة البشر. . ولكم أتاحت له الفرصة كي ينجو، لكنه أبى، كان كمن يحاول أن يوقف سيلاً جارفاً بيدين واهنتين. . وكادت تقضى على ضربة من أحد فرسان الأعداء، لكنه دفعني بعيداً في آخر لحظة، وهكذا نجاني من موت محقق. . أما هو فقد قضى عليه على الأثر. . تصوروا، لم أستطع أن أحمل جثمان البطل الذي أبعده عنى شبح الموت. . مستحيل أن أنسى ما حدث. .

وأخذ جسده يرتجف من شدة الانفعال دون بكاء، ثم تتمم:

- ومع ذلك فقد أدى واجبه واستراح. . وبقى على الأحياء أن يواصلوا خطى نضالهم حتى النهاية. . حتى الموت أو النصر. . لم أعد أخاف شيئاً حتى الموت نفسه، وإذا كان الغزاة

الكفرة يموتون من أجل مطامع ذنوبية تافهة، أيليق بنا أن ننكص  
على أعقابنا من أجل الدفاع عن شرف الوطن والدين؟!!

وهجمت عليه أمه، واحتوته بين ذراعيها، ودموعها لا  
تكف عن الانهمار، وأخذت تقول:

- لن أدعك ترمى بنفسك في ذلك الشقاء مرة ثانية.

هز الحاج رأسه قائلاً وقد شررد بنظراته:

- لقد فات الأوان، ولم يعد في استطاعتك يا امرأة أن

تعرضي الطوفان، أجابته قائلة:

- لم يفت الأوان بعد، وفي إمكاتبنا أن نترك المدينة الليلية

ونرحل بعيداً.

همس الحاج:

- لقد مات مصطفى الفرماوى..

وقالت الزوجة:

- لشد ما حزنت عليه، لكن الموت لا يمكن التحايل

عليه.. انتهى الأمر.

قال الحاج:

- لم يتبه بعد.. موته بداية حياة.. الذى مات فعلاً هو

أحمد المدبولى.

- بل يحيا فى أمان على أرض بعيدة ..
- إن حياته بداية موت أبدى .. ومصطفى لن يموت .
- وأخذ الحاج يدق الأرض بقبضته ويصرخ بأعلى صوته :
- ومصطفى لن يموت .. لن يموت .. لأنه أنا وأنت وكل الشرفاء المؤمنين .. لأنه هذا الشعب .. إنه فوق كل عوامل الموت والفناء .. أتفهمين؟؟
- وأنت زينب مهرولة، وعلى وجهها الشاحب الحزين ابتسامة بلهاء تبللها الدموع، وأخذت تقول :
- أحقاً لم يميت يا أبى؟ .. كيف؟ .. إننى لا أفهم .
- وأمسك الحاج بيد فتاته، وأجلسها إلى جواره ، وضمها إليه فى حنان .. بينما عادت الدموع تملأ عينيه، وأخذ يتمتم :
- لا تحزنى يا زينب، لقد ذهب إلى الله طاهراً نبيلاً ..
- قالت ساهمة :
- ولن يعود ..
- إنه معنا دائماً ..
- إذن فقد مات .. لكن لماذا لا يكون له قبر كباقي الناس حتى يزار؟ ..

- لو استطعنا لدفناه بين حنايا الضلوع .

- لكن لا بد أن يدفن في قبر يا أبى .

- إنه خلق كثير . . ماتوا معاً، وسيدفنون معاً . . يا لها من

صحبة رائعة فى العالم الآخر . .

وأدرك الأب أن ابنته تعاني أزمة نفسية حادة قد تذهب

بعقلها، فتمتم فى توجس:

- هونى عليك يا ابنتى . . كل شىء إلى زوال .

لسوف تنتظره زينب فى المساء، والأحلام توشى عالمها

الخصب الحزين . . وستظل إلى الأبد تتوقع خطوات فارسها

المحبوب، وهو يضرب الأرض بأقدامه القوية . . وستتظر

طرقاته الساحرة على النافذة، لكنها هذه المرة تتعذب فى

عالم اليأس والذهول؛ لأن الموتى لا يطرقون نوافذ

الأحياء . . وستصفى الريح، ويصمت الكون، ويمتد

الشقاء، وترتطم الأحلام الجميلة بصخرة الواقع المرير . .

آه . . لقد مات مصطفى . .



عاد برطلمين متفتخ الأوداج ، والعرق يتصبب على جبينه الأشقر المحتقن ، وحوله كوكبة من الجنود الأروام - حرسه الخاص - يحيطون به وقد شهروا سيوفهم ، وقد بدا من هذا المشهد لأول وهلة أن الرجل يمت بصلة كبيرة للحكام الجدد ، وأنه ذو حظوة عظيمة لديهم . وعلى الرغم مما يشعر به برطلمين من تعب إلا أنه يستمتع بقسط وافر من السعادة والرضى ، ويدرك - عن يقين - أن خطته قد نجحت ، وأنه قد خطا الخطوات الأولى المهمة والحاسمة على سلم المجد الذى طالما حلم به . إن الأمور على وشك أن تستتب بعد أن احتل الفرنسيون القاهرة - عاصمة البلاد - وبعد أن استولوا على قلاعها ، وحصونها ونقاط الارتكاز المهمة فيها وقصور المالك الخاوية ، قد تحولت إلى سكن خاص لنابليون المنتصر وأركان حربه والضباط الفرنسيين العظام . . لقد تم كل شيء بأسرع مما كان يتصور برطلمين ، وابتسم فى شماته ، وهو يتذكر فلول

الممالك الهاريين إلى الجنوب والشرق، ومن قبل عشرات الضحايا وهم يسقطون صرعى الرصاص الفرنسي . . يا لها من لحظة رائعة . . كل شيء على ما يرام . . أسطول الفرنسيين في البحر الأبيض لدى شواطئ الإسكندرية، وبعض قطعه تجوب النيل، ونابليون الذي دوخ أعداءه في أوربا على رأس الجيش الغازي . . هنيئاً لك يا برطلمين! . .

ودخل البيت كالديك الرومي، وصاح بصوت أمر لم يخل من رنة حنان:

- هيلدا . . صغيرتي الفاتنة . . لسوف نرحل عن هنا بعد غد.

أنت هيلدا مهرولة، وعلى وجهها أمارات ذبول ظاهرة، ولم يكن شعرها على العهد به منسقاً، وبدا عليها وكأنها لم تنم منذ ثلاث ليال . . وقالت دون حماس:

- إلى أين؟

- أوه يا قطتى المشاكسة . . أنت تعلمين أن قصور أوغاد

الممالك خاوية على عروشها، ولنا أن نختر . . الأمر أمرنا يا هيلدا.

لم يتظر منها جواباً؛ لأنه كان في حالة من التوتر وعدم التركيز لا تسمح له بالمتابعة الكاملة . . لقد وجد نفسه فجأة إنساناً ذا شأن . . النجاح السريع أربكه، الآمال المتراخمة تكاد

تورثه الدوار، العالم الجديد - عالم الجيش القادم من أوربا بما له من نظم وتقاليد وسلوك - قد بهره بشدة. إن برطلمين في حالة وجدانية زاخرة بشتى الانفعالات . . تارة يتذكر ماضيه . . الدكان الحقيقير في الموسكى الذى يبيع فيه الزجاجات . . حثالة البشر فى شوارع القاهرة لا يتورعون أن يهتفوا بابتته «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» . . ورؤساؤه من المماليك كانوا يأمررون وينهون، ويفسدون عليه طموحه، وحرسته فى الحركة وفى السلب والنهب . . وذلك الوغد السافل إبراهيم أغا، الذى استطاع أن يلج قلب ابنته ويؤثر عليها . . وأيام الضنك التى كان يمر بها . . ورغبته العارمة - التى يغذيها التعصب الأعمى - فى أن يدمر ويسحق بل ويقتل . . كان دائماً يشعر بأنه مغبون، فى حاجة ملحة مستمرة إلى المال، والمنصب الكبير، والخدم . . لقد كان جيئه يتقطب غيظاً وهو يستعرض تلك الذكريات الماضية، لكن سرعان ما انفرجت أسارير وجهه وقد وثب بخياله إلى الحاضر الرائع الجميل . . إنه وسط الحرب والدماء والأشلاء وصرخات الاستغاثة والقلق يستشعر سعادة من نوع غريب! . . لكم يتمنى أن يزيد هذا الاضطراب، إن مثل هذا الجوى يهجه، ويشفى من جراح نفسه وكبريائه، ويرضى غروره وطموحه . .

وصاح من جديد:

- هيلدا ..

- نعم ..

- لا شك أنك أعددت طعاماً شهياً، وبضعة كئوس من الخمر المعتقة.

- أمى متعبة.

قال فى ضجر:

- أوه .. إن أمك لا يحلو لها المرض إلا فى الأوقات الجميلة .. ثم هل يعنى مرضها ألا نتناول طعامنا، ونروى ظمأنا؟! أنت تعلمين ما أكابده هذه الأيام من مشاق حتى نثبت دعائم الغزو الفرنسى .. لست «فرط الرمان» ولا «برطلمين» كما يرطن العامة .. أنا اليوم «برتلمى» .. إن اسمى الحقيقى يتناسب جداً مع الأسماء الطنانة التى وفدت إلى مصر، أمثال نابليون .. ديوى .. كليبر .. مينو .. إلخ ..

وانتقل فجأة إلى موضوع آخر:

- لقد هرب الجبناء .. المماليك .. تركوا أهل البلد فى حيص بيص .. لكن الشىء الذى أحقنى هو أن هؤلاء السفلة والرعاى يقاومون، ماذا يظنون؟! أيمكن أن تقف عصيهم، وسيوفهم الصدئة، ومدافعهم القليلة القديمة، أمام نيران فرنسا العظيمة؟! ..  
والمصيبة الكبرى أنهم كانوا ينتظرون العون من تركيا ..

ثم توجه إلى ابنته قائلاً:

- وبهذه المناسبة ، لم تسأليني عن «إبراهيم أغا» .

لم تفارق صورته مخيلتها منذ أن رآته في إمبابة . . كانت  
تجد نفسها تفكر فيه على الرغم منها ، وكلما حاولت نسيانه ،  
عاد خياله يداعبها في اليقظة والنام ، وعندما سمعت عبارة  
أبيها الأخيرة هتفت في توجس :

- ماذا جرى له ؟

قال في هدوء بارد وعيناه ترمقانه دون رحمة :

- مات . .

لم تستقبل الأمر في انهيار كما كان أبوها يتوقع ، إحساس  
داخلي يدعوها إلى الشك في كلام أبيها . . إن أباهما يكذب ،  
هذا ما تعتقده عن يقين .

وقهقه مبهتجاً ، فقد سر لما لاحظته عليها من ثبات ، لكنه  
أردف :

- كنت واثقاً أنك لن تعبئي كثيراً بمصيره ، بعد أن شرحت  
لك الأمر باستفاضة مقنعة .

فردت قائلة :

- هل رأيتَه بنفسك؟! !

- ولم لا؟ .. لقد كنت أرقب الأحداث عن كتب .  
- لكنك لم تشارك في معركة إمبابة .  
- رجالي في كل مكان .. أنفهمين؟؟ رجالي .. ولو أردت  
أن أستحضر لك جثته لفعلت .  
وازدادت يقيناً أنه يكذب ، فتمتت :  
- كثيرون هربوا إلى الصعيد ..  
- لسوف يطاردهم نابليون حتى الشلال .. لم يأت الرجل  
للنزهة أو للعب إنه يفهم ما يريد تماماً .. لقد رأيتنه يا هيلندا ، إنه  
نمط غريب من القادة .. يتصرف في ثقة ، ويتحرك في سرعة  
ودقة ، حاسم في قراراته ، رجاله يعبدونه ، إنه رجل رائع حقاً ..  
قالت ببساطة :  
- لكنه يقتل ..  
- المحاربون في أى مكان وفي أى عصر يفعلون ذلك .  
- وأنا أكره ذلك .  
- لأنك رقيقة القلب .. بلهاء مثل أمك وجدك .  
وضحك من جديد ، ثم طلب الطعام على عجل ، وما إن  
امتلات بطنه حتى تجشأ ، وأخذ يتناول كشوس الخمر في  
شراهة ، وفجأة قال لها :

- لتشربى كأساً .

- إن مذاقها لا يروق لى .

- إنها تمحو الكثير من القلق، وتشفى جراح النفس والقلب .

- لكن إلى حين .

- إنى أمرك أن تشربى .

رأت الإصرار فى عينيه، لشد ما تكرهه اليوم، وهى تشعر  
بحمل ثقيل يحط على قلبها أثقل من جبل المقطم، ولقد تحطم  
حلمها الجميل، كل شىء أمام عينها ثقيل سمج يبعث على  
الضيق والنفور، والفراغ قاتل محزن، والضياح كالموت تماماً،  
إلى متى تتعذب؟ . . لا بد من فترة راحة .

وقالت فى سخرية مرة :

- أمرك . . لسوف أشرب .

وتناولت كأساً، ثم أردفته بشانية وثالثة ورابعة، وأخذت

تترنح وتهذى :

- يا بنت فرط الرمان يا حلوة . . ها . . ها . . ها . . لقد

كان شيئاً طبيعياً أن يطرى الناس جمالى . . وكان تعبيرهم عن

الإعجاب يتخذ أشكالاً متعددة، أقواها كلها هى النظرات التى

يسدها أصحابها إلى، فأفهم منها ألف معنى . . كانت تلك

الكلمات أبلغ من أى مقال ، وكان جسدى وروحي يترنحان  
حيالها أقوى مما أترنح الآن . . وإبراهيم أغا كان . . أجل . .  
كان واحداً ممن يحسنون الحديث بنظراتهم ، لكنه كان أعمقهم  
أثراً فى نفسى . . إن قصة حبنا الصامت فى البداية كانت قصة  
رائعة . . يا إلهى . . كان شهماً نبيلاً وعلى استعداد تام لأن  
يضحى بأى شىء من أجلى . . لم يحيرنى أى شىء من  
تصرفاته ، على العكس منك يا أبى ، ولهذا أحبته . .  
قال وهو يتناول كأساً أخرى :

- لا وجه للمقارنة بينى وبين ذلك الصعلوك الآن . .  
أتعلمين شيئاً عن منصبى الجديد؟ . . لقد أصبحت وكيل  
المحافظة . . القاهرة الكبيرة بكل من فيها وما فيها . . هاها  
ها . . لست مثلك أدمن التفكير الكثير فى الأمس ، أنا ابن  
اليوم يا هيلدا الساذجة . . وسوف يكون بيتنا الجديد مقراً  
لكبار الشخصيات الفرنسية من القواد والعلماء ، ولن نكف  
عن إقامة حفلات الرقص والسمر ، وستكونين يا هيلدا نجمة  
كل حفل ، وستجدين الرتب الكبيرة تنحنى لتقبل يدك اللدنة يا  
مثال الجمال الفاتن . . سيكون بيتى وكأنه جزء من المجتمع  
الفرنسى فى باريس . .

قالت هيلدا وقد شردت بنظراتها :

- ألا يزعج هذا أمى المريضة؟

- أوه.. أمك.. أمك!.. وماذا سنفعل لها؟..

وأخذت تتخبط:

- لكنى لن أتزوج واحداً من هؤلاء الأوغاد الذين تتحدث عنهم.

- لو حدث وطلب أحدهم يدك، فسيكون ذلك غاية المنى.

- إنهم لا يجيدون سوى القتل.

- إنهم فرسان حب قبل أن يكونوا رجال ميدان.

- المحارب فى الميدان، عندما ينتهى من إحدى الغزوات،

يفكر فى غزوة أخرى..

- تنطقين بما يشبه الحكمة يا ابنة برتلمى، ومع ذلك فثقى أن

المحارب يمل الكر والفر، ويبحث دائماً عن ثغر حنون يجد لديه الحب والسلام.

أقلت برأسها إلى الخلف وهى تغالب النوم، وأخذت تقول:

- ليكن ما يكون، فأنا على استعداد تام للتحدى والعبث،

ألا تريد ذلك؟ حسناً، إن بى شغفاً زائداً لألهو بهؤلاء الذين

يلهون بحياة البشر.. ثم إنهم لا شك نوع جديد من

الرجال.. آه.. هذه الحياة لا معنى لها.. الكل باطل، باطل

الأباطيل.. ليذهب كل شيء إلى الجحيم.. وأقسى ما فيها أن

يضل الإنسان فى طريق البحث عن الحقيقة، وألا يعثر على  
السعادة. . ترى ما هى السعادة فى رأيك يا أبى؟

ضحك من أعماقه، وقد ازداد احتقان وجهه:

- يافيلسوفتى الصغيرة، السعادة هى أن أبلغ ما أريد.

- إذن فأنا تعسة .

- تعاسة موهومة .

- لماذا؟

- لأنك فى الحقيقة لا تعرفين ما تريدن. . إن أحلامك

البلهاء فى الحب والمجتمع، لا تتساوى مع الأفكار الواعية التى

يديرها العقلاء فى رءوسهم. . عندما تعرفين حقاً ما تريدن -

كما حدث لى - فلسوف تصلين إليه وأنت إلى جوارى .

ابتسمت فى أسى وقالت:

- إنك تفكر فى نفسك فحسب، وتريد أن تتخذ من نفسك

«وحدة قياس» وأنت تتكلم عن سعادة الآخرين. . أى أبى. .

إن قلبى يحدثنى أن لكل سعادته .

- تلك أناانية .

- بل اتهام توجهه إلى نفسك .

- يا صغيرتى الوقحة! . . للسعادة مقاييس عامة .

- لكن مقاييسك يا أبى لا تروق لى ..

وتشاءبت وهى تقول :

- كنت أرى فى عينيه الحب ، فيتدفق فى قلبى نبع للسعادة  
فياض بالمعانى الحلوة .. وكنت إلى جواره أشعر أن الدنيا كلها  
ملك يمينى . لطالما أشعرنى أننى الأمرة الناهية .. أنتى مليكته  
المتوجة .

قال فى سخرية :

- كان صعلوكاً لا أكثر ولا أقل .. وستوجين نفسك ملكة  
على العشرات من الضباط والعلماء والعظماء ، وستدركين  
أنذاك أنك كنت تعيشين فى وهم سخيف .. أى هيلدا  
العزيزة .. يجب أن تتطهرى من كل أدران الماضى الحقير الذى  
عشناه فى عجز وفقر وذل .. إن حياتنا الحقيقية تبدأ منذ اليوم ،  
وعهدنا الجديد يحتاج إلى روح جديدة .. لنعتبر أنفسنا الآن  
ضمن جيش الغزاة .. ومن يتجرأ ويقول لك فى الطريق العام  
«يا بنت فرط الرمان يا حلوة» فلسوف أقطع لسانه .. إن أباك  
سيتمتع بسلطة سياسية وقضائية لا حد لها .. فما رأيك ؟

لم تستطع هيلدا أن تجيب على تساؤله ؛ فقد راحت فى  
سبات عميق ..

وقف «برتلمى» مشدود القامة، صارم الملامح، خافق القلب، وكأنه فى حضرة إله . لم لا ، وهو يجد نفسه قبالة «نابليون» العظيم القائد المتصمر الذى تردد اسمه فى أنحاء الأرض . . لقد خيل إلى برتلمى أنه فى حالة ذوبان وامتزاج كلى مع القائد الكبير ، وكان نابليون يتفحصه بنظرات نافذة قلما تخطى فى الحكم على الرجال . . وبعد فترة قال نابليون :

- حدثنى القنصل عن إخلاصك وتحمسك البالغ لنا .

- وأعتقد يا سيدى القائد أن أعمالى سثبت ما سمعته عنى .

- هذا مفروغ منه . . ولا شك أن الأعوام الطويلة التى

قضيتها فى مصر ، تجعلك ذا خبرة لا بأس بها .

- أجل . . أجل يا سيدى .

ووضع نابليون يديه فى جيب سترته ، وأخذ يذرع الغرفة

جيئة وذهاباً ، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أدنى انفعال :

- إن الغزو عملية سهلة ، هذا ما قدرته في البداية ، وقد صدق ظني . . إن رجالي لا يخذلونني في أى موقف . . لكن الأهم من الغزو استمراره وتثبيت دعائمه . . واحتلالنا لمصر عملية كبرى ، ستثير العالم علينا ، وخاصة إنجلترا . . لكن كيد الأعداء لن ينال منا أى منال ، إذا استطعنا أن نجعل الشعب المصرى يرضخ لإرادتنا ، وسوف نلجأ لشتى السبل مهما كانت ، حتى نحقق هدفنا .

وسادت فترة صمت قال نابليون بعدها :

- إننى أعفو ببساطة تجعل الخصوم يتأكدون من تمكنى الكامل من الموقف . . وأنا أيضاً أقسو ببساطة تجعلهم يرتعدون عند الضرورة .

كان برتلمى يتلقف كلماته فى وعى ، ويتابعها بدقة ، ولعله لم يبدُ عليه الارتياح بالنسبة لمسألة العفو ، ومع ذلك فهو هنا لتلقى الأوامر ، لا لمناقشتها أو الاعتراض عليها . . إنه يتلمذ على داهية من أكبر دهاة العصر ، رجل تسلح بعدد من التجارب فى شتى الميادين ، وصارع القوى السياسية والعسكرية فى أوروبا وآسيا .

واستطرد نابليون يقول :

- ولكى تعفو أو تقسو لابد أن يكون ذلك لغاية ، وهى غاية

ليست إنسانية على أية حال ، فليست هناك رحمة لمجرد  
الرحمة ، وإنما بقدر ما تجلبه لنا من منفعة . . أتفهمني

- طبعاً . . طبعاً يا سيدي .

- وأنت يا برتلمى ستكون رئيساً للعسس . . وستمسك  
زمام جهاز المخابرات .

وطرب برتلمى عند ورود اسمه على لسان القائد الكبير ،  
وكان لاسمه - وهو يخرج من بين شفتى نابليون - رنة محيبة  
إلى سمعه ، لعله لم يشغف بكلمة «برتلمى» كما شغف بها فى  
تلك اللحظات . . وتمتم برتلمى :

- نعم يا سيدي . .

- بالإضافة إلى عملك كوكيل للمحافظ .

- نعم سيدي . .

- معنى ذلك أن لك من السلطات ، وتحت يدك من  
الإمكانيات ، أكثر مما تريد . . بالإضافة إلى مركز الأديب  
الذى ستدركه بنفسك . . ولا تنس أن تهتم بمصادر التمرد فى  
هذا البلد . . وأعتقد أن المشايخ بالأزهر لهم نفوذ روحى بعيد  
المدى ، من أمثال الشيخ السادات ، والشرقاوى ، وغيرهما . .

وهز برتلمى رأسه ، لشد ما يكره الشيخ السادات . . إن  
هذا الرجل يستمتع بسلطة خارقة . . تُرى لماذا يطيع الناس

مثل هذا الإنسان؟! القوة وحدها يجب أن تحترم، أعنى مظاهر القوة المادية.. وغداً أعرف كيف أمسك مصيره بيدي، وكيف أمرغ جبينه «الظاهر» فى التراب!.. وهل أنسى أنه كان دائماً يؤازر العامة، ويعترض على غزواتنا الموفقة فى شوارع القاهرة، واستيلائنا على ما فى دكاكينها ووكتائلها من ثروات؟؟ بل كان يصيح فى وجه كل من مراد بك وإبراهيم بك متوعداً.. لقد جاء يومه.

وأفاق برتلمى من أحلامه على صوت نابليون:

- يجب أن نناقش هؤلاء المشايخ ونثق بهم، قد يبدو الأمر غريباً، لكن يجب أن تظل أعيننا مفتوحة..

ثم استطرد بعد فترة:

- برتلمى..

- نعم يا سيدى..

- يجب أن نقطع بعض الرؤوس، ونطوف بها فى الشوارع من آن لآخر.

- أجل.. أجل.

- والمال يا برتلمى.. لا مانع أن نعفو عن بعض المحكوم عليهم بالإعدام، نظير مبلغ كبير من المال، ومن ثم لا بد من مراقبة الأثرياء، واصطياد الأخطاء لهم.

وتوقف نابليون عن المسير برهة، ثم قال :

- أعتقد يا برتلمى أن المشايخ والكبراء هم كل شيء؟ لا أظن ذلك . . إن جماهير الشعب هي التي تلعب الدور الأخطر دائماً ، هذا لا يفوتنى ، على الرغم من ضعف مستوى الشعب هنا ، ومآسيه الاجتماعية والاقتصادية . . لكن شقاً كبيراً يجب أن يفصل القادة عن جماهيرهم ، ولهذا قررت أن أنشئ «ديواناً» يضم ذوى الرأى من العلماء والتجار والفلاحين والأعيان ، ليكون مجلس شورى مصغر ، وفي حقيقته تنظيمًا مساعدًا لنا . . سوف يتكلم هذا الديوان ، لكن بألسنتنا ، وسنخلق صراعاً دائماً بينه وبين الناس ، وقد نجد أنفسنا مضطربين إلى أن نلبي بعض رغبات الديوان ، ونجعله يساهم فى حل مشكلات الجماهير عندما نرى المصلحة تقتضى ذلك .

وشرد نابليون ، ثم عاد يقول :

- هذا بعض ما أفكر فيه . . وأنت يجب ألا تنام ، وسألتقى بك من آن لآخر . . حسناً ، تستطيع أن تنصرف .

وخشعت القاهرة العظيمة فى عذاب . . لم يكن خشوعها نومة أبدية ، أو نكسة فى كبرياتها ، أو رضوخاً للذل . . كانت تبكى شهداءها ، وتداوى جراحها ، وتستر جسدها الممزق ، بل وتلتقط أنفاسها لتنهض ، وتعيد النظر إلى ما حولها . وعاد

الناس يسيرون فى الشوارع يتحدثون ويشترون ويبيعون،  
ويؤذنون للصلاة، ويتوافدون على الأزهر الشريف،  
ويتهايمسون على الغزاة، وينظرون إلى وجوههم وملابسهم  
ولغتهم، ويتابعون سلوكهم فى الحياة، واهتماماتهم الغربية فى  
شتى المجالات . . . لشد ما تغيرت المدينة بين حكامها الأقدمين  
الذين ذهبوا، وحكامها الجدد الذين أتوا، الشيء الذى لم يتغير  
فى المدينة هو الروح الكامنة العنيدة تقرؤها على العيون،  
والأفواه المغلقة، والجباه السمراء التى لوحتها الشمس الحارقة،  
والعبارات القصيرة . . . ويرتلمى يجرى هنا وهناك، باحثاً عن  
رءوس يقطعها، وقضايا يلفقها، وأجساد يلهبها بالسوط حتى  
يدميها، ورهائن يقذف بها فى سجن القلعة، لكنه كان أعجز  
من أن يمسك بالروح الخالدة والصامدة التى لا يمكن أن يصيبها  
بخدش، السر الذى لم يعرفه، ولم يحاول أن يعرفه، فى قلب  
المدينة الكبيرة التى خشعت تحت الظلام تلم شعنها .

المدينة الكبيرة تختلج بالكثير من العواطف والذكريات . .  
وترى الغزاة يتواكبون فى مساربها يجهدون أنفسهم فى البحث  
عن المال والحب والمجد، بعد النصر المبدئى الذى حققوه على  
شعب شبه أعزل . . وتمتد طرق المدينة أمام أحذيتهم الثقيلة،  
ونظراتهم النهمه، يريدون أن يشتروا كل شيء . . . لقد استطاعوا  
الحصول على المال، وتنوعت ألوان الضرائب، وأساليب النهب

والمصادر والفديات .. والمدينة الصامته الخاشعة تحت وطأة  
الظلام تنتظر بصيصاً من النور؛ كي تستأنف المسير على هداء ..  
وبرتلمى لا يحس بشيء حقيقى أصيل يربطه بالمدينة  
سوى أنها مجال غزوات، وأرض أحلام فى تحقيق المجد  
الذى يتغنى به، حتى ولو قام ذلك المجد على أشلاء  
الضححايا! .. لم يجرب ذلك الوحش - ولو مرة واحدة فى  
حياته - ذلك الحنين الذى يربط الناس بالناس، والبشر  
بالأرض والسماء، وذلك العشق المذهل الذى يستولى على  
البلاد، فيحيله إلى عابد متصوف، قد غمر قلبه حب  
الكائنات فى كل الأنحاء.

\*\*\*

كان المخطط الذى رسمه نابليون يمضى حسبما رأى،  
وتألف «الديوان»، وشرح لهم نابليون مهمتهم، التى ظاهرها  
خدمة الجمهور، والتعبير عن آماله، وباطنها الخداع  
والتضليل، وتحقيق رغبات الغزاة، وهدم الثقة بين الجماهير  
وفئة من رجالها المرموقين.

غير أن برتلمى كان يفكر فى أمر الشيخ السادات، ذلك  
الرجل الذى ترفع عن أن يكون عضواً فى الديوان .. لقد  
تضايق برتلمى بادئ الأمر، وهو يرى رجلاً يرفع رأسه فى

إباء، ويتصرف فى حرية، محاولاً الحفاظ على كرامته، دون أن يعبأ بقوة الحديد والنار . . لكن برتلمى رأى - فى الوقت نفسه- أن تصرف الشيخ السادات على هذه الصورة، قد كشف عن نواياه، وأبرز تمرده على النظام الجديد، ومن ثم كشف نفسه وحكم على مستقبله أسوأ حكم .

ورأى برتلمى أن الفرصة سانحة للقضاء على الرجل الذى يكرهه، لكن نابليون علق على ذلك قائلاً:

- إن نوايا الشيخ السادات فى غاية الوضوح، وأرى أن القضاء عليه قد يكون ضرره أكثر من نفعه، وأرى أن تركه حراً، وأظنه سيفكر ألف مرة قبل أن يقدم على أى تصرف طائش . . . وهل تظن يا برتلمى أن المشايخ سيستجيبون لخطتنا مائة فى المائة؟ إن كل شىء يوضع فى الحساب . . هناك رجال تشتريهم بالمنصب، وآخرون تدفع لهم المال، ونوع ثالث يجرمهم التهديد والوعيد على وجوههم، أما النوع الرابع فهو يستعصى على أى شىء، ولا يعبأ حتى بالموت . . أنا أدرك ذلك . . هل نسيت السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية؟ ذلك الذى لن يتوانى عن محاربتنا، ومراسلة السائرين والمماليك وغيرهم . . لم يردعه عن ذلك تثبيته حاكماً للإسكندرية . . ماذا قال عندما طلبنا منه أن يدفع فدية كبيرة أو ينفذ فيه حكم الإعدام؟

لقد قال يا برتلمى : «إذا كان مقدرًا على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدرًا لى الحياة فعلام أدفعه؟» . . مثل هذا النوع من الرجال يحيرنى إلى حد كبير ، فحياته تهديد متصل ، ومماته تشير علينا الكراهية ، وتجبرّ علينا أحقاداً لا نهاية لها . . وأرانى مضطراً فى بعض الأحيان إلى وضع حد لحياة أمثاله . .

ولم تغمض عينا برتلمى عن الشيخ السادات ، كان يرصد حوله العيون فى الأزهر ، وفى مجالسه الخاصة ، ويتابع حركاته ، ويحصى عليه كلماته واتصالاته ، حتى جاءت اللحظة التى استطاع فيها برتلمى أن يدينه تمام الإدانة . . ولكن هيهات! . .



إنه ضيف كبير يا هيلدا، ومن المقرّبين إلى نابليون، وهو فى الوقت نفسه حاكم المدينة - القاهرة - وأنا أعمل تحت إمرته، إنه جاف بعض الشيء، لكنى واثق أن زيارته لنا هذه الليلة ستكون بعيدة الأثر فى علاقته بنا . . إنه الجنرال «ديوى» حاكم ميلان سابقاً بعد احتلال إيطاليا، ويتمى لأسرة عريقة شريفة . . أرجو أن يجد الراحة التامة فى منزلنا الليلة، ولا شك أنك على علم تام بما يجب عمله . لو نجحت يا هيلدا الليلة، فسيكون ذلك بداية طيبة . . أنه يسكن الآن فى قصر إبراهيم بك ببركة الفيل، وأعتقد إن زيارتنا له بعد ذلك ستكون متكررة، وسنكون من أصدقائه المخلصين . . لا وجه للمقارنة يا حبيبتي بينه وبين الصعلوك الصريع «إبراهيم أغا»، أنت لا شك تدركين ذلك .

ويدا على وجهها الضيق، حينما عاد أبوها لذكر إبراهيم أغا، همت أن تصفع ذلك الوجه الذى تكرهه - وجه أبيها - لكن كيف؟ إنها فى هذه الأيام تشعر برغبة جارفة فى التحطيم

والتدمير والعبث . . إن فى داخلها طاقة مكبوتة تريد أن تنفجر  
وتحطم أى شىء . . المثل العليا أصبحت تحت نظراتها البائسة  
حماقة، وإرادة الإنسان الحرة أكلوية كبرى، ولم يكن هناك بد  
من أن تلح فى طلب كأس من الخمر، فابتسم أبوها قائلاً:

- لقد عرفت يا عزيزتى كيف تبدئين .

أقبل ديبوى، وتنسم ريحاً طيبة حينما وقعت عيناه  
الزرقاوان على وجه هيلدا الجميلة، وعندما واجهها ابتسم،  
وانحنى يقبل ظهر كفها فى وداعة ورقة. «لشد ما أنت رائعة  
الجمال يا هيلدا»، قالها هكذا دون حياء، وأمام أبيها الذى  
غمرته الفرحة فى أول امتحان لفتاته، وتضرجت وجتاتها  
بالحمرة الشهية، وأخذ ديبوى يذكر: «الطريق موحش مقفر،  
والمشكلات عديدة، والنساء كأحلام وردية تراود منامى القلق  
المجذب، وأنا لا أكاد أفرغ من الأعمال . . . تلك الدوامة  
القائلة التى تعصف بى، وتقذفنى من ميلان إلى الإسكندرية،  
ومن الإسكندرية إلى القاهرة، وحياتى تحولت إلى صراع  
وحشى لا هوادة فيه ولا رحمة . . لا شك أن هيلدا رائعة تجمع  
بين جاذبية الشرق الفاتنة وبشرة الغرب الشفافة البديعة، لكنها  
صغيرة . . كالوردة الغضة . . أه . . وابتسامتها تزيل الكثير مما  
أحس به من آلام وإرهاق . . إلى . . إلى يا واحستى  
الخضراء . . .»

لم يكن دييوى من السذاجة بحيث يندفع إليها كالغريق يتشبث بغصن رقيق، إنه رجل حرب يعرف كيف يتسلل إلى قلوب العذارى، وهو فى الوقت نفسه فرنسى - وإن كان بولونى الأصل - يلتزم الكثير من آداب اللياقة مع النساء، خاصة وهو الليلة أمام فتاة مراهرة عاشت حياتها فى القاهرة ذات الطابع المميز.

ويعد أن أثنى على جمالها، وأحاطها بغير قليل من العطف والإطراء انصرف إلى أيها ليشرّب بضع كئوس من الخمر . . . وكان بمزول «برتلمى» فى تلك الليلة عدد من الضباط الفرنسيين وبعض الأروام نساءً ورجالاً، ودار الحديث هنا وهناك، وتواترت أطايب الأطعمة، وتبودلت بعض الملح والطرائف، فى جو ودى منطلق، وأتيحت الفرصة لعدد من هواة الرقص، ففضوا وقتاً ممتعاً . . . والغريب أن بعض الضباط الصغار قد قاموا بإجراء مسرحية صغيرة كوميدية أمام الجنرال دييوى وياقى الضيوف، فأضفت على السهرة جواً جذاباً من المرح والحرارة . . . وكانت هيلدا تنظر إلى هذه الأفاعيل فى غاية الدهشة، وسرغان ما اندمجت فى الجو، وحاولت أن تشارك فيه بقدر محدود، وكان أبوها سعيداً غاية السعادة، وهو يراها تخرج عن كآبتها وصمتها، ويكتسحها جو البهجة الجديد . . .

وفى آخر السهرة وقف الجنرال دييوى، وقد بدت على وجهه إشراقات الانشراح وقال:

- يسعدنى يا هيلدا أن تتكرمى وتشرفى بيتى فى أى وقت  
تسائين، سأكون فى منتهى السرور والسعادة . .

قالها وهو ينحنى فى احترام ويقبل يد «الأميرة» الصغيرة  
للمرة الثانية، بينما هتف برتلمى:

- إنه لشرف عظيم يا سيدى الجنرال .

بينما هزت هيلدا رأسها فى امتنان دون أن تنطق بكلمة .

وعاد برتلمى للحديث ثانية:

- لقد آن الأوان أن نبدأ حياة الاستقرار والراحة يا سيدى

الجنرال، إن سقوط العاصمة فى أيدينا يعنى انتهاء الحرب،  
ومن ثم لا بد أن نمرح ونبتهج .

قال ديبوى:

- إنك حسن النية يا عزيزى . . لقد حاربت فى أوروبا فى

ميادين عدة، وسقطت فى أيدينا العواصم، لكن هذا لم يكن

يعنى انتهاء المقاومة . . إن تصفية جيوب المقاومة يكبدنا الكثير

يا برتلمى، بل إننا نفقد فى ذلك من الرجال أكثر مما نفقد فى

المعارك الرئيسية . . ثم هل نسيت أن فلول الممالك يجمعون

شتاتهم فى الصعيد والشرقية؟

قال برتلمى باسمًا:

-أوه يا سيدى . . أية مقاومة تقصد؟! إننى أعرف هؤلاء

الناس جيداً، إن تفوقنا في القوة قد أعطى نتائج المعارك الباقية مقدماً، أنتتظر مقاومة تذكر من فلول الممالك الجبناء أو الفلاحين العزل من السلاح؟!!

ولوح ديوى معترضاً فى دعاية:

- كفى يا برتلمى . . يبدو أن حديث الحرب لا يروق «لهيلدا» . . . دع حديث الحرب والسياسة الآن، فالوقت متسع لذلك فى الغد أثناء النهار.

لعل هيلدا - بعد أن انصرف الضيوف - كانت أكثر هدوءاً، إن كثوس الخمر التى شربتها، وجو المرح الذى عايشته، قد أضفيا عليها شيئاً من الأمن والاستسلام، لكن الشيء الذى غذى كبرياءها، وأرضى أنوثتها، هو أن الجنرال ديون بنفسه كان يعاملها بمتهى الاحترام والرقه . . لقد خيل إليها أنها فى مركز أعلى من مركزه . . . يمكن أن يعامل ديوى رئيسه نابليون بأكثر من هذه الرقة والاحترام . . بل إن احترام ديوى لها كان أكثر بكثير من أيها، إنها لا شك مخلوق آخر يستحق كل تلك العناية، على الرغم من أنها لا تحتل منصباً مرموقاً، أو تحوز من رتب الجيش الكبرى.

وأدركت «هيلدا» فى الأيام التالية أن الطريق إلى قلب «الجنرال ديوى» أصبح سهلاً ممهداً . . لم يكن ليرفض لها

طلباً، أو يؤجل لها رغبة من الرغبات التي تسنح، أصبحت فتاته المفضلة المدللة، حتى صغار الضباط الذين يقفون في خدمة الجنرال وتحت إمرته، كانوا يؤدون لها واجب التوقير والرعاية، مثلما يفعلون مع الجنرال، ولقد أثلجت هذه العلاقة الوليدة صدر أبيها، فازداد حذبه عليها، واعتناؤه بها، لكأنما الجنرال ديبوى قد انتقل إلى منزل برتلمى، وأصبح الأمر الناهى فيه، وهل هيلدا إلا ممثلة لسلطة الجنرال ومركزه الكبير؟

\*\*\*

أتت هيلدا ذات مساء إلى منزل الجنرال ببركة الفيل، وأدخلها الضابط النوبتجى «مالوس» إلى حجرة الاستقبال، وتمتم مالوس:

- «معدرة يا أنستى.. الجنرال فى اجتماع بالقيادة العامة، وقد يعود بعد ساعة..».

وشعرت بشيء من الضيق، وحينما رفعت بصرها وجدت الكابتن «مالوس» ينسحب خارجاً، كان فى الخامسة والعشرين من عمره فارع الطول، قوى النظرات بدرجة ملحوظة، يتحرك فى رشاقة وخفة.. ووجدت «هيلدا» نفسها تصيح:

- إلى أين؟

- إلى مكانى فى الحراسة..

- هل يليق بك أن تتركنى وحدى؟

لم تكن من قبل على هذه الصورة من الجراءة، لقد أتت أول مرة إلى منزل الجنرال مع أبيها، وكانت تشعر بالخجل الشديد حتى أوشكت أن تنفجر باكية، لكن تكرار الزيارة أنساها ما وقعت فيه من خجل أو حرج فى البداية، لكنها ظلت تشعر بارتباك مؤسف كلما أتت وحدها إلى زيارة الجنرال، على الرغم من أنها لم تفرط فى شرفها وكبريائها، لكن هذا الارتباك هو الآخر أخذ يذوى رويداً رويداً حتى اكتسب صفة العادة ففقد حقيقته.

وعادت هيلدا تقول:

- ما اسمك؟

- مالوس . . كابتن مالوس.

- أنت لطيف للغاية يا مالوس.

ورفع إليها عينين حائرتين لم تفقدا قوة بريقهما:

- أشكرك يا أنستى.

- لماذا لا تزورنا؟

- إننى أحضر دائماً مع الجنرال.

- أعنى . . وحلك . .

- معذرة يا أنستى ، إن والدك سيد برتلمى صديق الجنرال ،  
وهو يحتل مركزاً كبيراً .

- حسناً . . لا بد أن تأتى فى وقت فراغك لزيارتى . . إننى  
أدعوك ، ولا دخل لأبى فى الأمر .

قال مالوس متلعثمًا :

- آسف يا أنستى . . إنك صديقة الجنرال .

- ليست صداقته حكراً . . لى أن اختار أصدقائى كما أشاء .

- آسف يا سيدتى .

- إننى أمرك .

- تريدن ضياعى .

قالت فى ثورة :

- أنتم تعيشون حياة رهيبة مزعجة لا حرية لكم فيها . . هل

كلكم هكذا ؟

- فى الجيش يا أنستى الحياة مغايرة تماماً وإلا . .

قاطعته قائلة :

- كفى . . لماذا تتحدثون إذن عن الحرية والإخاء والمساواة

فى ثورتكم الفرنسية الكبرى ؟

---

- سيدتى . .

- لا تقاطعنى . . أنتم تكذبون، وتخافون، ويستعبد الكبار منكم الصغار، وتبررون تعاستكم وعبوديتكم باسم القانون . .

وصمتت برهة، ثم قالت:

- كابتن مالوس . . إننى أحبك منذ أن رأيتك لأول مرة فى

منزلنا .

- لكن . . .

- لكنك جبان! . .

- أنت تحيين الجنرال، وتزورينه من أن لآخر . . الكل يعلم

ذلك . .

- مجرد صداقة . . إنها لا تختلف - فى نظرى - عن

صداقته لوالدى .

- حسناً . . ليكن هذا سرّاً بيننا، وإلا وضعت وضاع

أبوك . .

واقتربت منه بخطوات وانية . . كان يبدو شاحب الوجه

جميلاً، يرعشه الخوف والحب . . وحينما ألفت بذراعيها حول

عنقه تنهى إلى أسماعهما صوت النفير، فانتفض الكابتن

«مالوس» وصرخ فى خوف:

- إنه الجنرال . . يا للكارثة !!

وجرى دون كلمة تحية عابرة، وتركها واقفة تكز على أسنانها من الغيظ، وعادت إلى مقعدها منفعلة، صدرها يعلو ويهبط . وعلى الرغم من أن رائحة الخمر كانت تنبعث من فمها، إلا أنها كانت تشعر بظماً شديداً لمزيد من الكئوس المترعة، لشد ما تحب الخمر في هذه الأيام !!

وعندما وقع بصر الجنرال عليها صاح في مرح :

- حبيبتى هيلدا . . إن تشوقى إليك أكبر مما تتصورين .

قالت دون أدنى حماس :

- أريد كأساً من الخمر .

- حسناً . . فى لحظات سيكون كل شيء تحت تصرفك . .

مسكين أنا أسكر بالخمر ويشغرك الشهى يا هيلدا يا أميرتى الفاتنة .

ترنحت ومالت، بعد أن أثقلت فى الشرب، وهمست :

- «أريد أن أنام» .

قال الجنرال اليقظ : «هنا على صدرى يا حبيبتى» .

قالت فى شبه غيبوبة :

- إن كثرة النياشين على صدرك تؤلم رأسى .

- لسوف أخلع تلك السترة اللعينة . . .

وطواها بين ذراعيه ، وأخذ يلتهم شفتيها فى نهم . . كانت  
كمن تعيش فى حلم غامض ، ونظراتها الغائمة تتبين ملامح  
مالوس وإبراهيم أغا ، وأحلام قديمة تتمازج وتتصادم ، وهى  
غارقة فى موجة من الإثم لا تدرك أبعادها فى غمار السحب  
والدخان والنشوة التى تنشرها الخمرة . . وتتم الجنرال بعد أن  
انتهى كل شىء .

- سيدتى . . أنت أمتع امرأة فى الوجود كله .

لكنها لم تكن فى حالة تسمح لها بأن تسمع شيئاً أو تدرك  
حقيقة ما حدث ، ولم تستطع أن تغالب النوم الذى دهمها ،  
فارتجت فى أريكة حريرية ناعمة .



عادت هيلدا في وقت متأخر من الليل، وصحبها الكابتن مالوس إلى بيتها . . كانت صامته شاردة، لم تحاول أن تجاذبه أطراف الحديث . . ما أوسع البون بين لقائهما آخر النهار، وصمتها الآن؛ مما جعل مالوس يقع في حيرة لا يجد منها مخرجاً . . ماذا أصابها؟ إنها فتاة غريبة الطباع لا يمكن فهمها بسهولة . . ولاذ هو الآخر بالصمت . . .

وحينما بلغت بيتها قرأ أبوها في عينيها الكثير من المعاني الحزينة، لم يكن الرجل من الغباء بحيث يخفى عليه شيء، وتمتم في ندالة:

- حسناً . . لقد تأخرت كثيراً يا هيلدا، وعليك الآن أن تأوى إلى فراشك .

ورمقته بنظرات نارية، وقالت في صوت تفوح من نبراته رائحة الاحتقار:

- ألم تكن تريد ذلك؟!

قال متباليها:

- لا أفهمك .

- أنت تفهم كل شيء . . . وماذا يكون مصير الحمل بين

فكى الذئب؟! لا . . لا . . بين ذئبين جسورين لا يرحمان .

وطأ رأسه فى أسى حقيقي هذه المرة وقال :

- مستحيل أن يفعلها ديبوى . . إنه رجل محترم .

وانفجرت صائحة :

- هذا النوه من الرجال «المحترمين» لا مشيل لهم فى

الانحطاط ، إنهم يعبثون بأرواح البشر ، ألا يمكن بعد ذلك أن

يعبثوا بشرف فتاة ضعيفة؟ . . على أية حال إنها صورة فريدة

من الاحترام المتبادل بينك وبينه .

لم يرحمها ، لم يحترم أساها الدامى ، وأنوثتها الجريحة ،

ومن ثم همس :

- ولماذا لم تقاومى دفاعاً عن شرفك يا هيلدا؟؟

- ألا تعرف أنهم يسحقون أى مقاومة فى أى ميدان ، وأنت

تفخر بذلك؟! ثم إننى لم أكن أشعر بشيء ، فقد أكثرت من

شرب الخمر الذى جعلتنى أعبده .

وانفجرت باكية لبضع دقائق، وأبوها واقف لا يتحرك أو يتكلم، ثم رفعت رأسها، كانت عيناها محقتتين كالدم، والدموع تفرق وجهها الغض، وصاحت:

- لشدّ ما أحتقر نفسي، لم أعد أصلح لشيء، اللهم إلا تدعيم مركزك لدى السادة المتصرين.

لكأنما سدّدت إلى قلبه خنجراً مسموماً، ولم تنتظر ردهً على ذلك، بل جرت إلى حجرة أمها المريضة المنعزلة، التي لا تكاد - لعجزها - تشارك في شيء من الأحداث الجارية، كانت تندفع إليها وهي موقنة أنها الصدر الحنون الوحيد الذي يستطيع أن يسع أساها، ويخفف من ألمها البليغ... وضمّتها الأم بذراعيها الواهتين إلى صدرها الناحل، وتمتت الأم في صوت ضعيف خائر:

- أعرف أن أباك قاس لا يرحم، ولا يفتأ يجر علينا الوبال بتصرفاته الطائشة ترى ماذا حدث؟ إن قلبي يا هيلدا ينتفض من الخوف.

وتشبّث هيلدا بأما المريضة، لكأنما أصبحت من جديد طفلة صغيرة، حائرة لا ملجأ إليها من الخوف والقلق إلا صدر أمها التي تحبها وتؤمن بها أعمق الإيمان.. ثم قالت:

- لا تتركيني يا أمي.. إنني تائهة.. أشعر بالضياع.. لا تتركيني بحق الله.

- لا تجزعى يا حبيبتى .

- إن الحياة أصبحت جحيماً لا يُطاق .

ودهما صوت أجش، كان أبوها بالباب يقول:

- هيلدا . . تعالى هنا .

ردت كقطة شرسة:

- ماذا تريد بعد ذلك؟

- قلت أقبلى . . إننى أريدك فى أمر خاص، ودعى أمك

الآن .

قالت الأم والدموع الحائرة تبلبل وجتيها الشاحبتين:

- اذهبى إليه يا ابنتى .

كان عليه أن يدبر الأمر حتى تهدأ عاصفة ابته، ويعود الهدوء إلى بيته من جديد، وشعر الرجل بإحساس المذنب العتيد، أتصل به الحقارة لهذه الدرجة؟ أيقدم ابنته لقمة سائغة فى فم الوحش المفترس؟ إنها ابته . . مستحيل!! وحاول أن يهرب من نفسه فيزعم أنه لم يكن يتوقع أن يتمادى ديبوى فى فجوره، ويقطع أمل فتاته فى حياة شريفة نبيلة، وأدرك أنه - على الرغم من تعلله السخيف - قواد من نوع مردول . . وثار فى رأسه الزوابع، واجتاحته موجة عاتية من التمرد،

لكنه كان أعجز من أن يتحرك أمام سادته الجدد . . وأخذ جسده يتففض أمام ابنته، ثم غمره عرق غزير، وساد وجهه شحوب ظاهر، وتهد في حزن، وقال :

- لا شك أنه عمل شائن من ديوى يستحق عليه قطع رقبته، وأعرف أننى أشاركه هذا الوزر، لم أكن لأتصور أن يبلغ به الحمق - وهو جنرال شهير - فيعتدى عليك ذلك الاعتداء المشين .

وعلى الرغم مما كانت تشعر به هيلدا من حنق زائد، إلا أنها أدركت الوضع الحرج الذى يقاسى منه أبوها، إن المعاناة الحادة ترتسم على وجهه، وفى عينيه، وبدا محطماً كثيباً حزيناً، فأدركتها الشفقة عليه، فتمتمت وقد أطرقت رأسها حزينة :

- أعرف أنك تتعذب .

- لو استطعت أن أسفك دمه لما توانيت .

- ليس هذا هو الحل يا أبى .

- تقصدين . . . إننى أدرك ما ترمين إليه، حسناً، عليه أن يصحح خطأه . . لا حل سوى الزواج . . إن برتلمى لا يصح أن يكون أضحوكة الضباط والجنود الفرنسيين . . وأنت يا هيلدا لا تستحقين هذا المصير . . لقد كنت أعدك لشيء أعظم من هذا بكثير، ومن ثم فإننى أتحمّل المسئولية

كاملة . . إن ديوى لابد أن يتزوجك . . إذا كان من المقبول أن يحطموا أعداءهم فى المعركة، فليس من المعقول أن يحطموا قلوب أصدقائهم . . لسوف أصل معه إلى حل سليم سريع . . أى هيلدا . . إن دموعك تمزق أعصابى وتؤرقنى . . كفى يا عزيزتى، إننى أضحى بكل شىء إلا أنت يا هيلدا . . ربما خيل إليك أننى أضحى بك من أجل مطامعى . . لا يا هيلدا . . إن كل شىء كان من أجلك، ولم يدر بخلدى مطلقاً أن أضحى بك أنت . . مستحيل أن أقصد ذلك .

وأخذ برتلمى يعرض على شفته السفلى محاولاً أن يكظم دموعه - وهو العصى الدمع - ولم ينجح إلا بعد جهد جهيد، ثم وقف وأعطها ظهره، كان يبحث عن شىء يدارى به فشله، ويخفى أساه، وهل له ملجأ سوى الخمر؟!

وحاولت هيلدا جاهدة أن ترفه عنه، وتبسط له الأمر، ومن ثم أخذت تتحدث عن ديوى وأخلاقه، وأنه لا يمكن أن يغدر بها، أو يتنكر لصلاته بأبيها، ولا شك أن الأمور ستسوى بينهما، وتنتهى إلى نتيجة يرضى منها الجميع، كانت تعلم أنها تخفف عن حزنه، وكان هو الآخر يدرك أنه يحاول أن يحيل المأساة البشعة المهولة إلى مجرد صدع فى مستقبلها فى الإمكان إصلاحه، إنها لحظات أشبه بالمشاعر الأسرية العميقة التى كانا

ينعمان فى ظلالها فى الماضى القريب، وبدا أن الاثنىن  
يستطيان جو الوهم والخداع الذى هو من صنع أيديهما، وماذا  
فى استطاعتها أن يفعل غير ذلك؟ . .

وقال برتلمى وهو يعب الكأس الثانية :

- يجب أن تذهبى لتستريحى الآن، وسندبر الأمر غداً . .  
سأواجه ديوى بالأمر، إذا لم نصل إلى حل جذرى، فسأرفع  
شكواى إلى سارى عسكر نابليون نفسه مهما كانت النتيجة، وأنت  
تعرفين الدور الخطير الذى أعبه فى خدمة هؤلاء الفرنسيين،  
وستبث لهم الأيام أنهم سيظلون فى حاجة ماسة إلى .

لم يكن فى مقدورها أن تنام، ما أسرع ما انزلت قدمها  
فهوت فى عالم الرذيلة والشقاء . . لقد ذابت مقاومتها،  
وانمحت إرادتها، إنها أتعس حالاً ممن كن يبعن فى سوق  
الرقيق، إن الأرقاء لهم شريعة، والملاك يقبضون الثمن، أما  
هى فقد سقطت دون مبرر من قانون قائم، ودون ثمن قبضته  
يدها، حتى أبوها هو الآخر بدا تعساً شقيماً، لقد ظن لأول  
وهلة أنه سوف يدعم مركزه بتوثيق الصلة بينه وبين الجنرال  
ديوى، لكنه يدرك الآن - أكثر من أى وقت مضى - أنه كان  
ضحية خطأ فاحش وإدراك للأمور سقيم، لقد كان يتخبط  
ويغامر دون روية حقيقية، وأفاق فى النهاية على الكارثة التى

لا يعلم كيف يخفف من وقعها على نفسه وعلى وحيدته الضحية المسكينة .

لكن أيمكنه أن يطلب من الجنرال إتمام الزواج من ابنته؟ وهل لديه المقدرة كى يواجه الأمر بما يتطلبه من شجاعة؟ لقد تكلم كثيراً، ووعد ابنته بأنه سيتخذ الخطوات الحاسمة لإقرار الأمر على صورة تحفظ له كرامته، وتحمى لابنته مستقبلها، كان يتحدث آنذاك وهو فى حالة من التوتر الشديد، لكنه الآن يفكر فى هدوء، ويبحث عن الأمر من كل جوانبه دون انفعال، والمستقبل أمامه مظلم حالك السواد، وإلى جانب هذا كله الجو حار شديد التزمّت، وهو يشعر برغبة جارفة فى أن يركب جواده وينطلق فى الشوارع مسرعاً كى يتنفس، إن أنفاسه تكاد تحتبس، ومأساة العجز الأبدى تعاوده من جديد، لقد كان يظن أن حالة العجز النفسى التى كان يعانيتها قبل مجيء الحملة قد انتهت إلى غير رجعة، لكنه الآن برغم السلطة المطلقة، والمنصب الضخم الذى يشغله، وكلمته المسموعة لدى الكبار، برغم كل هذا يستشعر الليلة مزيداً من العجز الذى يسحق كبرياءه، ويسخر من أوهامه، فإذا بقى على هذه الصورة من العجز الفاضح فلسوف يُصاب بلوثة من الجنون، إنه يمارس سلطاته، وينفذ إرادته بالنسبة للمواطنين التعساء،

يلهب ظهورهم بالسياط ، ويسوق بعضهم إلى السجن ،  
ويأمر بقطع رقاب البعض الآخر ، ويشير الإرهاب والرعب  
في شوارع القاهرة وأزقتها ، لكنه - مع كل ذلك - يقف  
أمام ديوى كالفار المذعور ، يرتعد ولا يستطيع أن يدفع  
نفسه كي يواجه الجنرال الكبير بالحقيقة .

وشعر برغبة جارفة فى البكاء؟ ..

لكن أيمكن أن يبكى برتلمى كما يبكى باقى الناس؟ ..

وكانت الكأس أسبق إليه من دموعه ، فأخذ يترع من الخمر  
دون هوادة ، وعندما بلغ قمة النشوة ، أخذ يبكى ويضحك فى  
الوقت نفسه ، ويتكلم بصوت مسموع ، ولم يكن بقادر على  
أن يستمع إلى أنين زوجه المريضة واستغاثتها المتكررة .

وبعد فترة من الزمن لا يدرى أطالت أم قصرت ، رفع عينيه  
ليرى هيلدا واقفة أمامه ، والدموع تنهمر من عينيها ، كانت تقول :

- إن أمى تحتضر يا أبى ..

وجمد فى مكانه ، وكسا الشحوب وجهه وتمتم :

- ماذا؟؟

قالت وهى ترتجف :

- إنها هناك . . تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وليس إلى جوارها

سوى المرأة العجوز . . الخادمة .

هرول إلى الداخل كالمجنون، رأى زوجه على صدر المرأة العجوز، عيناها واسعتان زائغتان، العرق الغزير يبلل جبينها الشاحب، وصدرها يعلو ويهبط، كمن تجتاز سباقاً مجهداً عنيقاً، وهمست الأم دون أن تعير زوجها أدنى اهتمام:

- هيلدا.. تعالى.. هنا.. إلى.. جوارى.. أريد أن..  
أقبلك.. يا حبيبتي.. إن.. قلقي.. عليك.. يعذبني..  
لكن الله كبير..

وأخذ برتلمي يهتف باسمها، لكنها كانت تنظر إليه عاتبة دون أن تتكلم، وطبعت على جبين هيلدا قبلة مرتجفة، وحاولت أن ترفع ذراعيها لتضمها إليها فلم تستطع، ثم أغمضت الأم عينيها لآخر مرة، بينما انقضَّ عليها برتلمي مهتاجاً:

- أي زوجتي.. ردّي على.. تكلمي.. مستحيل أن يحدث هذا.. ما معنى أن تموتى هكذا تحت سمعي وبصري دون أن أفعل شيئاً؟.. توسلى إليها يا هيلدا أن تتكلم.. أهكذا نعجز عن فعل أي شيء من أجلها؟! ثم أخذ يتحبب باكيًا كامرأة ثكلى..

وهمست هيلدا، والدموع تغرق وجهها:

- لقد فات الأوان..



القاهرة يلفها الانتظار الحزين المتوتر، ومع ذلك فقد عادت إليها الحياة النشطة من جديد . . الباعة المتجولون يروحون ويجيئون ويدللون على بضائعهم بأصواتهم المرتفعة، وعباراتهم المسجوعة المنغمة، والمحلات التجارية قد فتحت أبوابها، وحاملو القرب يوزعون الماء على البيوت، والنيل العظيم يمتد عملاقاً جباراً قائم السحنة، وبعض العامة يرددون كلمات فرنسية لا يتقنون نطقها، والمنشورات والأوامر الجديدة يتناقلها الناس، والديوان يجتمع ويتحدث باسم الغزاة ألف مرة، وباسم الجماهير الحزينة مرة واحدة، والشيخ السادات لا يفتأ ينشر آراءه تارة، ويكتمها تارة أخرى، لكن المعروف لدى الجميع أنه يتحرق شوقاً ليوم الثأر من هؤلاء الكفرة الخبثاء، والناس يتحدثون عن برطلمين أو فرط الرمان الذي طار صيته في الآفاق، ويروون الكثير عن مظالمه، وبشاعة تصرفاته، وانتقامه المستمر من مناوئيه القدامى، ويهمسون: «ليته مات

بدلاً من زوجه الطيبة» . . وآخرون يتكلمون عن فساد أخلاق الفرنسيين وانحلالهم، وإقدامهم على الجرائم الجنسية فى بساطة غريبة، ولم يغب عنهم أن بنت فرط الرمان «الحلوة» قد اندمجت فى الجو الفرنسى، حتى بدا وكأنها واحدة من بنات باريس الخليعات، وإن لم يدركوا أبعاد انهيارها الحقيقى، وآخرون ما زالوا يتحدثون عن مقاومة الممالك المتهاففة فى الصعيد والشرقية، وغيرهم لا يفتأون يكررون أن السلطان فى الآستانة لا بد وأن يتحرك لنجدتهم فى وقت من الأوقات، وكان كثير من الحديث يدور عن الضرائب الجديدة التى يفرضها القائد المنتصر . . يا للمأساة . . دائماً يطلبون المال . . سواء أيام الممالك أو أيام الفرنسيين . . وعلى الشعب أن يعتصر قواه وعمره ولياليه الجافة المظلمة كى يقدم المال . . إن نابليون وعساكره يريدون العوض عما بذلوه من نفقات، ويريدون أن يحيوا الحياة اللائقة بهم كغزاة منتصرين، وكحكام أقوياء، وبالطبع يريدون الاستعداد التام للمعارك المقبلة التى قد تطول فى أطراف البلاد وعلى الحدود، ولا بد أن يكون هناك نبع دائم للإمداد بالمال والطعام، وعلى المهزوم أن يقدم كل ما يطلب منه، لسبب بسيط معروف . . إنه مهزوم وهذا يكفى . .

والحاج مصطفى البشتلى ما زال فى بولاق، لم تفارق قلبه

الحسرة من أجل خطيب ابته الذي دفع حياته في لهيب المعركة عن طيب خاطر . . والشيخ على الجنجيهي في مكانه المعتاد إلى جوار الحاج، ومعهم الشيخ إبراهيم سلامة . . أما مكان أحمد المدبولي فقد أصبح شاغراً، وكثيراً ما كان الحاج مصطفى يردد . . «لقد هرب تاجر البارود عندما اشتدت الحاجة إلى باروده» . . والجنجيهي لا يفتأ يقرأ القرآن، لكن نبراته في هذه الأيام تحمل إحياء حزيناً دامعاً، وخاصة أنه يختار الآيات التي تتحدث عن الاستشهاد واحتمال الأرزاء والنكبات في صبر وإيمان .

وقد قضى الحاج مصطفى فترة لا يغادر فيها بيته، كان يلزم داره يقرأ القرآن، أو يستقبل الأصدقاء . . وانطفاً قنديل الدعابة والمرح، وحل محل العبوس والتفكير العميق، والتهديدات المؤلمة، والذكريات المختلفة، وحكايات التاريخ الكثيرة المماثلة . . إنهم يجتروا أحداث الزمان ليتلقوا منها العبرة، ويبلغوا من خلالها إلى بعض النتائج التي يحلمون بها . . الشيخ إبراهيم سلامة يذكر لهم وقائع الصليبيين في مصر وبلاد الشام واحتلال بيت المقدس، والحروب العنيفة التي استمرت سنين طويلة . . ثم يعود ليتحدث عن المغول والتار، وقد هدموا بغداد، وخرّبوا المدن وحرّقوها، وأتوا من الشنائع ما لا يتصوره عقل . كان الشيخ إبراهيم يتحدث

ويروى الكثير من التفاصيل، والكل له سامعون، وكان حديثه في آذانهم أشهى من الطرب والنغم. . ويختلط الشعر بالثر في الملاحم التي يرويها، ويخلص في النهاية إلى أن الصليبيين اندحروا مهزومين أمام صلابة صلاح الدين، وشعب مصر العظيم، وأن المغول ارتدوا على أعقابهم خاسئين، وكثيرون منهم اعتنقوا الدين الإسلامى وذابوا في مجتمعه الكبير، وبقيت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى - على حد تعبير الشيخ إبراهيم سلامة. .

أجل، الشيخ يروى. . والرجيلة تكرر، والأحلام تمتزج بالحقائق. . وزينب المسكينة في داخل البيت تقف في مكان حرج بين العقل والجنون. . والحسين - وقد صقلته التجربة المريرة - يجلس مع رفاق أبيه صامتًا يستمع، وملامح وجهه تتحدد أكثر وأكثر، وتصرفاته تتسم بسيماء الرجولة الصامدة المترقبة. . والأم تضع كفها على خديها شاردة بنظراتها إلى المستقبل المجهول. .

وذات مساء، قال الحاج مصطفى لأصحابه:

- إلى متى نظل هكذا كالأسرى في بيوتنا؟

قال الجنجيهي:

- ولماذا نخرج إلى الشارع والزيارات؟ لقد ساءت الحال،

وتبدلت الأمور، وأصبحنا كالغرباء فى بلدنا، وعيون الفرنسيين فى كل مكان، والفتن - نجانا الله منها - تسود أنحاء القاهرة، ويرطمين يتفرعن . . فى مثل هذه الأحوال يا حاج مصطفى، على العاقل أن يلزم بيته.

وقال الشيخ إبراهيم سلامة:

- فى رأى يجب أن نمارس حياتنا العادية؛ لأن معنى كلمات الجنجيهى أن نسجن أنفسنا ما دام الفرنسيون يحتلون البلاد، وهذا مستحيل.

وأردف الحاج مصطفى:

- إن ما تقوله هو الصواب، يجب أن نخرج إلى الشارع لنرى الناس، ونسمع شكاياتهم، ونلم بمشكلاتهم . . فى مثل هذه الأزمات، يجب أن يقترب الناس ويتناقشوا ويتلاحموا . . إن ترابط الجميع يخفف الكثير من المأسى، ويخلق لها الحلول المناسبة . . ثم . . أعنى أن المعركة لم تنته بعد . . ألا يجوز أن نلتقى بالشيخ السادات ونسمع رأيه؟ ومسألة الضرائب الجديدة، ألا تستحق منا المناقشة والدراسة؟ إن الناس فى ضنك، والتجارات الخارجية توقف أو كادت، وحالة الناس المعيشية لا تسر، وإذا لم يكن فى الإمكان هزيمة الفرنسيين الآن، ففي الإمكان - على الأقل - وقفه عند حده، أليس كذلك؟ . .



- يا حاج مصطفى، لقد بدأت تمارس هوايتك الخطرة من جديد.

أجابها بقوله:

- تعقلى يا امرأة.. إن ما أفعله شيء يسرى فى عروقى وروحى.. قد أستطيع الاستغناء عن الطعام والشراب، لكنى لا أستغنى عن حرىتى وكرامتى.. أتفهمين؟ بغير هذه المعانى لا يكون الرجل رجلاً، يجب أن تدركى ذلك، أما الخوف فهو عار، وأما الموت فلا نجاة منه، إنه نهاية كل حى، ورحم الله أبا الطيب المتنبى:

وإذا لم يكن من الموت بد فممن العجز أن تموت جباناً  
وهمست فى حزن:

- أمصر أنت على ما تقول؟

- بالطبع..

- عوضى على الله.. لقد كتب علينا الشقاء، إنه قدر، ولا مفر من ذلك.

وتمتم فى ذهول:

- رحلة العمر - مهما طالت - قصيرة.. أه من قلة الزاد،

وبعد السفر، ووحشة الطريق.. كما يقول الإمام على - كرم الله وجهه.

أجابته زوجه بقولها :

- دائماً تتحدث عن الأقدمين، لقد كانوا فى زمان غير زماننا، وكان الرجال غير الرجال . .

- المبادئ التى عاشوا فى ظلها ما زالت حية، لكننا نجبن عن تحمل المسئولية. قلبى يحدثنى أن الفرنسيين لا بدوا حلوان، وأنا بعون الله متصرون. أجل . . لكننا قد ندفع الثمن غالباً . . لا بأس؛ لأن تكاليف الجهاد باهظة .

\*\*\*

وفى الليالى المسهدة الطويلة، كانت تجلس زوجة الحاج مصطفى تنتظر عودته . . ترى هل يعود؟ والقلق والخوف يعذبانها، وصور المستقبل الغامض تتشابك وتتلون بشتى الألوان والانفعالات؟ وتأتى زينب إلى جوار أمها وتقول :

- سمعت أن خطيبى سوف يدخل الجنة .

- أجل يا حبيبتى .

- ما الذى يؤكد ذلك؟

- وعد الله . .

- أى وعد يا أمى؟

- لقد وعد المجاهدين فى سبيله، والذين يستشهدون فى معركة الحق، بأعظم الثواب . .

- تتكلمين كما يتكلم أبى .

- أبوك صادق، وعلى حق يا زينب، لكننا بشر يا حبيبتي،  
وحب الدنيا متغلغل فى صدورنا . . . إننا أضعف من أن نؤمن  
مثل إيمانه، أو مثل إيمان مصطفى . . .

وافتر ثغر زينب عن ابتسامة غريبة وقالت :

- إذا كان هذا الطريق هو الوسيلة المضمونة للجنة، فلماذا لا  
يهرع الناس جميعاً إليها يا أمى؟! يخيل لى أن خطيبي مصطفى  
قد اختار لنفسه نهاية رائعة، وإن ترك لنا الحسرة والأحزان . . .

وتبللت وجتها بالدموع وهى تقول :

- أيمكن أن ألتقى به فى الجنة، إذا كتبها الله لى؟

قالت الأم :

- ولم لا؟!!

وعاودها الابتهاج الغريب وقالت :

- إنها فكرة رائعة، وأمنية عالية .

وأدركت الأم أن فتاتها تتماذى فى أحلامها الخطرة، وتعبر  
عن اضطراب كبير . . . إن الصدمة التى سقطت على رأسها تغير  
من تفكيرها وسلوكها، وتجعلها تبدو على حافة الجنون . . .  
وبينما كانت الأم تفكر فى أمر زينب التعسة، سمعتها تقول :

- إننى أنتظره كل مساء لدى النافذة ..

دقت الأم على صدرها فى خوف وقالت :

- ماذا؟! تتظيرنه؟! لقد انتهى الأمر وودع الدنيا، يجب

أن تدركى هذه الحقيقة، مهما كانت مرارتها وبشاعتها.

فاستطردت زينب قائلة، دون أن تلقى اهتماماً يذكر

لكلمات أمها:

- يقولون: إن الأرواح لا تعرف الحواجز والحدود.. إنها

تقطع آلاف الأميال فى ثوان معدودات، وتخترق الحجب،

ولا تكثر بزمان أو مكان.. وأنا أعرف أنه كان يحببنى..

وأن روحه لا شك تحوم الآن من حولنا.. إننى أكاد أراها

بوجدانى..

ورفعت رأسها ثم ركزت بصرها على سقف الحجر،

وأخذت تدور بنظراتها باحثة عن شىء غال عزيز، ولهفة

غريبة ترسم على وجهها الشاحب الوسيم.. وصرخت أمها:

- زينب..

- ماذا يا أمى؟

- هل جنت؟!!

- لا يا أمى.. إننى بخير..

ودوت صفة على وجه زينب، فانتفضت كمن تفيق من حلم رهيب، وقالت من بين دموعها:  
- لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا.  
نهرتها أمها قائلة:

- خست أيتها الملعونة.. ألا يكفي ما حدث؟! تريدن أن يضحك علينا الناس ويقولون: ابنة مصطفى البشتلي أصابها الجنون حزناً على فتاها.. ثم يتصورون تصورات سخيفة لا مبرر لها؟! يجب أن تدركي أن الموت حق.. مات مصطفى كما مات آلاف مثله، وكما سيموت آلاف.. وكما ستموتين أنت في يوم من الأيام.. ولو حزن الناس على الموتى كما تحزين، لما ارتسمت ابتسامة واحدة على الشفاه..

وهزت زينب رأسها في أسى وقالت:

- تعنين أنه لا بد أن أنساه..

- كل ما أعنيه هو أن تكوني فتاة عاقلة، تحزين كما يحزن الأسوياء من الناس، أما الإفراط والتمادي فإنه يقود إلى الهاوية.. والحقيقة يا ابنتي الحبيبة، أن كل ما يفعله البشر من مراسم الأحزان - مهما بالغوا فيها - لن يرد ذاهباً إلى الحياة مرة أخرى.

وتمتمت زينب، وقد أدركت ما ترمى إليه أمها من معنى

بعيد:

- أجل يا أمى . . لكننى فى بعض الأحيان أشعر أن آلامى أقوى من إرادتى . . ولهذا أنهار على الرغم منى . .

- إننى أعذرك يا زينب، لكن إلى متى؟ إن أباك يقاسى من أجلك، والحسين يرمقك بعين قلقة، وأظن أنه من القسوة ألا نرحم بيتنا الصغير من الانفعالات الشديدة . . يكفى ما تخبئه لنا الأيام من أشياء لا يعلمها إلا الله . .

فوجئت الأم بصوت ينطلق من خلفها سعيداً رناناً:

- وهل تخفى لنا الأيام إلا كل عظيم؟ . .

- من؟ . . الحاج مصطفى؟ . . بسم الله الرحمن الرحيم . .

- إنه أنا . .

- ماذا جرى؟

كانت أسارير وجهه تعبر عن السعادة القصوى، ويتحرك فى رشاقة وسرعة كأنما قد عاد إليه الشباب من جديد . . وقال فى ثقة:

- لظالما قلت لكم، إنهم بشر مثلنا . . قد ينهزمون وقد يتصرون .

- الفرنسيون؟

- بالطبع، لقد حلت بهم كارثة مدمرة .

- يبدو من كلماتك أن السلطان قد أرسل النجدة، أو أن  
المالِك قد عادوا وهاجموهم . .

وقف منتصب القامة وقال :

- لا هذا ولا ذاك . . لقد استطاع الأسطول الإنجليزي -  
بإرشاد بعض البحارة من المصريين - أن يطبق على الأسطول  
الفرنسي في أبي قير، وأن يدمره عن آخره . . لقد قتل الأميرال  
برويس قائد الأسطول . . يقولون إن الكارثة هزت أعصاب  
نابليون، وأخرست كبار ضباطه، والرعب يسود معسكر  
الفرنسيين . . لقد وقعوا في فخ لا يرحم . . إننا نحيط بهم من  
كل جانب، وهم بلا أسطول يحميهم . ثم إن فداحة الهزيمة  
تحطم من روحهم المعنوية . . وإذا كان هناك وقت مناسب للثأر  
منهم، وطردهم خارج بلادنا، فسيكون الآن . . إن الثورة  
يجب أن تشتعل في كل الأرجاء .

قالت الزوجة وقلبا يدق :

- ولماذا لا يكون ما تقرله مجرد ساعة كعشرات الشائعات  
التي تنطلق من آن لآخر من عساكر السلطان القادمين من  
الشرق والشمال؟

وانفجر الحاج مصطفى ضاحكاً، ثم قال :

- هذا عين ما قاله الفرنسيون . . إنها مجرد شائعات كاذبة،

وسيقطعون لسان كل من يروجها . . وفعلاً قبض برظلمين الملعون على عدد من الأبرياء، وخيروهم بين دفع الفدية أو قطع ألسنتهم . . وهذا، يا زوجتى، ما جعلنى أفكر فى التصديق، ثم جاء شهود عيان من الإسكندرية يروون ما حدث . . وفى أوربا يتحدث الناس عن كارثة البحرية الفرنسية، وفى مصر من يتحدث عنها يقطع لسانه . .

وأرادت زوجه أن تطفىء من حماسه، وفى الوقت نفسه ترفه عن زينب التى شدتها الأنباء الجديدة، فأخذت تستمع فى لهفة . . قالت الأم:

- إنه نصر لا دخل لك فيه . .

- تأين إلا أن تشيرى حفيظتى . . ألم أقل لك إن رجالنا كانوا يرشدون السفن الإنجليزية؟ . . وعلى أية حال، فإن دورنا فى المعركة لم يكن فى صالح الفرنسيين، يكفى أننا لم نؤازرهم، والفلاحون فى البحيرة والصعيد يفتكون بالغزاة المتقدمين فى كل فرصة تسنح . . إن عدم تعاوننا مع الأعداء لا شك كان سبباً من أسباب هزيمتهم الصارخة . .

ثم استطرد بعد فترة صمت:

- وفى يوم الخلاص الأكبر ستكون نهايتهم على أيدينا . .  
إننا نتركهم لتتخطفهم الغربان من كل صوب، ثم نجهز عليهم الإجهاز التام.

قالت الزوجة مداعبة:

- حذار أن تتحدث في هذا الموضوع ثانية.. فلست في غنى عن لسانك، وليس معك ما تدفعه فدية.

قال الحاج مصطفى:

- آه يا زوجتي البلهاء.. الحقائق تصرخ بأعلى صوتها.. الحقائق لا يمكن كتمانها؛ لأنها أقوى من الأسوار والسيوف ويطش الجبابرة..

وانتشت زينب بعض الشيء.. إن الثأر من السفاكين يبرد من حرارة وجدها المشتعل المحروم..



وقع برتلمى فى ورطة، هكذا تؤكد الحوادث الجارية، لكنه يبحث عن حل . . لقد استولت على تفكيره تلك المأساة الفردية، مأساة ابته . . لتذهب جيوش الفرنسيين إلى الجحيم، الذى أشعله الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض . . إنها مجرد معركة واحدة خسرها الفرنسيون، ولم تزل لهم القوة . . مثل هذا الحدث - برغم ضخامته - لا يصح أن يقف عقبة فى طريق مستقبل «هيلدا» .

وشق برتلمى طريقه إلى «بركة الفيل»، قاصداً ديوى . . إنه لا يرتجف هذه المرة، إن لديه من الشجاعة ما يجعله ينسى كل شيء - ولو للحظات - من أجل شرف وحيدهته ومستقبلها، وليكن ما يكون . . وعندما دخل القصر الكبير، قاده مالوس إلى قاعة الاستقبال الفخمة . . كان ديوى يجلس وحيداً وقد ركز خده على قبضته اليمنى، وبدأ عليه أنه غارق فى تفكير عميق، ثم رفع رأسه وكأنه يفيق من حلم، وتمتم :

- طاب صباحك يا برتلمى . .

وتصافحا، ثم جلسا صامتين بعض الوقت، وأخيراً قال  
ديبوى:

- إنى أشم رائحة الغدر من المصريين، والمصائب لا تأتى  
فرادى.

وقال برتلمى:

- إن تحرك المصريين معناه القضاء عليهم، ثم إنهم أضعف  
من أن يجابهوا قواتنا المنظمة الضاربة، ولعل الشىء الوحيد  
الذى أريك خططنا هو نكبة أسطولنا فى البحر الأبيض، ومع  
ذلك فإن مثل هذه الخسارة الفادحة فى الإمكان تداركها، وهى  
تحتاج لبعض الوقت . .

تنهد ديبوى فى حسرة:

- هذا ما يزعمه نابليون، الذى ييدى استخفافاً بالأمر،  
وإن كنت واثقاً أنه أصيب بصدمة نفسية من جراء النكبة.

وسادت فترة صمت، قال بعدها ديبوى:

- هل عندك جديد من الأخبار؟

• - لا شىء يذكر . . مخابراتنا تؤكد أن الشيخ السادات  
يلعب بذيله، إنه رجل داهية، من العسير اجتذابه إلى

صفوفنا، وهو لا يكف عن تعبئة الشعور ضدنا، ومع ذلك فإن رأى سارى عسكر ألا نصيبه بأذى، وأن نكتفى بمراقبته، وإبطال مفعول سموه بشتى الطرق . .

وتوقف برتلمى برهة، ثم قال فجأة دون مقدمات :

- سيدى . . إن ما يشغلنى هو أمر آخر فى غاية الأهمية .

- ماذا تعنى؟

- جنرال ديبوى . . أنت تعلم أن هيلدا ابنتى الوحيدة . .  
وتعلم أيضاً ما أقدمه لجيش فرنسا من خدمات . . وأنت  
كضابط عظيم، ومحارب مشهود له لا يمكن أن تتخلى عن  
نبلك وشرفك العسكرى . .

قال فى دهشة :

- أكاد لا أفهمك يا برتلمى . .

قال برتلمى موضحاً :

- أنت عاشرتها معاشرة الأزواج، وهذا يعنى أنها لا بد أن  
تكون زوجتك . .

وذهل ديبوى، لم يكن يتوقع أن تجرى الأمور على هذا  
النحو السخيف . . إنها فتاة جميلة أحبته، وبادلته الهوى،  
فقضى معها أوقاتاً جميلة دون تحفظ، ودون أية شروط

مسبقة . . لقد سلمت له نفسها دون قيد أو شرط ، وكذلك -  
على ما كان يظن - بدت رغبة أيها . . وفي باريس وإيطاليا  
وغيرهما كان يفعل ذلك لمجرد المتعة . . وقال دييوى فى شيء  
من الضيق :

- كلامك يحمل صيغة الأمر يا برتلمى ، ولهذا أرفضه .

قال برتلمى وقد سال على جبينه عرق غزير :

- عفواً سيدى الجنرال ، إننى لا أمرك ، ولكنى أرجو وألح  
فى الرجاء ، أعلم أن ابنتى لا ترقى إلى مقامك السامى ، وأنه  
زواج قد يكون غير متكافئ ، لكن تصرفك معها قد محا كل  
تلك الاعتبارات المهمة . .

ابتسم دييوى متوترأ وقال :

- لشد ما تأثرت بالشرقين يا برتلمى ، إن هذه مسألة عادية  
جداً فى فرنسا ، ألا تعلم ذلك؟! ومع ذلك فإن الزواج مسألة  
هينة . .

قال برتلمى فى مرح ظاهر :

- شكراً يا سيدى ، هذا ما توقعته ، لسوف أظل أحمل لك  
هذه المكرمة طوال حياتى ، ثم إنه لشيء رائع أن تتزوج ابنتى  
رجلاً عظيماً مثلك . .

وهم برتلمى بالقيام ليقبل يد ديبوى، غير أنه بقى فى مكانه  
حينما سمعه يقول:

- يبدو أنك لم تفهمنى كما يجب يا برتلمى . .

- ماذا يعنى سيدى؟

- أعنى أن فى إمكانى أن أدبر لها زواجًا من أحد ضباطى  
الحديثى السن . . أنت تعلم أنى متقدم فى السن، وليس هناك  
تناسب حقيقى بينى وبينها، إنها مثل ابنتى، والأهم من هذا  
كله هو أنى . . متزوج .

وشحب وجه برتلمى وصاح فى غضب مكبوت:

- ماذا؟ متزوج؟

- أجل، وزوجتى فى باريس . . والمسيحى المؤمن لا يتزوج  
إلا واحدة . .

تساقطت الدموع من عينى برتلمى على الرغم منه، لقد  
انهار تمامًا، ولكنه عاد وأسرع بمسح دموعه، وعز عليه أن  
يبكى . . «لا . . لا يصح أن أبكى . . إن الجبار الذى أذل  
الرجال ومحق المتمردين، من العار أن يبكى . . إن سطوتى  
تعرفها شوارع القاهرة وبيوتها العريقة، وضرباتى الساحقة قد  
تردد صداها فى آفاق مصر والخارج . . وديبوى سأستطيع أن  
أسوي حسابى معه . . إن عجزى هذه المرة عن أن أفعل شيئًا

عجز مؤقت، سوف أتبعه بضربة مأكرة تقضى على ديوى الذى استباح كبريائى وشرفى، وحطم قلب ابنتى . . فإن انتصرت فيها ونعمت، وإن لم أنجح فيكفينى أننى تمرت على عجزى، وحاولت الثأر من ذلك الذئب القادم من وراء البحار . . من ذلك المسيحى (المؤمن) الذى يرعى قدسية الدين، ويرفض الزواج بأكثر من واحدة» . .

وأفاق من شروده على صوت ديوى:

- أعترف أننى شاركت بعض الشيء فى الخطأ، وتحملُ المسئولية أمر لا بد منه، وسأقوم بواجبى كمواطن شريف بالطريقة التى أراها تصلح لذلك . . إننى لم أبعث بالجند بجر ابتك إلى بيتى . . لقد أتت بحض إرادتها . . إننى أمتلك من الجوارى البيض والسود ميراثاً كبيراً تركه لى الممالك . . والنساء كثيرات ويلا ثمن . . أنت تعلم ذلك . . إن هيلدا رائعة الجمال يا برتلمى، ولسوف يركع ضباطى تحت أقدامها، وإنى لأعدك بترقية أى ضابط يتقدم بطلب يدها، وأظن أن ذلك سوف يحدث فى وقت قريب، فلا تحمل همأ . .

ثم استطرد:

- الأهم من ذلك كله أن تبقى علاقتنا على خير ما يرام . . وأدرك برتلمى أن مثل هذا الحادث قد يعكر الصفو بينهما،

وبالتالى سيؤثر على وضع برتلمى كرجل ذى مكانة، وبهذا يفقد شرف ابته بالإضافة إلى منصبه الكبير . . ثم إنه قد بيت فى نفسه أمراً، ولا بد أن يحاول إخفاء نواياه حتى يبلغ هدفه، ثم يبقى على مكانته، ويعثر على الزوج المناسب لفتاته .

واصطنع برتلمى ابتسامة كبيرة، وقال :

- سيدى . . إن مصلحة فرنسا فوق كل اعتبار . . لقد نذرت نفسى قرباناً لحكومة الدير كتوار العظيمة، وللقضاء على كل أعداء فرنسا . . أما مشكلة «هيلدا» فهى فى منتهى التفاهة، ما دمت قد وعدت بحلها بالطريقة التى تراها مناسبة . .

وبدا الارتياح على وجه الجنرال دييوى وهو يستمع لكلماته . . لم يكن يأخذ كلمات برتلمى من قبل مأخذ الجد؛ لأن دييوى يعرف جيداً من هو برتلمى، ولا يخفى عليه أنه عميل رخيص مهما كان الأمر، وإن حسن علاقته به أمر ضرورى لسير الأمور فى مجراها الطبيعى . . فى إمكان دييوى أن يصرق فى وجهه، ويصرخ فيه: «اذهب أنت وابنتك إلى الجحيم» . . لكنه كان واثقاً أنه لا داعى لشيء من هذا القبيل .

وسرعان ما أدار دييوى دفة الحديث :

- كن على حذر يا برتلمى . . افتح عينيك جيداً . . إننى على خبرة تامة بما يحدث عندما يصاب جيش الاحتلال بنكسة . . إن القوى المضادة تتجمع، وتجد فرصتها الذهبية قد حانت . .

قال برتلمى ، وهو يحاول أن يبعد شيخ هيلدا من رأسه :

- أعرف ذلك جيداً الآن ، وقد تم القبض على تسعين رجلاً  
من المماليك الهاريين ، وسوف أنفذ فيهم حكم الإعدام فوراً  
ويفنسى . . إن الضربات السريعة الملاحقة تبعث الرعب فى  
قلوب الشعب ، فيستكين ولا يرفع فى وجهنا سلاحاً . .  
- حسناً . . هذا ما يجب أن يكون .

تنهد ديبوى فى ملل ، وأدرك برتلمى أن وقت الرحيل قد  
حان ، فجمع أشتات نفسه المبعثرة ، وخرج رافع الرأس ،  
شامخ الأنف ، وفى قلبه مراجل من الغضب ثور وتفور  
كبركان هائج . .



وما إن توارى برتلمى عن الأنظار ، حتى صاح الجنرال  
ديبوى طالباً الكابتن مالوس . .

وسرعان ما أتى مالوس وأدى التحية العسكرية ووقف  
جامداً لا يتحرك .

قال ديبوى :

- لا تحاول أن تنكر شيئاً . . أعرف أن هناك علاقة ما بينك  
وبين هيلدا .

قال مالوس فى ذعر:

- سيدى ..

- لا تقاطعنى يا كابتن .. أنا لم أتضايق أو أحزن عندما علمت بالنبا من أحد رجالى .. لقد سعدت أيما سعادة .. وأنا لا أخدعك أو أغررك يا مالوس، ولا أحاول استدراجك ..

- لكنى يا سيدى لم أقدم على شىء من هذا القبيل .. لقد كنت أؤدى عملى بشرف، ودون غرض خبيث فى غيبتك، وعند إصالها لمتزلها، وأقسم على ذلك ..

سدد إليه ديبوى نظرات حادة لا تلين، وقال:

- افهمنى .. أنا لا أريدها .. بل أتمنى التخلص منها على وجه السرعة، وهذا لا يتم إلا بعملية إحلال .. إن الفراغ الذى سأتركه لديها يجب عليك أن تملأه فوراً من أجل المصلحة العليا .. أنت تدرك أهمية أيها بالنسبة لنا، ولهذا أمرك بأن تهروول الليلة إلى بيتها .. إنه أمر واجب التنفيذ، وسأعتبرك قد نجحت فى مهمتك عندما تقطع زيارتها لى .. أتفهمنى؟ ثم إنها فتاة لطيفة رائعة الجمال، وأظنك فى حاجة لأن تقضى معها أوقاتاً طيبة .. لا أريد مزيداً من المناقشة أو الاعتراض، والأحداث يا مالوس

تتحرك بسرعة، وكارثة الأسطول لم تبرد نيرانها بعد،  
ولسنا فى حاجة إلى مشاغل جانبية، أو جبهات داخلية  
نستنفد فيها قوانا، نحن فى حاجة إلى السرعة والتركيز،  
والقضاء على المشكلات الصغيرة . .

كان قلب مالوس يدق . . الفتاة رائعة وجميلة، ولكم تمنّاها  
لنفسه منذ أن رآها، ولكم حلم بها، وتصور لقاءاته معها  
تصوراً دقيقاً ملحاً، لكن الذى يؤلمه ويحز فى نفسه هو أنه  
يتلقف فتات المائدة العامرة التى يتناول عليها الجنرال أطايب  
الطعام . . ومع ذلك فهو جائع، وفى حاجة ماسة إلى  
الطعام . . ولو كان فتات المائدة . . ثم إنه يؤدى دوره بتكليف،  
ومن أجل مصلحة عليا . . وتمتم مالوس وهو يرتجف:  
. - أمر سيدى .

- إن مهمتك ستكون سهلة على ما يبدو . . لقد علمت أن  
الفتاة تميل إليك كل الميل، على الرغم من تحفظك الظاهر . .  
- هذه مسألة ثانوية . . إن ما يهمنى هو أمر سيادتكم .  
وقال ديبوى بصوت هادئ مضطرب على غير عادته:  
- انصرف . .  
فأدى الكابتن مالوس التحية العسكرية، وانصرف . .



كانت زوجة الحاج مصطفى البشتيلي فى أشد حالات التعاسة، إنها تتوقع دائماً كارثة من أى نوع، هذا الإحساس هو الذى يعذبها، ويحيل حياتها إلى جحيم . . . ويبدو أن ذلك كله يعزى إلى اليأس العنيف الذى يخالط مشاعرها وأفكارها، إن هؤلاء الشياطين الفرنسين - بآلاتهم الجهنمية - من العسير أن يهزموا، ذلك ما وقر فى ذهنها، وازدادت تعاستها شدة وهى ترى زوجها يغرق فى جو العمل والاستعداد للمشاركة الفعلية فى ثورة لتدمير قوى الشر والعدوان . . . وكانت توقن أن عاطفة زوجها تطغى على تفكيره، وأنه لا يقدم أمام نفسه حساباً دقيقاً للموقف . . . واهتز زوجها إزاء سؤال محرر ألقته عليه، لقد قالت :

- ألم تفكر فى العاقبة إذا ما حاقت بكم الهزيمة مرة ثانية؟

كان سؤالاً دقيقاً خطيراً، على جانب كبير من الأهمية، هذا ما تبادر إلى ذهنه، ولم تكن خطورته نابعة من خوفه على نفسه

وأسرته، وإنما الذى جعله يفكر هو أثر الهزيمة - لو حدثت -  
على ملايين البشر فى مصر كلها . . وعادت الزوجة تقول :

- العقلاء يفكرون فى احتمالات الهزيمة قبل احتمالات  
النصر .

- أجابها بقوله :

- الحقيقة أنك تتفلسفين بطريقة معقولة .

- لا أعرف الفلسفة، ولكنى أقول ما يختلج فى صدرى .

- حسناً . . لو فكر الفرنسيون فى احتمالات الهزيمة، لما  
عبروا البحار وقطعوا المسافات الشاسعة ليحتلوا أرضنا . .  
أعرف أنك على جانب من الصواب له شأنه، غير أن المعركة  
يجب أن تستمر، والسبب بسيط هو أننا لن نخسر أكثر مما  
خسرنا، ثم إن كرامتنا تأبى علينا أن نستسلم على طول  
الخط . . سنخسر رجالاً وسيخسرون، وستعرض لمزيد من  
الضغط والعسف، هذا أقصى ما يستطيعونه . .

قالت فى شيء من السخرية :

- وهل هناك مصائب أكثر من ذلك؟

قال فى حدة :

- أجل . .

- ماذا؟

- أن نرضى بالهوان! . .

وتركها قاصداً الأزهر . . وقد كان المسجد الكبير في تلك الأيام قلب الأمة النابض ، فيه يلتقى الدين بالدنيا ، وتتبلور آمال الشعب وأفكاره ، بوتقة الماضي والحاضر - كما يقول البشتيلي - ومجلس شورى الأمة ، التنظيم الوحيد الذي يشع بنوره الوهاج في شتى الأنحاء . . وكان للشيخ السادات مكانة طيبة ، دعمها عدم اشتراكه في عضوية الديوان الذي كونه نابليون ليحكم من خلاله ، وليتجنب الكثير من المشكلات ، تحت زيف الشعارات الخادعة .

وفى داخل الأزهر الواسع الجليل ، شعر البشتيلي - كعادته - باطمئنان غريب ، ذلك الاطمئنان الذي يخالج قائداً هماماً وقد أوى إلى قلعة حصينة لا تستطيع أية قوة أن تتخطى أسوارها ، أو تقتحم حماها . . عشرات من الرجال يستعدون للثورة الشاملة ، ولم تكن القيادة لنوع واحد من الرجال ، فقد كان هناك التجار والأعيان وصغار أرباب الحرف والمهن المختلفة ، ولم يكن لقب «عالم» وقفاً على رجال بعينهم تخصصوا في دراسة الدين والعلم ، بل كان العلم مشاعاً ، فكثير من التجار أو أصحاب الحرف يتناوبون خطب الجمعة في الأزهر الشريف .

وتطلع البشتيلي إلى الوجوه الكثيرة التي تشرق بالثقة والأمل، يقرأ في العيون رغبة أكيدة في التضحية والصبر عليها. . . هنا ينسى البشتيلي أى تردد، وينسى تلك «الفلسفات» التي تثرثر بها زوجه، ولا يذكر سوى أنه بين رجال كبار النفوس، يسعد الإنسان بالنضال معهم، ويلتقى بأى مصير مهما كان رهيباً، إن اللفظ يتناثر هنا وهناك، وعديد من الأخبار تملأ رحبات المسجد، واندحار الأسطول الفرنسى يحظى بالجانب الأكبر من التعليق والدراسة، ويفكرون فى المعنى السطحي والعميق فى الوقت نفسه، وهو أن الفرنسيين تجرى عليهم سنن النصر والهزيمة كما تجرى على غيرهم. . . ويدور الحديث عن الضرائب الكثيرة التي أرهقت المواطنين، وتفتيش المنازل، وكسر الدكاكين، واستخراج الخبايا والودائع، والفديات التي تؤخذ من ذوى النفوذ والمراكز، والقروض الإجبارية من أهل الحرف. . .

وتذكر البشتيلي - وهو يرق وسط هذه الحشود - كيف كان برتلمى يقطع رءوس الوطنيين، ويطوف بها فى الشوارع لبت الرعب فى القلوب. . . وتذكر السجون وما فيها من رهائن ومسجونين، وقسوة بالغة البشاعة. . . ثم عاد ينظر إلى ما حوله من مظاهر حية، فتمتم: «ولو. . . إن هذا الشعب لن يموت ولن يستسلم، ولو تحول كل الفرنسيين جميعهم إلى أنماط متشابهة على صورة برتلمى اللعين». . .

ويمضى البشتيلي فى طريقه، ويشتد به العجب وهو يرى  
 ألواناً شتى من أبناء الدول العربية: مغاربة وشوام وسودانيين  
 ويمنيين وحجازيين وعراقيين.. إنهم جميعاً يهتمون بالأمر  
 وكأنه يعينهم بالدرجة الأولى، ويلتقون مع إخوانهم المصريين  
 فى جدل صاحب، ويبدون رغبتهم بالمشاركة فى البذل  
 والتضحية.. ويتمم البشتيلي بينه وبين نفسه: سنضع لهم فى  
 كل حارة متراساً، وسوف يتفجر الموت من تحت أقدامهم أينما  
 ساروا، سيرون شعباً بأسره وقد تحول إلى جيش كبير يمتد فى  
 كل ناحية، ومن الضرورى أن يرى فينا الأعداء أمة صلبة،  
 صعبة المراس، تدافع عن معتقداتها وشرفها وحريتها بكل ما  
 أوتيت من قوة.. ستتفجر اللعنة عليهم لأوهى الأسباب..  
 إننى أرى الجماهير تزمجر وتتوذب ليوم الثأر، ولن تستطيع قوة  
 فى الأرض أن توقف تدفق البركان الهادر.. مرحباً  
 بالموت»..

ورأى البشتيلي أفواجاً من لابسى الأردية القروية يزحفون  
 نحو الأزهر، ويتشرون فى ردهاته الكثيرة الواسعة.. هذا  
 النوع من التجمع التلقائى لا يعنى سوى أن جماهير الشعب  
 ترفض الاستكانة والذل، وأنه يستوى فى ذلك أهل الريف  
 والحضر، والعرب فى مصر وخارج مصر.. ويهمس البشتيلي  
 لنفسه: «مستحيل أن تخذل تلك الإرادة الجبارة. إرادة الحق

الذى ينطلق فى مواجهة الشر، برغم اتساع الفارق بينهما من حيث القوة المادية» . .

والتقى البشتيلى بإخوانه الشوار، وعلى رأسهم الشيخ السادات، وبعد دراسة الأمر من كافة نواحيه، قال السادات:

- «سيروا على بركة الله . . ولينصرن الله من ينصره» . .

وزحف الثوار خارج المسجد الكبير . . كانت الحوانيت فى الشوارع مغلقة، وتجمعات الناس تلفت النظر فى الميادين والشوارع، تلك التجمعات تأخذ فى التلاحم لتكون كتلاً من البشر أضخم وأكبر . . وهدير كالرعد يصم الأذان إنه الطوفان . .

ويدرك أعضاء الديوان مدى الخطر الذى يلوح فى الأفق، فيهرعون إلى الشائرين محاولين تهدئتهم، ومحاولين إيجاد حل سلمى لمظالم الفرنسيين، وخاصة الضرائب الجديدة؛ إذ كانت هى الشرارة التى أشعلت الثورة الشاملة الكامنة فى النفوس، تلك الثورة التى كانت ستنتلق حتماً، حتى ولو لم تفرض الضرائب الجديدة الجائرة . . لكن أعضاء الديوان كانوا فى موقف لا يحسدون عليه، إن الإرادة الشعبية أقوى من منطقهم وتخوفهم، بل إنهم تعرضوا لاتهامات كثيرة تنال من وطنيتهم وإخلاصهم، كان صوت أعضاء الديوان أضعف من أن يوقع أدنى تحول فى مجرى النضال الشعبى العملاق . .

وصاح رجل من غمار الناس لا يعرفه أحد، وإن كان صوته  
قويًا واضحًا:

- يا أعضاء الديوان . . إن مكانكم ليس هنا . . اذهبوا إلى  
سارى عسكر وقدموا له فروض الطاعة والولاء . . إن  
قراراتكم واجتماعاتكم لا تلزمننا بشيء . .

ورد أحد أعضاء الديوان بصوت واهن:

- يعلم الله كم نبغض هؤلاء الغزاة الأنجاس . . فلينصرونكم  
الله وليؤيدكم بقوته التي لا تقهر . .

وسارت الحشود الهادرة تدوس تحت أقدامها أية مقاومة أو  
اعتراض . . وأمام بيت القاضى التركى «أدهم أفندى» توقفوا،  
وطلبوا من القاضى أن يصحبهم إلى نابليون، ليتكلم بلسانهم  
ويعلن تمردهم على الضرائب الجديدة واحتجاجهم على  
تصرفاته الجائرة . . ولم يكن القاضى من السذاجة بحيث  
يجهل معنى تجمعهم حوله، وإجباره على الانخراط فى سلك  
الثورة المنتظرة . . وأدرك القاضى أن الأمر أكبر من الضرائب،  
إنه شيء آخر يعرفه الناظر فى وجوه أولئك المندفعين  
كالطوفان . . وحاول القاضى التركى الإفلات، فتنشرت  
التعليقات من حوله:

- أنت جبان رعديد . .

- أنت لا تمثل الحق الذى تتبناه، ولا الشريعة الغراء التى  
تزعم أنك تحكم بها . .

- أنت تمثل السلطان فى تخاذله عنا . .

- أنت متخلف عن الجهاد . .

- لست قاضيًا، وإنما أنت أشبه ما تكون بشاهد الزور  
المأجور . .

كلمات كثيرة كوقع السياط تنطلق من هنا وهناك، وعلى  
الرغم من بساطتها، إلا أنها كانت تمثل - فى رأى البشتيلى -  
محاكمة عابرة للقاضى التركى وأمثاله . . ولم يطل الموقف  
بهم؛ إذ سرعان ما أصدرت الجماهير الشائرة حكمها،  
فضربوا القاضى ورجاله، وصادروا ممتلكاته وتركوه مجرداً  
من كل مجد أو مال أو كرامة . . فارتدى جانب الطريق واهن  
القوى، ينظر إلى الزحف الباسل فى عجز ويأس وأسى .

ولم يكن هناك من أمل فى أن يتجهوا إلى سارى عسكر . .  
إن المقاومة المسلحة هى الحل بالنسبة لقوة غاشمة لا تدعن لحق  
أعزل . . وظهرت السيوف والبنادق، وأخذ الرجال يسارعون  
بإتمام المتاريس، وخوض المعركة . .



اندفع برتلمى فى عجلة إلى حجرة هيلدا وقال :

- معذرة يا عزيزتى . . لسوف أبادر بالذهاب إلى ديبوى ،  
إن نُدر العاصفة قد بدت فى الأفق . .

قالت ساخرة :

- عندما تصل إلى ديبوى أبلغه تحياتى . . ثم لا تنسَ يا أبى  
أنى فى انتظار مالوس الليلة . . لكم سعدت بلقائه بالأمس ،  
إنه كالحمل الوديع ، يتحمل كل ما أرميه به من نقد لاذع .

ودهش أبوها لسخرياتها ، كان يتوقع أن تسأله عن  
العاصفة ، وعن الأحداث المهمة التى توشك أن تأخذ مكانها  
على مسرح القاهرة . . يبدو أن الإكثار من الخمر قد جعلها  
تهرف بكلمات غير مناسبة فى بعض الأحيان ، ومع ذلك فقد  
قال محاولاً جرّها إلى ما يهمه :

- سيظل الأزهر مصدراً للمتاعب ، إن زعماء الثورة قد

اتخذوه مقرأ لهم، وألبوا علينا الجماهير، وهذه حماقة لا تغتفر، لسوف نهدمه على رءوسهم إذا اقتضى الأمر..

قالت هيلدا وهي ما زالت مضطجعة على سريرها.

- أيضاً يبقكم أن يثوروا؟

- بالطبع.. هذا عين الجهل وسخف التصرف.

تمت:

- ومن في مقدوره أن يرى تصرفات ديوى وأمثاله ثم لا يثور؟.. لو كنت في مكانهم لما فعلت غير ما فعلوا.. دائماً يا أبى تنظرون إلى الأمور من وجهة نظر شخصية، ولو نظرتم إليها من وجهة نظر الآخرين لوجدتم لهم ألف مبرر.

قال برتلمى:

- عزيزتى.. الموقف خطير، وأرانى مضطراً للانصراف على عجل.

- ومالوس؟..

- أظنه لن يستطيع الحضور الليلة..

- إذن فسأقضى ليلة تعسة..

- ماذا جرى لك يا هيلدا؟ إنك تنسين أننى أبوك، وأن

هناك أسلوباً لائقاً لا بد وأن تخاطبيني به . . وانصرف غاضباً، بينما قالت هيلدا لنفسها: «اللعة على الجميع . . لتشتعل النار في كل مكان، وليكن ديبوى ومن معه حطبا لها . . لم أعد أشعر بالشفقة على أحد، إلا أولئك المساكين المظلومين الذين تجرونهم بالحبال، وتقطعون رءوسهم، وتذفون بهم خلف الأسوار، وتتصرفون معهم وكأنكم آلهة لا راد لمشيتكم . . أيها السفلة» . . .



التقى برتلمى بالجنرال ديبوى، فوجده هو الآخر مضطرباً حائراً . . إن الاستسلام والصمت يسودان القاهرة، قد انقلبا فجأة إلى شر مستطير يهدد بالأخطار الشديدة، ولم يكن برتلمى بمستطيع أن يخفى حقه على الشيخ السادات وزملائه، فضلاً عن أن إلقاء التبعة على الشيخ يخلي برتلمى من المسئولية، ولا تجعل توقعاته السابقة في موضع للسخرية والهزاء، ولهذا قال:

- إن السادات سبب هذه النكبة .

قال ديبوى:

- السادات وحده ليس شيئاً، إن الذين يسرون خلفه، ويلتفون حوله، ويستمعون لأوامره من عامة الشعب هم كل شيء . . .

- بالتأكيد هو العقل المدبر لكل هذا، ومع ذلك فإنني واثق أن مجرد ظهورنا وسط هذه الجماهير سوف يشتتها، ويمزق الرابطة بينها، إنهم أجبن مما تتصور. . . هيا بنا قبل أن يستفحل الأمر ونعجز عن تداركه.

قال ديوى فى ضيق:

- حسناً، لسوف أسير معك إليهم، هذا ما يراه نابليون هو الآخر، لكنها مغامرة قد تكلفنا الكثير. . .

وخرج الجنرال ويرتلمى ومعهما عدد من الضباط والجنود راكبين جيادهم، مسلحين بالبنادق، وانطلقوا مسرعين نحو «الغورية»، وفى منتصف المسافة بين الغورية وبين القصرين، كانت جماهير الشعب تتزاحم وتهدر هاتفة فى وجوه الفرنسيين، ملوحة بالسلاح والعصى، والغضب يزار فى عيونهم وعلى سحناتهم الحائقة. . . ولم يفت ديوى أن ذلك هو الوجه الحقيقى للثورة، فرأى أن يعودوا أدراجهم حتى ينجوا بأنفسهم، وحتى يكملوا استعدادتهم، غير أن برتلمى رفض ذلك بشدة، وقال:

- إننى أعرفهم منذ سنين وهم أجبن مما تتصور. . . إن مجرد ظهورنا بينهم سوف يذيب شجاعتهم، ويبدد كل مقاومة لديهم.

ومضى ديبوى فى طريقه متوجهاً، كانت خطوات حصانه أبطاً، واندفاعه أقل . . . وتذكر برتلمى فجأة ما حدث لابنته المسكينة، وكيف قسا عليها ديبوى فى استهتار غريب، لم يرحمها ولم يأبه لكرامتها . . . وتمنى برتلمى فى تلك اللحظات أن تنطلق رمية طائشة فتحطم رأس ذلك المغرور ديبوى . . . إن علاقته بها قد فترت على الرغم من محاولات برتلمى المتجمدة لمحو آثارها ما حدث من جراء ابنته، لكن الشوائب قد عكرت صفو اللقاء بينهما، تلك الشوائب التى لا تُرى ولكن يحس بها قلب كل منهما، مثل تلك العلاقة المتوترة المشبوهة يجب أن يوضع لها حد . . . ودق قلب برتلمى فى عنف، ورفع غدارته صوب الجماهير المحتشدة التى تعترض الطريق، ثم أطلق الرصاص . . . وكانت طلقته كعود الثقاب الذى أشعل فتيل الانفجار الضخم، فأحاطت الجماهير بهم، وأحذق الخطر بديبوى حكمدار المدينة والذى يعرفه الجميع، بينما أخذ برتلمى يروغ هنا وهناك، وكان ديبوى مضطراً لأن يقاوم باستماتة . محاولاً دفع تلك الأمواج البشرية التى تحاول الفتك به، ولكن هيهات، فقد انقضَّ عليه أحد الثوار وغيبَّ خنجره فى صدره وهو يصيح .

عندما سقط ديبوى حدث هرج ومرج شديدين، وتصايح الثوار بأن الجنرال الكبير قد سقط على الأرض، فاشتعلت حماسة الجماهير، وفرَّ الفرنسيون هاربين، ثم عادت مجموعة

كبيرة من الجنود الفرنسيين ومعهم طبيب من أطباء الحملة،  
لكن الوقت قد فات، وانتهى ديوى . . .

تنهد برتلمى فى ارتياح، ولمع فى عينيه بريق الشماتة، وإن  
تظاهر بالحزن والسخط، وأخذ يردد ويهدّد، ويطلق  
الرصاصة هنا وهناك، لكن حى الأزهر قد احتشد بما يزيد على  
خمسة عشر ألفاً من الثوار الذين أخذوا يفدون من كل مكان،  
واكتظت بهم الحواري والأزقة والشوارع الكبيرة . . وأصدر  
نابليون أوامره .

- يجب أن محاصروا القاهرة، حتى تقطعوا عنها المدد،  
وتمنعوا دخول العربان وأهل القرى إليها . . لقد قتل الثوار  
الكولونيل سلكوسكى هو الآخر، وضحايانا يزيدون كل  
لحظة، والثوار يُبدون مقاومة لم تكن منتظرة . .

وعاود أعضاء الديوان، وعلى رأسهم الشيخ المهدي  
والشرقاوى والبكرى، الاتصال بالثوار لصرفهم، ودرء  
المخاطر المرتقبة، لكن هدير الجماهير كان أقوى من أى رجاء،  
وأبسل من أى منطق، فولّوا مذعورين مخافة الموت . . بينما  
وقف الفرنسيون على مقربة من الثوار، وهم فى حيرة كبرى  
وخوف شديد . . وأخيراً حضر برتلمى وفى يده آخر تعليمات  
سارى عسكر نابليون، وأخذ يقرؤها فى شماتة واحتداد:

- «عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين، وأن تضربوا الأزهر بالمدافع، ولتكن المدافع فى أصلح موقع، ليكون الضرب أشد أثراً. . بلغوا الجنرال «دومارتان» أن يفعل مثل ذلك، وأن يستولى على مدخل الأزهر، والمنازل الموصلة إليه، وعليكم أن تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع. . والقائد العام يأمر بأن تقتلوا كل من تلقونه فى الشوارع المسلحة، وعليكم أن تعلنوا للأهالى بأن كل المنازل التى تلقى منها الحجارة تُحرق حالاً بالنار، ويُعفى عن المنازل الأخرى، وعليكم أن تقتلوا كل من بالمسجد، وأن تضعوا فيه حرساً قوياً من الجنود» . .

وعند الظهر انقذت القنابل من فوق جبل المقطم، وأخذت تتساقط بعنف وكثرة على الأزهر والصنادقية والغورية والقحامية، فحوّل الحى إلى ما يشبه الخرابات، وكاد الجامع ينقض على كل من فيه. .

ووقف برتلنى منتصب القامة ينظر بعين الشماتة والحقد إلى الأبنية التى تهدم، ومئات القتلى والجرحى الذين يسقطون. . وأحنقه أن كثيرين لا يتوقفون عن التقدم بعد الإصابة فهم يظنون يزحفون بقواهم الخائرة وأقدامهم الكليلة، نحو التلال التى توضع عليها المدافع، ونحو الأماكن التى يحتشد فيها الفرنسيون، وكان يعجب لهؤلاء البشر الذين يقاومون فى استماتة على أرض معركة ميثوس منها، ولم يكن ليستريح إلا

إذا أطلق غدارته صوب نائر جريح يترنح كى يجهز عليه، حتى الشهداء الذين يتساقطون لم يكونوا ليرووا غليله، كان يشعر أنه متعطش دائماً إلى مزيد من التدمير والقتل والدم . .

كانت الساعة قد شارفت الثامنة من مساء ذلك اليوم المشهود، وتطلع الحاج مصطفى البشتلى حواليه بعد أن نفذت ذخيرته، وصمتت بنديته الصدئة، إنه يرى الضحايا الكثيرين وقد توسدوا التراب هادئين، لا يابهون للضجيج القاتل الذى يصم الآذان، والدماء المتجمدة تمازج التراب الحزين، والأنقاض - برغم الظلمة - تمتد فى كل ناحية، وأصوات النساء والأطفال تبلغ مسمعه، فتسكب دموعه الغزار . . وتذكر ولده الحسين آنذاك، وسرعان ما شعر بالخجل، إن هؤلاء الشبان الذين فقدوا الحياة أو يثنون من هول الآلام المبرحة كلهم أبناءه . . وتحامل البشتلى على نفسه، كان يفكر فى الذهاب إلى الشيخ السادات . . لكنها لحظات حرجة، عليه الآن أن يشق طريقه وسط الموت والكماثن؛ لعله يستطيع الوصول إلى بيته، فقد يأتى يوم آخر يكون أحسن حظاً من هذا اليوم . . أجل، لسوف يلتقى بزوجه، وستسد إليه نظراتها العاتبة، وستعيد على مسمعه ما قالته قبيل نشوب الثورة، فهل فى إمكانه أن يردّ عليها ويقنعها كما كان يفعل كل مرة؟ ولسوف تسأله عن ولدها الحسين والدموع تغرق عينيها، أترأه يأوى إلى عزلته من جديد، مستسلماً لليأس والألم؟! أترأه

يفقد وحيداً كما فقد صهره بالأمس؟؟ وماذا سيفعل الفرنسيون بعد هذه النكبة القاسية؟! وماذا سيكون أثرها على سكان القاهرة؟ لقد سمع أحد الثوار يقول منذ لحظات :

- لقد خسرتنا المعركة هذه المرة أيضاً . . . وعلينا أن نسارع بالهجرة إلى السويس ، إن الفرنسيين لم يحتلوها بعد . . . لو بقينا هنا لفتكوا بنا عن آخرنا ، وفي السويس نستطيع أن نقاوم الغزاة الذين سيقدمون صوب الشرق .

وفكر البشتيلي ، أيمن أن يفعل ذلك ، وهو الذي رفض الهروب والهجرة وندد بالمهاجرين على رؤوس الأشهاد؟ لا . . . مستحيل أن يحدث ذلك . . . وحانت منه التفاتة ، فرأى أعداداً ضخمة من فرسان العدو تنحدر نحو مبنى الأزهر الشريف . . . إن بقاءه في مكانه معناه الموت . . . وأسرع إلى زقاق قريب . . . لقد نجا من الموت في المعركة لحكمة يعلمها الله ، فلا يصح أن يسلم نفسه هكذا بلا معركة لأيدي العدو كي يفعلوا به الأفاعيل . . . وأخذ يتسلل من زقاق إلى زقاق ، ويشب من سطح إلى سطح . . .

وقبيل الفجر كان على شاطئ عند بولاق . . . واقترب في حذر من منزله . . . وحينما دفع الباب وجد عيون زوجته وابنته محترقة من الدموع والخوف والعذاب . . .

تمتم وهو يدلف حزينا إلى الداخل :

- «هذا أمر الله» . . .

وترتمى المدينة العظيمة جريحة القلب والجسم، تكتم  
 الأنين، وتجتز الأسي الدامي، وأثار الخرائب والدمار والدماء  
 كثيبة المعالم، وقوات الغزاة تفتحم الحصون، وتجوب  
 الأحياء الشائرة، تقتل كل حامل للسلاح، وتنكل بالشيوخ  
 والشباب، وتدهم البيوت كي تنهب ما فيها، وتبحث عن  
 الثوار أينما كانوا، والناس بين هارب خارج القاهرة، أو لائذ  
 في بيته لا يريم ينتظر المصير المجهول، ما أقسى الانتظار  
 الوجل الذي يجهل ما تخفيه طيات المستقبل . . ويرتلمى  
 الرومي ينطلق كالشيطان هو ورجاله من العسس يقبضون  
 على الناس لمجرد التشبه، ويطيحون بالرءوس إذا ما ثبت لهم  
 اشتراك الضحية في الثورة، والمدينة الحزينة مستسلمة  
 للقضاء، وعلى الرغم من استسلامها وجراحها، والرعب  
 المنتشر في نواحيها، إلا أنها لم تفقد الأمل كلية ﴿ قَالَ مَنْ  
 يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨].

أما الأزهر فيا لهول ما رأى!! إن أوامر نابليون تنفذ بحذافيرها، الخيول تقتحم البوابة الكبيرة، والجنود يتخذون لهم مرابط في القبلة الشريفة، والأيدى القذرة تدهم الطلبة في أروقتهم فيجردونهم من المال، والمتاع والطعام، ويدوسون بأحذيتهم كتب العلم والمصاحف، ويشيرون الفوضى والاضطراب في أرجائه، كل شيء قد هان في أعين الغزاة الخبثاء، حتى المقدسات..

وهنا يتأكد للجميع أن دعاوى سارى عسكر عن الحرية والعدالة والإخاء والمساواة، أكاذيب لا تسندها الوقائع، وأن زعمهم بأنهم جاءوا لتخليص الديار المصرية من عسف المماليك، ادعاء باطل لا يقوم على أساس، وأدرك الناس للمرة الثانية، أن لا حرية في ظل احتلال، ولا عدالة مع الجشع الاستعماري، وأن المعركة لا بد أن تستمر برغم ألوف الضحايا..



وكان برتلمى يتحرك في يقظة وشماعة، لا يستطيع أن يخفى فرحه الشيطاني، ولم لا يفرح؟! لقد نال من السلطة ما يجعله يحكم في أمر الحياة والموت على هواه، إن أرواح البشر على كفه يلهو بها كيفما شاء، وامتلاك مصائر الناس أمر يبعث على النشوة والغرور، ويغرى بالقسوة وإشباع الرغبات

الشريرة . . ويرتلمى فى حاجة ملحة ودائمة إلى الانتقام، إنه من ذلك النوع من الرجال الشواذ الذين لا يظهرون فى الأوقات الطبيعية، إن لهم توقيتاً وظروفاً معينة، أمثال برتلمى يوجدون حيث يوجد الانحراف والقسوة واحتقار المثل الإنسانية الرفيعة، وفى غير هذه الظروف العصبية لا يكون أمام أمثال برتلمى سوى التحول إلى انحرافات صغيرة كاللصوصية والعبث والاستقلال . . أجل، إنما تلهو الشياطين حيث الانكماش الوحشى للإنسان . . ولم لا يفرح برتلمى، وقد استطاع أن يجد الفرصة الرائعة التى يرى فيها «الجنرال ديبوى» ملقى فى زقاق ضيق تنزف من صدره الدماء، والشحوب يسود وجهه المتغطرس، ونظرات الكبرياء تنطفئ فى عينيه المتبججتين، والعجز يشله عن الحركة وإصدار الأوامر؟ . . لتفرح صغيرتى الحبيبة هيلدا، فإن الصفحة القاتلة التى تلقاها ديبوى تشفى الغليل، وتخفف من آلام جراحها النفسية . . لتفرح حبيبتي هيلدا، لأن أباهما قادر على أن يثار، وأن يتصدى لكل قوة تحاول النيل من كبريائه» .

ولم لا يفرح برتلمى، وهو يرى كبار الأثرياء والتجار يقدمون له الهدايا والهبات، ويسكبون فى أذنيه ترانيم الرجاء والشفاعة، هؤلاء الذين لم يكن فى استطاعته - قبل مجيء الحملة الفرنسية - أن يحظى بمجرد الجلوس معهم؟

ولم لا يفرح، وقد أمكنه الله من أعدائه، يفعل بهم ما شاء  
دون حسيب أو رقيب؟ ..

وينظر برتلمى وهو راكب على جواده، ومن حوله رجاله  
المسلحون، ينظر إلى طوايير الأسرى وهى تساق عنوة إلى  
مصائرهما المجهولة، وعيون النسوة خلف النوافذ تنظر وتذرف  
الدموع، وتسكب الأنين.. يا لها من مشاهد مؤثرة تحرك  
مشاعره بالنشوة، وتملؤه بالفخار! .. فيصرخ بهم كى يسرعوا  
فى السير، ويهتف برجاله أن يلهبوا ظهورهم ووجوههم  
بالسياط، فإذا ما أبدى أحد الأسرى تأفقا أو اعتراضا، فليس  
هناك عقوبة عاجلة سوى الموت.

\*\*\*

وعاد برتلمى فى المساء.. أفسح له الحرس الطريق، وأدوا  
التحية للرجل الذى يستمتع بأبشع شهرة فى القاهرة.. وصاح  
وهو يلقي بجسده على أقرب أريكة:

- هيلدا.. هيلدا.. أين أنت يا حمامتى الصغيرة؟

قدمت مترنحة، وقالت فى تعثر:

- ألم يتت سفك الدماء بعد؟

- لا أعتقد، إنه ضرورة يا حبيبتى..

- ضرورة؟!!

- أجل ، لا بد أن يموت بعض الناس ليسعد الآخرون .  
- لكن الموت بشع ، والسعادة فى جانب يقابلها الشقاء فى  
جانب آخر .

- إرادة الله يا فتاتى . . كالليل والنهار ، وماذا كنا نفعل ؟  
نربت على ظهر الثوار ، وننحى لإرادتهم ، ونفتح صدورنا  
لرصاصهم ؟! أظن أن هذا بلاهة .

قالت متسائلة :

- ولم لا نبحث عن سبب لثورتهم ؟؟

قال ضاحكاً :

- وهل هناك من سبب سوى غيائهم وغرورهم ؟

- ربما يكونون أصحاب حق . .

- دعك من هذه المثاليات الفارغة . . إنهم يشكلون من  
الضرائب ولا يفكرون فى أن الجنود والحكومة فى حاجة إلى  
مال ، وينددون بالغزو ، وهذه حكاية قديمة يرددها كل  
شعب مهزوم . . يجب أن يفهموا أن القوى هو الذى  
يحكم . . أجل . . القوى هو الذى يستطيع أن يحكم ،  
سواء أكانت رغبته فى قرية أو مدينة أو دولة . . هكذا الدنيا  
منذ أن خلقها الله ، والاعتراض على ذلك اعتراض على  
مشيئة الله . .

واستطرد غامزاً يا حدى عينيه :

- ثم لا تنسى يا حبيبتي أن الشوار قتلوا ما يقرب من مائتين وخمسين من رجالنا، وقتلوا سلكوسكى و... و... ديوى..

قالت فى غيظ :

- أجل ديوى..

ردّ فى استبشاع مصطنع :

- الجنرال ديوى العظيم المسكين.. لقد قتله الغوغاء فى زقاق حقير.. لشدّ ما أسف نابليون لمصرعه.. إن له تاريخاً ضخماً.. أليس مما يحق ويثير أن تنتهى حياة هذا القائد الهمام على يد صعلك مجهول من سكان القاهرة؟ هذا الصعلوك لم يعرفه أحد، ولن تذكره كتب التاريخ..

وصمت برهة، ثم عاد يقول :

- الحقيقة أننى أسفت عليه، على الرغم من حماقته وغروره.

قالت هيلدا :

- لكن إطلاقك الرصاص يا أبى هو الذى عرضته للتهلكة.

أجابها بقوله :

- هذا تحليل متحيز للأحداث، لو كان الأمر كما تقولين لقتلت

---

أنا مكانه . . لكن إرادة الله يا عزيزتى فوق إرادتنا، فلربما كان فى مصرعه حكمة عليا تخفى علينا . . والأقدار تنتقم يا هيلدا .

نظرت إليه فى دهشة :

- أعتقد ذلك؟ إن الأقدار ليس لها مشاعر متشابهة للبشر،  
فهى لا تحقد ولا تتأر . .

وتغير وجهه برتلى، وبرقت عيناه فى شماته وقال :

- يكفى أن هذا الوغد الغادر قد جعلك تقضين الليالى  
المسهدة الحزينة من جراء الخديعة التى أوقعك فى شباكها، أنت  
لا تعلمين الكثير عما كنت أعانيه من عذاب وشقاء، لا أنكر  
أننى سعدت لمصرعه، لكن سعادتى كان فى الإمكان أن تكون  
أعظم وأكبر لو اعتصرت عنقه بيدي .

وهز رأسه ثم استطرد :

- ومع ذلك فالنتيجة فى الحالتين متقاربة . . أليس كذلك؟

قالت وهى تصب كأسين من الخمر :

- وهل أصاب مالوس مكروه؟

أجاب مطمئناً :

- إنه بخير، وأعتقد أنه قد يفرغ من أعباء العمل بعد يومين  
على الأكثر . .

أعرف أنك كنت تقاسين الكثير من الوحشة والفراغ أثناء الثورة، لكن الضربة القاصمة السريعة قد قضت على الشر، وأعادت إلى المدينة وجهها الهادئ، وسيصبح كل شيء على ما يرام.

وتذكرت هيلدا ديوي من جديد وقالت:

- إن قتل ديوي لم يؤثر في نفسي، لم يختلف الوضع، كانت حياته تعذبنى، وأصبح موته لا يفرحني. . كل شيء كما هو، ومع ذلك فإن ديوي باختصار، ما هو إلا عنوان لقصة مبتذلة. . أنا وأنت وهو شخصيات تعسة فيها. . والحقيقة يا أبى، أن ما أشعر به غريب غاية الغرابة. . تصور أننى أفكر فى الماضى يا لحاح. . لقد كنت آنذاك سعيدة. . كان بيتنا متواضعاً، وكان حانوت الزجاجات الذى نبيع فيه يدر علينا بعض الدخل الإضافى. . وكنا مندمجين مع طوائف ليست من علية القوم على أية حال. . أما اليوم فها هو القصر والحرس ومنصبك الضخم والسلطة والمال والفرنسيون. . ومع ذلك فإن هيلدا اليوم أتعس كثيراً من من بنت فرط الرمان. . هيلدا الأمس كانت مرحة طروباً لا تعرف القلق ولا الخمر أو الأرق. . صدقنى يا أبى، لو خيرت بين اليوم والأمس لاخترت الأمس. .

كان أبوها ينظر إليها فى دهشة، كان على النقيض منها تماماً . . لكم تمنى أن يبصق على الماضى بكل ما فيه، أن يدوس الذكريات المرة، ويسحقها دون رحمة كما يسحق الرءوس المتمردة، ولو خطر بباله أن يكون على غرار فتاته فى التفكير، لأصابه الجنون . .

قال برتلمى مخاطباً ابنته :

- أنت حاملة . .

- هذا ما أحسه دون زيف . .

- ليس الأمر مجرد إحساس، يجب أن تفكرى .

- كلما فكرت زاد إيمانى بإحساساتى القلبية، وزادت تعاستى، ولهذا أحاول أن أهرب . . أن أنسى . . لقد علمتنى يا أبى كيف أغرق أساى وأحزانى فى كأس الخمر . . أتعرف أن مالوس هو الآخر لا يختلف عن كأس الخمر؟ . . إن هذه المحاولات تجعلنى أعبر رؤى حاملة هادئة بعض الشيء، وإن انتابتها الوسوس والغيوم . .

قال متضحكاً :

- يا لك من قاسية يا هيلدا . . وإنما تنسين واجبك كربة بيت نحو أبيها المرهق المتعب . . أريد كثيراً من الطعام والشراب . .



لقد توقفت المقاومة، وعاد الجرحى والمغلوبون على أمرهم إلى دورهم يضمدون جراحهم، واجتاح المدينة رعب «ما بعد المعركة»، لعله في كثير من الأحيان أقسى من المعركة نفسها، إن الغالب في تلك الأوقات يملئ إرادته، وينكل بأعدائه وقد صممت مقاومتهم، والأنباء تسرى في كل مكان.

برتلمى يسوق الناس إلى السجون . .

برتلمى ورجال العسس يذيقون الثوار ألوان العذاب . .

برتلمى ينفذ أحكام الإعدام بنفسه . . حتى في النساء! . .

وحى بولاق يرقد على شاطئ النيل يتزف دماً وعذاباً . .

والحاج مصطفى البشتيلي قد اختفى عن العيون داخل بيته، فاطمأن قلب زوجته، وخاصة بعد أن عاد الحسين هو الآخر دون أن يُصاب بغير خدوش قليلة في بدنه لا خوف منها ألبتة . . وكان معنى هذه الجروح خطيراً غاية الخطورة . . إنها

دليل الإدانة والاشتراك في الثورة . . ومن ثم أصرت أمه على أن يرحل إلى بيت عمومته في قرية بشتيل بالجيزة؛ حتى تلتئم جروحه ويفلت من غضب برتلمى ورجاله الذين لا يرحمون . ولم يجد الحاج مصطفى بدأ من الموافقة ، لقد علمته الأيام والأحداث أن الحيلة واجبة في مثل هذه الظروف . . وتنهدت الأم في ارتياح بعد أن عبر الحسين النيل إلى بشتيل ، لكن ارتياحها قد انقلب إلى قلق بالغ ، وهي تسمع الأحذية الثقيلة تدق باب بيتها في عنف . . وتتم الحاج مصطفى :

- لقد جاءوا .

هتفت الزوجة وقد شحب وجهها :

- من تقصد؟

سدّد إليها نظرات لا تطرف وقال :

- أنت تعرفين . . برتلمى ورجاله . .

ودقت على صدرها مرتاعة :

- مستحيل أن يحدث ذلك ! . .

وتوالت الطرقات العنيفة ، وانفجرت زينب باكية ، وقد انتابها الانهيار العصبي ، وخطا الحاج في صمت وإصرار نحو باب البيت ، وفتحته . . الوجوه الخائنة اللعينة ترمقه في ريبة ،

والحقد ينطلق مع شعاع النظرات الآثم . . وامتدت يد لتمسك  
ببخناقه وتجره في غلظة، الحاج يبتسم ابتسامة شاحبة حزينة،  
تنبى عن العجز الفاضح، عن مأساة الإنسان الحر يتجرع كأس  
الذل والهوان، وتمتم الحاج:

- لا داعى لكل هذا . . إني أت معكم .

- ستساق كالكلب الحقير! . .

لم يعلق الحاج بشيء، وما جدوى الرد؟ المتصر يضع  
الصفات والأحكام حسبما يرى ويلصقها بالمغلوبين،  
والمغلوبون لا بد أن يكونوا حقراء أذلاء خونة، والمتصرون هم  
دائمًا الشرفاء الفضلاء العادلون . . إن كلماتهم وأحكامهم  
مقدسة لا تشوبها شائبة . . ورنث على قفاه صفة لم يشعر لها  
بألم جسماني، وإن شعر بها كخنجر مسموم يخترق قلبه  
الكبير، وركلة أخرى أصابت بطنه فشعر بدوار، كاد يسقط،  
لكن قدميه تسييران بقدره قادر، لم يسقط، إن قلبه يدق  
بسرعة، ووعيه الكامل يعود . . إن كثيرين يهرولون في الشارع  
تحت سياط العسس وكلماتهم البذيئة، وبرتلمى يتقدم  
الموكب، والعيون الفضولية تتحسس الطريق إليه في وجل،  
وُساق الحاج مصطفى لينضم إلى طابور طويل موثوق  
بالحبال، ويستدير برتلمى، ثم يرفع سوطه إلى أعلى ويهوى

على وجه الحاج مصطفى، ويصرخ بلكته المقيمة التي يعرفها  
أهل القاهرة..

- أنت أحد المتمردين الحقراء.. هذا ما يبدو على  
وجهك..

ويهمس الناس في الشارع الكبير: «فرط الرمان يضرب  
الحاج مصطفى.. المهانة!! مسكين إنه رجل إحسان وعطف  
ومروءة.. لكنها إرادة الله.. نحن في آخر الزمان، لقد ذهبت  
أيام الفضيلة والكرامة»..

وتثور الدماء في رأس الحاج مصطفى، ويكاد يعجز عن  
رؤية أي شيء أمامه، ستار أحمر يقف حائلاً بينه وبين المشهد  
المؤلم، هذا الستار لا وجود له أمام الناس بالتأكيد، لكن الحاج  
مصطفى يراه.. ويتنهد الحاج في أسى، ويمضي في الطابور  
الذليل رافعاً رأسه قدر ما يستطيع، لكن كلمات حلوة تنسكب  
على قلبه المشتعل «كل شيء يهون في سبيل الله.. كل شيء  
يهون من أجل الوطن وحرماته.. الصبر طيب يا فرط  
الرمان».

كان الطريق إلى القلعة شاقاً مريراً طويلاً، الناس في  
الطرقات يرون الموكب الذليل، فمنهم من يفر، ومنهم من  
يذرف الدموع، ومنهم من يدق الأرض بعنف معلناً احتجاجه

العاجز . . و النسوة فى النوافذ والمشربيات قد تقرحت  
جفونهن لهول ما يرين كل ساعة، والحاج مصطفى يلهث  
ويجرى تحت السياط الحارقة، والوجوه اللعينة فى كل مكان،  
والمدافع منصوبة موجهة إلى ضمير الإنسان وشرفه . . ولدى  
باب السجن الكبير حط الموكب التعس رحاله . . . شباب  
وشيوخ ونساء . . . وعندما دلف الحاج إلى الداخل، غمرته  
سكينة من نوع غريب، لقد قال لنفسه:

- «الأمر أهون مما يتصورون . . ما العمر؟ إنه حيز زمنى  
محدود . . له نهاية، لا يوجد فرق كبير بين أن تكون النهاية  
اليوم أو غداً . . لقد استطعت أن أؤدى بعض الواجب، ولا  
شئ يقلقنى سوى أن هؤلاء الأوغاد ما زالوا يتحكمون فى  
مصائر العباد، لكنى واثق أن ذلك لن يطول أمده» . .



كانت الزنزانة التى أدخلوه فيها شبه مظلمة، تفوح منها  
رائحة منفرة، يسكنها تسعة من الرجال، على الرغم من أنها لا  
تسع لغير ثلاثة، وتكوم شديد، والأنف تكاد تختق، والظما  
يكاد يقتلهم، هنا لا شئ اسمه الإنسان، كل القيم الكبيرة  
العريقة تذبل وتحتضر، والناس لا ينظر إليهم فى مثل هذا  
المكان إلا كحيوانات لا قيمة لها، ولا فائدة منها، ولا ينادى

على أحد باسمه إلا في الأوقات العصيبة . . وقال أحد  
التعساء . .

- أيها الرجال . . إننا هنا لا نستطيع أن ننام أو نقضى  
حاجتنا . . لم أكن أتصور أن هناك شيئاً ألعن من الموت، وها  
أنا أراه . . أيمن أن نبقي هكذا طويلاً؟ . .

ولم يكده يتتهى من كلامه حتى فُتح الباب، وكان قد مضى  
عليهم في هذا الجحر أكثر من خمس عشرة ساعة، وصاح أحد  
رجال برتلمى:

- هذا هو طعامكم . . .

كمية لا بأس بها من كسرات الخبز، إنها بقايا طعام الجنود،  
فتلقفها الرجال ثم وضعوها في كومة بينهم، وامتدت أيديهم  
الكثيرة تتناول لقيمات تسد الجوع القاتل . . وعاد أحد الرجال  
يقول:

- لا أستطيع أن أبتلع الطعام . . نحن في حاجة إلى ماء . .  
أنا لا أطيق هذا العذاب . . لا بد أن أدق باب الزنزانة ليحضروا  
لنا ماء . .

قال آخر:

- إنك تقدم على عمل طائش قد يكون سيء العاقبة . .

فلم يلتفت إلى كلامه، وأخذ يشق طريقه بصعوبة نحو الباب المغلق، وقبل أن يهوى بقبضته على الباب، تنهى إلى أسماعهم صوت استغاثة وضراعة، وتسمّر الجميع في أماكنهم، وتتم الحاج مصطفى.

- ما هذا؟

قال أحد الرجال الذين قد مضى عليهم في الزنانة ثلاثة أيام:  
- لقد بدأت حصة العذاب رهيب.. لا بد أن يحصلوا على اعترافات، وليس لديهم وسيلة سوى السياط وانتزاع الأظافر، وحرق الأبدان بأسياخ من الحديد المحمي.. إن برتلمى يتفنن في اختيار أشنع ألوان العذاب.

قال الحاج مصطفى:

- أية اعترافات؟

- إنهم يسألون عن زعماء الثورة.. عن السلاح.. عن الأموال المخبأة. عن الاتصالات الجارية بين الثوار وأعداء فرنسا في الخارج.. يريدون أن يعرفوا أشياء كثيرة..

وعلا الصباح والاستغاثة مرة أخرى، فتوقفوا عن الكلام والطعام وطلب الماء، وصاح أحد الرجال في هستيرية وبصوت جريح متمرّد:

- أين الله؟

وهتف الحاج مصطفى :

- أستغفر الله . . وهل لنا غيره في هذه الأوقات العصيبة؟!

ومضى الرجل الأول يقول :

- ولماذا يتركنا هكذا؟ وهل من الضروري أن نقاسى هذا العذاب على أيدي هؤلاء الكفرة؟! وأين العدل؟! ألسنا على حق؟! فلم لا ينصرونا؟!

وخطا الحاج مصطفى نحوه وأمسك بيده وصاح :

- كف عن هذا الهراء يا رجل ، إنك تكاد تفقد إيمانك وتصيح مثلهم . . أنسيت؟ تذكر ما قاساه صحابة الرسول ﷺ من بطش وتعذيب وقتل ، ألم يكن في قدرة الله أن ينجيهم من هذا الشقاء كله؟! إن بعض الأنبياء قد قُتلوا .

وترك الحاج مصطفى يده ، ثم قال والدموع تترقرق في عينيه :

- إن لكل شيء ثمناً ، وثمان الحرية ما تراه في هذه الأيام العصيبة . .

وانهار الرجل باكياً وهو يقول :

- ليت هذه السياط كانت على جسدى أنا . . إننى أتعذب أكثر مما يتعذب هؤلاء المساكين فى الخارج .

وفتح الباب فجأة، وصاح شرطى أرمنى التحق بخدمة  
الغزاة:

- هاكم دلوًا من الماء، وآخر لتقضوا فيه حاجتكم .. يجب  
أن تسرعوا وتسهوا من كل شيء، النوم ممنوع .. قد تطلبون  
للاستجواب فى أية لحظة، وليس لدينا وقت لإيقاظ أحد ..  
مفهوم؟ ..

ولم يجيبوا على أوامره بغير الصمت الذاهل ..  
وبعد ساعة فُتح الباب مرة أخرى، ثم قذفوا برجل يثنُ  
وسط الظلام لم يكن هناك مكان لمجرد الجلوس، وتحسّسه  
أحد الجالسين.

- مَنْ أنت؟

قال وهو يتأوه:

- لا تلمسوا جسدى .. هل عندكم ماء؟

وارتشف جرعات من سطل صغير، وتمتم:

- أشعر أنها النهاية ..

قال الحاج مصطفى:

- ماذا بك؟

- ليس فى بدنى شىء إلا وفيه ضربة سوط .. إن جلدى  
يتزف دمًا .

- لماذا؟

قال وهو يثن :

- وأنتم؟ لماذا أتوا بكم؟ نفس السبب .. تصوّروا .. إن  
برتلمى قطع الليلة رءوس اثنى عشر رجلاً ثم وضعهم فى  
زكائب، وأصدر أوامره بقذفهم فى النيل .. أليس هؤلاء  
الضحايا أسعد حالاً منى؟ .. إن الشىء الوحيد الذى يعذبنى هو  
أننى أموت هكذا ببطء وتحت أشع أنواع الانتقام .. صدقونى إن  
أعظم شىء هو أن يموت الإنسان فى ميدان المعركة .. لماذا لم  
نقاوم حتى آخر رجل؟ أرجوكم .. مزيداً من الماء .. إن جوفى  
يحترق .. لا أستطيع الكلام أو الحركة .. قربوا الماء من فمى ..

وتسابت الأيدى باحثة عن بقايا الماء وسط الظلام الذى  
يلف الزنزاة الكثيبة .. وتمم الحاج مصطفى :

- خذ الماء ..

لكن الرجل لم يحرك ساكناً ..

ثم عاد فقال له :

- قلت لك .. ها هو الماء .. حسناً .. لسوف أضعه على

فمك .

وفتح الرجل فمه بصعوبة، ووضع الحاج السطل على فمه،  
لكن الماء كان يتسرب من زاويتي فمه .

ودقق الحاج مصطفى النظر فى وجهه وقد اقترب منه،  
ونتم:

- ما اسمك؟ ومن أى حى من أحياء القاهرة؟

لم يرد . . فلمس الحاج جبهته، وتحسس نبضه وصدره، ثم  
قال والدموع تتساقط من خدييه:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله . . لقد أسلم الروح» . .

وامتزج نشيج الرجال التسعة الخافت . وساد السكون  
الأسود ترنيمة حزينة تتغلغل فى الأعماق . .



أليس من المضحك والمحزن معاً، ألا يستطيع البشتيلي أن يجد بضعة أشبار كافية لجسمه حتى يستطيع النوم؟

وتذكر بيته الواسع الكبير، وحجرة الضيوف والاستقبال، وحجرات الخدم، وعشش الدواجن، وشاطئ النيل فى بولاق حيث الهواء المنعش، والناس يروحون ويجيئون، والأفق الأزرق ممتد رطب ينعكس على الروح بالسكون والدعة والروعة، وبعض الفقراء يتوسدون التراب على الأرصفة تحت ضوء القمر. . تذكر كل ذلك، ثم عاد إلى الزنزانة الضيقة المعتمة والرجال الثمانية، والنوم يداعب أجفانهم وهم جلوس، ورائحة العرق والعطن وبقايا المخلفات الأدمية بالدلو الموضوع لصق الباب، كلها تختلط وتثير التقرز والغثيان. وأخيراً قال البشتيلي:

- أيها الرجال . . إنها ظروف صعبة قاسية تلك التى نوجد فيها، ومع ذلك فمن الضرورى أن نكيف أنفسنا حسب الوضع

الراهن . . لنحاول النوم فى أوضاع متضادة بحيث توازى رأسك قدمى جارك، على الأينام أحد على ظهره بل على جنبه، حتى تتوفر مساحة كافية لنوم أكبر عدد ممكن، وأعتقد أن المكان يكفى سبعة على جنوبهم، أما الاثنان فيمكنهما أن يناما جالسين، وسوف يتناوب الباقيون معهم النوم جلوساً كل ساعتين .

ثم حاولوا النوم حسبما رسم البشتيلى . ، وبقي هو جالساً يفكر، لم يكن يتصور أن يتحجر قلب الإنسان، ويبلغ هذه الدرجة من القسوة مهما كان الأمر، وتساءل: أيستطيع الفرنسيون بهذه الطريقة أن يحققوا أغراضهم، ويقضوا على مناوئتهم؟! إنهم يوغرون الصدور ويملئونها بمزيد من الأحقاد التى لا تموت، والعنف لا يولد سوى الكراهية، وإن أدى إلى الاستسلام التام فى الظاهر، والغريب أنهم قد يكونون دائيين على إصدار منشوراتهم الكاذبة التى تتحدث عن الحرية والإخاء والمساواة، وعن رغبتهم الأكيدة فى تحرير المصريين من طغيان المماليك وظلمهم . . ولا شك أن أعضاء الديوان ما زالوا يجتمعون ويصدرون القرارات، ويوقعون المنشورات، ويدعون الناس إلى الهدوء والسكينة وإطاعة أولى الأمر . . يا لها من طريقة خبيثة ينفذها نابليون!! إنه لا يستطيع أن يحيل الشعب إلى أصدقاء له، ولن يكون الخضوع له إلا لونا من

الخوف المؤقت يخفى تحت طياته ثورة عارمة تنطلق دائماً في الوقت المناسب .

وتلفت البشتيلي حواليه ، لقد نام الرجال برغم الظروف القاسية ، إنهم لم يتذوقوا النوم منذ عشرات الساعات ، وها هم يستسلمون لسلطان الكرى على الرغم منهم ، وبعضهم يهذى ويتكلم بصوت مرتفع وهو نائم ، كلمات متناثرة تنطلق من أفواه بعض النائمين : «أنا مظلوم . . لم أفعل شيئاً . . عيب يا سعاد . . اسمعى كلام أمك . . أعطني قلة الماء البارد ، إن زورى يكاد يحترق . . أنا لا أخدعك يا صاحبي . . الثمن كما قلت لك . . إنه محدد فى الغورية والفحامين ويولاق ، وهو يكاد يكون ثمنه الأصلي . . آه . . إنهم يقتلون الناس فى الأزهر . . ويربطون خيولهم فى القبلة» . .

وشعر الحاج مصطفى بالضيق يعاوده من جديد ، وعلى الرغم منه أخذ يتذكر صديقه التاجر المهاجر أحمد المدبولي ، إنه يعيش الآن فى يافا ببلاد الشام ، معه المال الذى يكفيه ، ينعم بهدوء البال والراحة ، تفصله مئات الأميال عن عناء القاهرة وعذاباتها ، لشد ما قسا على صديقه عندما هاجر ، واتهمه بالجبن والندالة ، إن الحاج مصطفى يتمنى أن لو كان الآن فى يافا ، وأنه يحاول أن يحشد جيشاً من العرب والمسلمين المقيمين والنازحين ، ثم يهاجم مصر من الشرق ليخلصها من

طغيان الفرنسيين، وماذا كان عيب الهجرة، وخاصة بعد أن ضاقت السبل، وحلت الهزيمة، وتمكن الأعداء من رقاب العباد؟ لكن الحاج مصطفى يستدرك، ويحرك رأسه في اعتراض وضيق، ويلعن وساوس الشيطان، ويستغفر الله، ويؤكد لنفسه أن ما قدر لا بد أن يكون، وأن إرادة الله فوق كل إرادة، وأنه لا يصح مطلقاً أن يحكم على مبادئه وتصرفاته كلها من خلال فترة عصبية تعسة كتلك الفترة السوداء التي يحيها الآن؛ لأن أحكامه في مثل هذه الظروف لا شك ستكون واقعة تحت تأثير مؤقت عنيف، ينحرف بها نحو الشطط، ويفقدها صوابها ودقتها. . لكن الشعور الذي لم يستطع الحاج مصطفى أن يتخلص منه، هو أن الموت أهون من هذه المعاملة القاسية التي يلقاها الآن.

وتوقف عن الاستطراد في أفكاره، عندما صكت سمعه تلك الأصوات الضارعة التي تصرخ من شدة العذاب. . آه. . .  
المأساة التي تسحق فؤاده وكبرياءه. . ورفع الرجال النائمون رءوسهم فجأة، وعيونهم تدور في محاجرهما تائهة قائلة:

- ماذا جرى؟

- ما يجرى هنا عادة. . أنتم تعرفون. . إنه برتلمى وزبانية الجحيم ينصبون الموازين الجائرة ليفصلوا في مصائر العباد قبل اليوم الآخر. .

قالها الحاج مصطفى البشتيلي، ثم خفض رأسه ليدارى دموعه، لكن الحاج مصطفى بهت عندما سمع أحد الرجال يقول:

- لم يكن هناك داع لأن نعرض الناس على الثورة.. ها أنتم ترون النتيجة.. ألم نكن نعلم أن قوتنا دون قوة الفرنسيين بكثير؟ أعترف أننا أخطأنا خطأ جسيماً، وأنا تسببنا للوطن فى حلول كوارث محزنة.

وصرخ الحاج مصطفى بأعلى صوته:

- كفى.. إنك تتكلم بوحى من ضعفك وهزيمتك.

وصمت الرجل، بينما استطرد البشتيلي:

- ما هكذا يجب أن تناقش الأمور.. إن الباطل كان دائماً أقوى من الحق من حيث العدد والعدة، لكن النصر كان من نصيب أصحاب الحق؛ لأنهم يدافعون فى استماتة عن شىء أصيل يؤمنون به، ولأن الله معهم.. هل نسيتم تاريخكم؟ كان الرسول وبضعة نفر يواجهون رجالات مكة وكبراءها، وكانوا يقاسون شتى صنوف العذاب.. وبعد سنوات قليلة كانت كلمة التوحيد، ونور الهداية ينشران أريجهما العطر فوق الجزيرة العربية والشام وفارس وجزء كبير من بلاد الرومان.. إن الهزيمة المؤقتة التى منينا بها ليس معناها الموت.. إنها حلقة واحدة من سلسلة

طويلة من النضال من أجل الحق الصريح . . إن من قبلنا كانوا  
ينشرون بالمناشير، ويفصل لحمهم عن عظامهم، ويتعرضون  
لامتحانات رهيبة، لكنهم صبروا حتى جاء نصر الله . . ﴿وَكَانَ  
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

كانوا يستمعون إليه في خشوع، والدموع تترقرق في  
العيون، وروح الأمل البعيد تلمس قلوبهم المحترقة بنسمة  
نورانية، فيلفهم جو من الطمأنينة والإيمان الرطب . .  
وعاد الحاج مصطفى يقول:

- رددوا معي بصوت خفيض: «لا إله إلا أنت سبحانك  
إني كنت من الظالمين» . . إنها الكلمات التي نادى بها «ذو  
النون» ربه، وهو غارق في خضم الكرب العظيم، فنجاه  
الله . .

وأخذوا يتمتمون ساعة أو بعض الساعة، لم يتوقفوا برغم  
الصراخ والسياط القاسية التي تمزق الظهر العارية، وتبدد  
سكون الليل في القلعة الكبيرة ذات الأسرار الرهيبة . .



قالت هيلدا مخاطبة الكابتن مالوس :

- أيها العزيز مالوس ، إننى أشعر بضجر قاتل .

أجابها قائلاً :

- أهو الأسف على ديبوى ؟

رفعت إليه عينين عاتبتين وقالت :

- إن ديبوى حدث طارئ ، قيمته الحقيقية تافهة ، كعشرات الأحداث التى لا معنى يذكر لها فى حياة كل فرد . . إنه يشير حنقى وتقزى أكثر مما يشير عطفى ، والفترة التى قضيتها معه مرت كحلم سخيّف ، أنت تعرف ذلك يا مالوس . .

وأطرقت برهة ، ثم عادت تقول :

- إن مجرد ذكر اسمه يشير أعصابى ، فلا داعى لأن أسمع اسمه مرة أخرى .

- تعرفين أن هذا يبهجنى يا هيلدا العزيزة .

وشردت ببصرها إلى بعيد، ثم قالت فى نبرات حاملة ذات رنة خاصة :

- أبحزنك أن أقول الحق؟

- لقد عاهدت نفسى أن يظل قلبى وعقلى متفتحين لتلقى الحقيقة؛ لأن تجاهلها حماقة .

- رائع . . إن هناك رجلاً فى حياتى لا أستطيع أن أنساه، على الرغم من أن أبى يؤكد لى أنه قد لقى حتفه فى المعارك الأولى، وربما لا يؤذى شعورك أن أذكر بالخير رجلاً رحل إلى العالم الآخر . . إنه مجرد ذكرى، أتفهمنى؟ كان اسمه «إبراهيم أغا» أحببته كما لم أحب أحداً من قبل، كان حبه لى مجرداً من كل معنى دنى . . ربما تسمى هذا حباً خيالياً أو رومانسياً كما تزعم، لكننى واثقة أننى أعبر عن حقيقة شعورى . . إن حياتى معه تبدو الآن وكأنها رؤى حلوة باهرة . .

قال مالوس مندهشاً :

- من الغريب أن تنطقى بمثل هذه الأحاديث بعد أن قضينا منذ ساعة لحظات من أحلى أيام عمرنا، كنت أعتقد أننى أخلص وأحب إنسان إلى قلبك، هذا ما أستشعره من معاملتك

وكلماتك التي ترسخ في ذهني، وأظل أتذكرها طوال الليل والنهار، حسبتني أنسب بديل لمثل هذا الرجل.

قالت في ثقة:

- لا يمكن أن يكون البديل صورة طبق الأصل.

- هذا معنى عميق يستحق التصديق والاحترام، لكن لماذا كان إبراهيم على تلك الصورة الحاملة؟

قالت وهي تتنهد:

- هذا ما لا أستطيع تفسيره، كان إبراهيم حقيقة مشرقة ملأت كياني كله وروحي، كيف؟ لا أدري، لماذا؟ لا أدري..

ولمحت هيلدا سحابات من ضيق تغشى وجه مالوس، لقد زعم أنه متفتح العقل والقلب، وأن الحقيقة لا تزعجه، لكنها ترى الآن أن الغيرة أقوى من الحقيقة، وأن منطق العاطفة أقوى بكثير من منطق العقل، وخاصة في مثل تلك الظروف، وخلال سنى العمر الوهاجة بالعواطف والانفعالات، وتمت:

- هل تضايقت؟

قال وهو يزفر:

- ربما، إنها كبرياء الرجل.. أنت تدركين ذلك لا شك.

- لكن إبراهيم مات وانتهى أمره .

- الأشياء التي تتحدثين عنها يا هيلدا لا تموت، إننى لا أعرف إبراهيم هذا، لكنى متيقن أن صورته الغامضة ستلاحقنى فى يقظتى ومنامى، ستظل تطفئ من حماسة حبى المشتعل، أيمكن أن أنسى أو أتجاهل صورة رجل له هذه المكانة المقدسة فى قلبك؟! ومع ذلك فإن الأمر ليس له علاج حاسم سريع . . إنه متروك للزمن والتجارب . .

ابتسمت هيلدا وقالت :

- لقد استتجت حقيقة جميلة .

- ما هى؟

- أنك تحبى وتغار علىّ فى عنف بالغ . .

فطوقها بذراعيه وهو يقول :

- أتسكين فى هذا لحظة يا حبيبتى؟

- كنت أعتقد أنكم معشر الفرنسيين لا تفكرون فى غير اللذات العابرة؛ لأن القسوة التى تعاملون بها المواطنين هنا، جعلتنى أو من بأنكم تختطفون كل شىء اختطافاً حتى تهرولوا إلى غيره، إن ما يسعدكم هو أن تروا مظاهر الاستسلام تحت ضرباتكم العنيفة .

قال مالوس :

- قد تعيدنين التفكير فى التائج والأحكام التى توصلت إليها ، لو نظرت إلى وضعى ووجدتنى أنا المستسلم استسلاماً تاماً لك يا هيلدا . . ثم طبع على شفيتها قبلة طويلة . .

قالت فى أدب :

- أن أن تنصرف ، فإن أبى على وشك الحضور .

- وهل يضايقه أن يجدنى هنا ؟

- على الأقل من الناحية الشكلية . . إنها مجرد تقاليد يجب

أن تراعى .

قال مالوس :

- إن أمامى بعض الوقت ، الغريب أنك تتهمينى

بالتقصير فى الحضور ، وتشكين من الفراغ القاتل الذى

تعانين منه ، ثم تأتين الآن وتطلبين منى أن أنصرف . . إن

اللهفة التى تستقبلينى بها تختلف كثيراً عن الفتور الذى

تودعينى به .

- حسناً . . فلتبق كما تشاء . .

ولم تكذب تكمل عبارتها حتى دق الباب . .

قالت هيلدا :

- ألم أقل لك؟ لقد أتى أبى . . ألا تشعر الآن ببعض الحرج؟ . . قال وهو يلم شعته:  
- أنت على حق . .

\*\*\*

دخل برتلمى وانصرف مالوس . . وألقى برتلمى بجسده المتعب فوق أقرب مقعد، كان حائراً بين رغبته الشديدة فى النوم، وشوقه الجارف للطعام . .  
وقالت هيلدا:

- ما معنى أن تخرج فى العصر ولا تعود إلا فى صباح اليوم التالى لتنام؟ أيمكن أن تمضى الأمور على هذه الوتيرة؟ إننى أقاسى من ملل قاتل، وأنت لا تكاد تشعر بما أعانيه .

- وماذا أفعل فى المهمة الصعبة الموكولة إلى؟

- أية مهمة، بعد أن انتهت الثورة وعاد السكون؟

قال برتلمى ساخراً:

- انتهت الثورة؟ ياله من حلم! . . لقد نشبت من جديد فى أقاصى الصعيد والوجه البحرى، وصدق صديقنا الفرنسى «ريبو» الذى يقول فى أحد مقالاته: «كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين، وفرض

الغرامات على البلاد، لكن الثورة كانت كحياة ذات مائة رأس، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية، ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت، فكأنها تعظم ويتسع مداها، كلما ارتحلت من بلد لآخر. . . هذا ما قاله ريبو الذكي. . . والحقيقة أن دورى هنا في القاهرة له طبيعة أخرى، إننى كقائد لرجال العسس ذو مسئولية مضاعفة. . . فأنا أقضى الليل بطوله في القلعة.

قالت هيلدا:

- القلعة؟! -

- أجل. . . السجن. . . الجميع يعرفون ذلك، إننى أقوم باستجواب الثوار وتأديبهم وكشف خططهم، وقتلهم إذا اقتضى الأمر.

قالت متأففة:

- إنه شيء رهيب! . . .

- ليكن، إن تصفية جيوب المقاومة أمر لا مفر منه، وإلا ضعنا، وهو إجراء عادى إبان الحروب والأزمات. . . إن رقة قلبك يا هيلدا تجعل على عينيك غشاوة تحجب عنك ما يجب إدراكه، أتظنين أنه فى الإمكان أن نستقبل الثوار كما نستقبل الشرفاء والنبلاء؟ وماذا نحصل منهم بعد ذلك؟ . . . إننا ننتزع أظافرهم فلا

يتكلمون، ونمزق أجسادهم بالسياط فلا يجيبون بغير الأنين،  
ونسمل عيونهم، ونقطع ألسنتهم فيصمدون بطريقة تحقني . .  
ماذا يريد هؤلاء الأغبياء؟ إنهم كمجموعة من الثيران الهزيلة  
تحاول أن تنطح جبل المقطم كي ترحزه من مكانه . .

قالت هيلدا، وقد اقشعر بدننا:

- أبى . . دع هذا الحديث، وقل لى كيف أعيش وحدى فى  
هذا القصر الواسع؟ . . لا بد من حل.

ابتسم فى وهن:

- اطمئنى . . لن تكونى وحلك بعد اليوم.

- ماذا تعنى؟

- لسوف تأتى امرأة أخرى تعيش معنا.

قالت فى اهتمام:

- أتتزوج؟

- ليس هذا على وجه الدقة، ولكنه شىء قريب منه . . إنها  
مجرد صديقة مؤقتة؛ لأن الزواج يحتاج إلى وقت وتدبر  
واختيار سليم.

هزت رأسها وقد فهمت كل شىء . . ستضم إلى الأسرة  
«داعرة» ترفه عن أيها . . ماذا جرى للدنيا؟ . . كل شىء

يتحول ، كثير من القيم تداس بالنعال القذرة ، حماقات ترتكب  
دون وازع من خلق أو ضمير ، الجرائم ترتكب ببساطة ، وأنا -  
هيلدا الطاهرة - أمضى فى الموكب الأثم دون إرادة أو عزيمة ،  
كلنا نسير فى القافلة التعسة ، فلا نكاد نفيق لتتوقف أو نغير  
وجهتنا ، أو حتى نبدى قليلاً من الندم . . لقد انتهت أيام زمان  
الرائعة «يا بنت فرط الرمان يا حلوة» . .



جلس «برتلمى» منتفش الشعر، جرت الخمرة فى دمه فبعثت الاحمرار فى وجهه، والتزوة فى عينيه، والغرور والقسوة فى قلبه. وكان جلوسه فى سجن القلعة ومن حوله عدد من الضباط والجنود غالييتهم من الأروام، وعدد قليل من الفرنسيين. . . وكانت الأضواء الباهرة تفيض على المكان، وتبدد ظلمة الليل الخالك، وقال برتلمى لمن حوله:

- أعتقد أننا قد نفذنا حكم الإعدام فى أكثر من ثمانين زعيمًا من زعماء الثورة، أقطع الرأس، فتذبل الأطراف وتموت، كان هذا هو رأى دائماً، ومن حسن الحظ أن سارى عسكر نابليون قد اقتنع به، أما باقى المسجونين فقد استطعنا أن نذيقهم ألواناً من العذاب البدنى والنفسى، فتحطمت كبرياؤهم، وحل اليأس والذل فى قلوبهم.

ثم دار بأنفه يمينا ويساراً كذئب مفترس، وقال:

- إن رائحة القلعة لا تطاق، هؤلاء الأوباش المعتقلون  
أصبحت رائحتهم منتنة تثير التقزز . .

وصمت برهة، ونظر إلى أحد الضباط الأرمن وقال:

- يعقوب . .

- نعم سيدي . .

هناك لعبة يحلو لي أن أمارسها دائماً.

- الشطرنج؟ . .

قهقهه برتلمي ساخراً:

- أيها الساذج، أنا لا أطيق التفكير الطويل الممل، ولا  
الجلوس لساعات طويلة، إنني أتصرف بيدي وقلبي أكثر مما  
أتصرف بعقلي، وأقدس الآراء السريعة الحاسمة . . التفكير  
الطويل، ودراسة الأشياء الدقيقة، والاهتمام بالتوافه، يأخذ  
بيد الإنسان إلى التيه والعقم والتردد . . أفهمني؟

قال يعقوب:

- تحت أمرك يا سيدي .

- حسناً . . أريد أن تجمع لي عشرين رجلاً من عظماء القوم

من بين هؤلاء المعتقلين . .

رد يعقوب بسرعة:

- فهمت يا سيدى ، ونحضرهم لك لنقطع رءوسهم ، ثم  
نضعهم فى زكائب ونقذف بهم فى النيل .

وعاد برتلمى يقهقه من جديد :

- أيها الأبله ، لقد سئمت هذه اللعبة . . أريد أن تجمعهم  
هنا لأكلهم .

همس يعقوب فى دهشة :

- تكلمهم؟! تعنى التحقيق معهم وتعذيبهم .

- لا أقصد ذلك . . أنت ترى أن المعتقل قد أصبح قذراً ،  
ورائحة القلعة لا تطاق ، وأعتقد أن هؤلاء العشرين ، إذا ما  
خلعوا أحذيتهم وشمروا عن سواعدهم ، فلسوف يحسنون  
نظافة الأرض ، وغسل الأبواب والنوافذ ، وإزالة المخلفات  
الآدمية بطريقة نظيفة . . يجب أن يمارسوا عمل الخدم لفترة  
من حياتهم ، حتى تتهدب نفوسهم ، وترق حاشيتهم . . جهاز  
لكل واحد منهم مكنسة وقطعة من الخيش ودلوأ جميلاً . .

دق يعقوب الأرض بقدمه ، وأدى التحية العسكرية قائلاً :

- أمر سيدى . . وأنا أفهم الباقي . . أعنى يجب أن يتحركوا  
بسرعة ، ومن يشمئز أو يتوانى فالسياط كفيلة بتنشيطه .

تنهد برتلمى فى ارتياح وقال :

- لتجمع لى الرجال العشرين بسرعة . .

أسرع الضابط بالمرور على مختلف الزنانات والعنابر . . . كان يسأل كل واحد عن عمله ومركزه واسمه، والحي الذي يقطن فيه، أو البلد التي قدم منها . . . ثم اختار في النهاية عشرين رجلاً أغلبهم من كبار التجار والعلماء ومشايخ الحرف الشائعة، وكان من بينهم الحاج مصطفى البشتيلي . . . وتراص الرجال العشرون أمام برتلمي الذي وقف مرفوع الهامة، واضعاً يديه في جيبي سترته، بارز الصدر وكأنه يتحدى أكبر قوة في الوجود، ثم قال مخاطباً الرجال :

- أنتم تعرفون من أنا، إن كلمتى هنا هي القانون، لقد أعدمت الكثيرين منكم؛ لأن من يتحدى إرادتى لا يستحق أن يعيش . . . أعرف أن أغلبكم من علية القوم، وأن كل واحد منكم يحتفظ بشجرة النسب في بيته، لكنها حماقة لا معنى لها . . . إن رجلاً مثلى لا يعرف له أب منذ الصغر، يستطيع أن يدوسكم ويدوس مجد آبائكم أيها الحقرء . . . إن فرنسا قد انتصرت، وستوالى انتصاراتها حتى يدين لها العالم بالطاعة والولاء، ومن يعتقد غير ذلك، فهو خائن أو مجنون أو مخدوع، والثلاثة أنواع لا معنى لوجودهم على قيد الحياة . . . أتمنى أن تغيروا أفكاركم، وتصححوا معتقداتكم، والدليل على ذلك، الدليل الذي أنتظره منكم هو الطاعة، وتنفيذ الأوامر . . . والآن عليكم أن تقوموا بتنظيف القلعة، وخدمة

باقى المعتقلين والمسجونين والعساكر . . أتفهمون؟ والآن  
تستطيعون البدء فى عملكم .

صدم البشتيلى لأول وهلة ، لكنه شعر بعد ذلك بفرحة  
غامرة ، لعل مصدرها إحساسه بأنه يودى عملاً طيباً من أجل  
مواطنيه المحبوسين ، أو لعله أدرك أنه ضرب جديد من ضروب  
الصبر والجهد فى سبيل الله ، ثم إنه فتح صدره لهواء نوفمبر  
المنعش ، برغم برودة الجو ، وأخذ يستنشق ذلك فى لذة ونهم ،  
لا شك أن خروجه للعمل بعيداً عن ضيق الزنزانة وظلامها  
وعفونتها يخفف بعض الشيء من عنت نفسه ، وخرج صدره .  
إن العمل الذى سيؤديه عمل محط فى نظر برتلمى ، لكنه عمل  
على أية حال ، ويؤديه كثير من الناس ، والبشتيلى لا يتميز عن  
باقى الناس بميزة ، فالتفاضل بين الناس - كما علمه الدين - لا  
يكون إلا بالتقوى والعمل الصالح . . والنظافة وخدمة زملائه  
السجناء عمل صالح لا شك فى ذلك . .

لكن الذى أحفقه أكثر ، تلك الكلمات الشاذة الشرسة التى  
خرجت من فم برتلمى الملعون . . إنه يتكلم كإله ، كسلطة عليا  
لا راد لمشيئتها . . إن مثل هذه الكلمات التى أطلقها برتلمى لا  
عقاب لها سوى قطع رقبتة أو تحطيم رأسه الخبيث ، لكن ماذا  
يفعل وهو سجين عاجز مقهور؟ . . ما أبشع أن يكون الإنسان

الحر عاجزاً عن رد الإهانة، وجدع أنف الطغاة المتهورين! لكن من يدري؟ ألا يمكن أن يكون يوم العقاب والثأر قد قرب؟ ثم إن الله سبحانه قادر على سحق أولئك الذين يتزعون إلى التآله والتجبر وإذلال الأبرياء من بنى البشر . .

أمسك الحاج بمكنسته، وأخذ يجلو الأقدار عن الأرض، كان يؤدي عمله في همة ونشاط ملحوظين . . وزينب الآن في البيت ببولاق، دامعة العين، تبكى فتاها الراحل، وتبكي أباهما السجين، وتنظر إلى المستقبل بعين الخوف والقلق . . وولده الحسين يتميز غيظاً وألماً، وهو يفكر في أمر أبيه السجين ذى المصير المجهول . . وأمهما تجلس كعادتها شاحبة الوجه، محتقنة العينين، واضعة خدها على قبضتها المرتعشة، تفكر في وضع زوجها العنيد الذى طلق حياة الدعة والراحة، ورفض الهجرة والنجاة بنفسه وبأسرته، وفضل المشاق والمتاعب والمخاطر على كل ترف الدنيا وراحتها . .

وزفر الحاج فى ألم، ثم تتم: «هيه . . دنيا» . .

ولم يكديرفع رأسه، حتى هوى على ظهره سوط من الخلف، وصوت أجش يصيح به:

- اشتغل يا كلب!

وكاد الحاج ينقض على الجندى الواقف خلفه تحت عتمة

الليل، لكنه تماسك وابتسم في لذة غريبة وهو يقول:  
«حاضر»..

واستمر يعمل وقلبه يدق، وقطرات من العرق تتصبب على  
جبينه، برغم برودة الجو، وعاد يفكر «اشتغل يا كلب»..  
آه.. ما قيمة وجهة نظر الآخرين بالنسبة لى.. إننى أعرف من  
أنا، مجرد جندى يخوض معركته الضارية ضد المعتدين، ومن  
ثم فإن ما يقوله برتلمى وزبانيته هراء، إنهم هم الحقراء أمام  
التاريخ وأمام الضمير الإنسانى الحى.. وأمام الله.. أجل، إن  
وجهة نظر المنحرفين الطغاة لا قيمة لها، وإنما هى مجرد  
كلمات جوفاء تتلاشى فى ليل القلعة البهيم..



لقد نال التعب منه كل منال، وأرهقه طول السفر، ولفحت السمرة وجهه الذابل النحيل الذى يدل على أن صاحبه قد أبل لتوه من داء عضال، ودخل القاهرة قبيل المغرب، القاهرة «يا مدينتى الرائعة» . . هكذا تتم الضابط «إبراهيم أغا» وهو يلثم بنظراته المكدودة كل مظاهر الحياة فى الشوارع الكبيرة . . الناس . . والحيوانات والمباني والأرض والسماء . . ما أشد الفارق بين حياة الكر والفر والتهلكة فى أعماق الصعيد وجباله ووديانه، وبين مدينته الحبيبة القاهرة، بكل ما فيها من ذكريات وأمجاد وأحلام وردية . . لكنه - للأسف - يتسلل عبر الشوارع كلص هارب، عيناه تتأرجحان فى خوف وقلق، هو يعلم أن عيون العسس فى كل مكان، وأن مصير أى واحد من المماليك فى القاهرة هو الإعدام، وأن مصير كل من يتستر على مملوك أو يثويه مصير قاس لا رحمة فيه، يا لها من ليال قاسية تلك التى عاشها «إبراهيم أغا» مع «مراد بك» ورجاله فى الصعيد!! إن «ديزيه»

أحد القواد الفرنسيين الكبار، يطارد مراد بك ورجاله من مكان إلى مكان، ويضيق عليهم الخناق، ويضرب عليهم بقسوة.. وعلى الرغم من المآزق التي يتعرض لها «ديزيه»، والكمانن التي ينصبها له أبناء مصر البواسل في قرى الصعيد ومدنها ونجوعها، إلا أنه يتقدم، مستهيناً بالتضحيات، متخطياً كل العقبات؛ حتى تتحقق للفرنسيين السيادة الكاملة على الوجه القبلى، هكذا كانت أوامر نابليون الصريحة.. ومع أن خطوط تموين «ديزيه»، سواء فى البر أو النهر، تتعرض لهجمات رجال المقاومة المصريين، ويتكبد بسبب ذلك الخسائر الفادحة، إلا أنه يسلك كل السبل، ويستعمل العنف البالغ فى أغلب الأحيان؛ حتى يقضى على المقاومة، ويحصل على المؤن، ويؤمن الطريق لقواته..



ترى ما مصير هيلدا الآن؟ وكيف حالها؟.. إن اسم أبيها يتردد على كل لسان، أصبح برتلمى شخصية رهيبة تشيع الرعب والكراهية فى كل الأنحاء، ونال من المجد الملوث بالدم ما لم يكن يحلم به قط، فهل ترك هذا كله أثراً على شخصية «هيلدا بنت فرط الرمان الحلوة»؟.. وأياً كان الأمر، فإن إبراهيم يتحرق شوقاً لرؤية هيلدا؛ فهو يتذكر الأيام الجميلة التي قضياها معاً، ويتذكر عهود الحب والوفاء والأمنيات الجميلة التي رتعا فى جناتها ردهاً من الزمن، لسوف يسبح عن

هيلدا . . لعلها تكون المأوى الوحيد الآن الذى يلجأ إليه فى هذا الجو المضطرب الآسن، ولا شك أن حب أيها لها وتأثيرها عليه، سوف يضمن لإبراهيم السلامة؛ لأن إبراهيم لو ذهب إلى أحد أصدقائه القدامى من المصريين أو الأتراك، فربما يسلمه لحبل الجلاد، أو لسيف العسس، فيقضى عليه قبل أن تعلم هيلدا بأمره . . إن إبراهيم يشك فى نية برتلمى ولا يؤمن قط بأنه سهم نبيل، مستحيل أن يكون برتلمى كذلك فى هذه الأيام . .

وظل إبراهيم يبحث الخطى حتى وصل منزل برتلمى . .  
وهتف إبراهيم بأحد المتسولين العاجزين:

- لا شك أن هذا هو بيت «فرط الرمان».

قال الرجل، وهو يرفع إلى السائل عينين واهتى البصر:

- لا شك أنك غريب عن هذه الديار . . لقد رحل «فرط الرمان» من زمن . . إنه يقيم الآن فى قصر كبير، تحفه الحرس والكلاب المتوحشة . . حذار أن تقترب من هناك .

ودار إبراهيم حول البيت المهجور يستعيد الماضى والذكريات، ولم يترك المكان إلا بعد أن عرف مقر برتلمى الجديد، لكنه لا يستطيع المزيد من المشى . . لكم قاسى طوال الطريق، محاولاً تجنب نقط المراقبة والمطاردة التى رتبها الفرنسيون فى أماكن عدة، ثم إنه يشعر بجوع شديد ورغبة

عارمة فى النوم، ثم إن الغبار يكسو رداءه ويلوث وجهه وحذاءه، ويترك آثاره الواضحة على يديه وعنقه . . وليس من اللياقة أن يطرق باب القصر الكبير، أو يتسلق أسواره ويقابل هيلدا وهو على هذه الصورة الشائنة . . وانحنى إبراهيم فى ذلة، وهمس فى أذن المتسول الجالس إلى جواره:

- أعندك طعام؟

قال المتسول، وهو يستخرج من جعبته رغيفاً وحصوات من الملح:

- ألم أقل إنك غريب؟ حذار أن تكون أحد الشوار أو المماليك الهارين، إن «فرط الرمان» لا يرحم.

لم يعلق إبراهيم بشيء، وإنما أقبل على الخبز والملح بلهفة شديدة، كان الطعام ألد وأشهى من أى طعام ذاقه طوال حياته، لسوف يذهب إلى جامع الأزهر الشريف، وفى حى الأزهر سيجد الكنافة التى يحبها، والمشروبات الدافئة وبعض الفاكهة، فهو يملك قدرًا من النقود قليلاً . . وفى أحد أروقة الأزهر سيجد المكان الصالح للمبيت . . ما أكثر الذين يأويهم ذلك المسجد من كل لون وجنس، وهناك يأمن على نفسه، ويستطيع التفكير الهادئ، ورسم الخطة الناجحة، والتخطيط لحياته من جديد، ولا شك أن ذلك كله يعتمد على موقف هيلدا منه . .

كان يخطو نحو الأزهر بقلب واجف مضطرب، ويقايا من دوريات العدو تتجول عبر الشوارع الرئيسية، في كثير من الاطمئنان وعدم الاكتراث. . . ولفت نظره كثرة الدور المهدامة والحرائب، إن آثار التدمير تبدو واضحة جلية على الرغم من مرور ما يزيد على شهر من نشوب الثورة التي انتشرت أنباؤها في كل مكان. . .

ودخل المسجد الكبير، فاستشعر لأول وهلة قدراً من الطمأنينة والسلام، لقد رأى أنه في رحاب الله، وأنه يستطيع أن يؤدي بضع ركعات؛ لأنه في مسيس الحاجة - وخاصة في هذه الأوقات الحرجة - إلى مناجاة ربه، والركون إليه. . . ما أعجب قلب الإنسان!! فإذا ما استشعر الخوف لاذ إلى كنف مولاه، وازداد تشبثاً والتصاقاً به. . . إنه نوع من النقص الخلقى وتخلف الإيمان. . . لم لا يظل الإنسان على ارتباط وثيق، وقرب دائم من الله؟! . . . إن إبراهيم يعترف بينه وبين نفسه، أن الدنيا شغلته طويلاً، وأن تفكيره في أطماعه الشخصية، وأمجاده الذاتية، قد صرفاه عن الطريق القويم. . . لقد رأى الموت يعينيه أكثر من مرة، رآه في الصراع الدامي بين أميره وغيره من الأمراء في ساحات القاهرة وشوارعها؛ من أجل النزاع على السلطة قبل مجيء الحملة الفرنسية، وراه في معركة «إمبابة» الشهيرة، حيث تدفقت النيران على رأسه هو

وزملائه، ولم ينجُ إلا بأعجوبة، ورآه في المعارك العديدة التي دارت رحاها في أقاصى الصعيد ضد قوات «ديزيه»، ثم إنه لم يزل يسير يظلمه تهديد الموت بجناحيه الرهيبيين كمملوك هارب، تلاحقه عيون العسس . .

يا الله . . ألم يفكر قبل ذلك في أن العمر رحلة قصيرة، وأن الله هو الملجأ الأول والأخير، وأن عمل الخير أجدى عليه وعلى الناس؟ . . معان كثيرة كلها تحتشد في رأس إبراهيم، وهو يتقدم صوب صنابير الماء ليزيل تراب السفر المتزج بالعرق، لكنه يرى آثار العبث والتدمير في الأزهر نفسه . . لقد سمع عن ذلك من قبل، ولكنه كان يستبعد أن يحدث مثل ذلك . . يصل بهم الاستهتار لهذا الحد، فيبعثون بالمقدسات، ويلوثون المحارِب، ويلهون برمز السلام في الحرم الآمن؟ . . يا لهم من وحوش! . .

وتومض في ذهنه ومضة خاطفة من الماضى . . آه . . كنا نهب المتاجر، ونسلب الآمنين أموالهم وأمتعتهم وبضائعهم، وكنا نشتبك في صراعات دنيوية تافهة . . إنهم يفعلون مثلما كنا نفعل، الغرور بالقوة الغاشمة، والتصرف بحماقة وقسوة . . ياله من درس! . .

وقضى «إبراهيم أغا» ليلة ليلاء بالأزهر، سمع الكثير عن الثورة وعن البطولات الفذة . . ودمعت عيناه، وهو يتلقف في

لهفة كل كلمة عن الضحايا وقصص العذاب الوحشي الذي يقاسيه المواطنون الأبرياء على يدي الأعداء وأذئابهم، ثم الإذلال والمهانة التي لحقت بعلماء الأزهر وأشرفه، ووجهاء القوم الوطنيين المخلصين. . لقد رأت القاهرة الكثير من الصراعات الدامية، ومع ذلك فهي تقف صابرة صامدة، تتحدى العبودية والموت، وتأبى إلا أن تصمد للعاصفة الرعناء الوافدة من الغرب، المعبأة بكل قوى الشر والتحدى. .

شيء آخر أزعج إبراهيم أغا»، وأرق نومه، وجعله يتقلب مغمض العينين مجهد الفكر، ذلك هو ما سمعه عن «برتلمى»، إن تصرفاته غاية في البشاعة والندالة. . كيف يواجه مثل هذا المخلوق، ويضع يده في يده، وبرتلمى تقطر يده من دماء الشهداء؟. . أيمن أن تبقى صداقتهما القديمة كما كانت؟. . إن كل الظروف تقف ضد ذلك الافتراض الساذج، ومع ذلك فإن لدى إبراهيم رغبة ملحة في لقاء هيلدا. . إن ما بينهما من الحب شيء آخر، له قداسته واحترامه، وقلبه لا يطاوعه على هجرانها من أجل سفالة أبيها، ولماذا تؤخذ الابنة بذنب الأب؟. . إن مسئولية الإنسان أمام ربه مسئولية فردية، وهذا قمة العدالة، فلاطبق هذه النظرية على هيلدا المسكينة. .

وأذن الفجر بعد ليلة مرهقة، فتحامل إبراهيم على نفسه مثائباً مجهداً ليؤدي الفريضة. .

«يا له من قصر رائع!» هذا ما تتمم به إبراهيم أغا، وهو يقيس قصر برتلمى بنظرات الدهشة، ثم استطرذ:

- «أيمكن أن يكون هناك ذلك الفرق الشاسع بين مسكن برتلمى القديم والجديد، منعكسًا على هيلدا الأمس واليوم؟ إن أخشى ما أخشاه أن تكون هيلدا قد تغيرت» . .

كان قلبه يدق، وقدماه تتقدمان نحو الباب، وخوف مبهم يشده إلى الخلف، لكن ذكريات رائعة تحاول أن تبدد مخاوفه .

وحسب إبراهيم بواب القصر فى أدب، ثم أخبره أنه يريد فتاة القصر فى أمر مهم، وما عليه إلا أن يبلغها اسمه . . وبعد دقائق كان إبراهيم يدلف إلى الممشى الأنيق وسط حديقة صغيرة عبقة الرائحة، تكتنفها الأزهار من كل جانب، وخاصة الأزهار الحمراء . . وعندما رآته هيلدا شحب وجهها واضطربت، وتمتمت دون وعى:

- مستحيل ..

- إنى أحيى أطيب قلب عرفته فى حياتى ..

قالها وهو يمد يده مصافحاً، بينما وقفت هيلدا جامدة، ثم همست حاملة:

- كيف يحدث ذلك؟!

أجابها إبراهيم:

- خضت إليك يا حبيبتى بحار النار والخوف، واجتزت صحراء العذاب والخطر، وكلما كَلَّتْ قدمائى، لمعت فى أفق خيالى صورتك البهية، فيمتلى جسدى بالنشاط وتفيض روحى بالأمل، وأيقنت أنذاك أنك يا هيلدا أملى وحياتى .. لم تفق من شرورها وأخذت تقول:

- لم أصدق الخبر عندما أخبرونى عودتك .. كنت واثقة ثقة غريبة أننى لا بد أن ألقاك فى يوم من الأيام. وكلما أكدوا لى الخبر الكاذب المشثوم ازددت ثقة بوجودك، لكن مرور الأيام كاد يوتسنى .. إن كل يوم يمر يجعلنى أو من بقلبى وتفوقه على عقلى ..

ثم أفاقت إلى نفسها، واختطفت يده تشبعها لثماً وتقبيلاً، وأخذت تقول والدموع فى عينيها:

---

- أشعر الآن أنني قد بلغت مرفأ السلام الذي حلمت به  
طويلاً.. يا لها من ليالٍ عصيبة لكأنما كنت أمخر عباب بحر  
هائج عاصف الريح، حالك السواد لا تبدو فيه غير وجوه  
أكرهها.. آه.. ديبوى.. وغيره كثيرون..

ابتسم في سعادة، وقاس الحجر الأنيقة الفاخرة الأثاث  
وقال:

- أيمكن أن يحدث ذلك لأميرة تحيا في هذا القصر  
الفخم؟

ثم تذكر ما قالته في بداية حديثها، فأسرع قائلاً:

- لكن من أخبرك أنني مت؟

طأطأت رأسها في خجل وهي تقول:

- أبى..

- أوه.. لعل أحداً خدعه.. في مثل تلك المعارك الشديدة  
تترامى الأنباء هنا وهناك دون دقة أو تحرر.. المهم هو أنني حتى  
أرزق، وأنى أجلس الآن إلى جوار نور عيني هيلدا.. هذه  
أعظم حقيقة في الوجود بالنسبة لى..

ثم تنهد في غير قليل من الألم وهمس:

- وعلى سفوح الجبال في أعماق الصعيد، كان وجهك

الطاهر يشرق لي فيبدد الكثير من عذابي وضياعى . . كنت  
أحيا بشيء ولشيء عظيم .

وتساقطت دموعها بغزارة وهى تقول :

- أما أنا فكنت أعيش ضائعة ممزقة فى شبه غيبوبة . .  
أحاول النسيان بطرق شتى كريهة إلى نفسى . . ولكن هيهات ،  
إن الزيف والوسائل المصطنعة قد ورطتنى فى مأس كثيرة ،  
أضفت إلى أساى عذابات جديدة . .

ثم أمسكت بذراعه وهى تشهق :

- صدقنى . . إننى لا أستحق الحياة ، ولا أستحق إنساناً  
نيلاً مثلك . . لو عرفت الحقيقة لبصقت فى وجهى . . أجل ،  
إننى أعنى ما أقول . . إن الغزاة الغرباء الأقدار - وقد كنت  
تحمل سلاحك لحربهم - كانوا يفتدون إلى بيتى فيستقبلهم أبى  
بالبشر والترحاب ، ويملثون القصر بالضجيج والمرح والنكات  
الفارغة ، وأنا أشاركهم العبث والكثوس . . أتفهم؟؟ العبث  
والكثوس . . كلهم ذئاب . . أبى . . ديوى الصريع . . مالوس  
الساذج ، وسارى عسكر نابليون نفسه . .

لم يغب عن فطنته أن أحداً جساماً قد جرت ، وأن هيلدا  
قد قاست الكثير ، وأن شبابها الغض قد تعرض لعواصف  
عاتية . . ولم يدر ماذا يقول ، لكنه تتمم والحيرة فى عينيه :

- ما هكذا يكون اللقاء بعد غيبة طويلة . .
- هل أخذت لك؟ لم أعد أطيع تلك الحياة القذرة . .
- طأ رأسه في حزن وقال :
- أعرف أن أبك أتى أفعالاً غريبة ، لا أدري كيف تورط في ذلك على هذه الصورة الفاضحة ، ولا أدري كيف أقبله . .
- قاطعت هيلدا في خوف :
- أتتوى مقابلته؟
- ولم لا؟!!
- القتل من نصيب كل مملوك هارب .
- أعرف ذلك . .
- فكيف تغامر بحياتك يا إبراهيم؟ . .
- يستحيل أن يفعلها معي ، إن ما بيننا من الود القديم ، ثم إن ما له من صلوات وطيدة بالفرنسيين ، تجعله يحمي صديقاً له ولا بنته .
- قالت في ضيق :
- أنت لا تعرفه ، إنه يبرر كل تصرف قاس ، ومصالحة الأمن - أعني مصالحة الفرنسيين - فوق كل اعتبار . .

أرجوك .. يجب ألا تلقاه، ويجب أن تنصرف فوراً الآن حتى  
ندبر الأمر.

ودق باب حجرة الاستقبال، وهبت هيلدا واقفة في رعب،  
ولم يستطع إبراهيم هو الآخر أن يدارى انفعاله الطارئ ..  
وهتفت بصوت مبحوح:

- من بالباب؟ ..

رد أحد الخدم قائلاً:

- الكابتن مالوس ينتظر ..

توثب الضيق في عينيها، وهتفت:

- قل له ليس الآن .. ليأت في وقت آخر ..

وفتح الباب فجأة، وجاءها صوت مالوس:

- أيمكن أن أعود دون أن أراك، وبينى وبينك خطوات

قليلة؟ ..

اندفعت هيلدا نحو الباب كالمسعورة، وأخذت تدفع

مالوس بكلتا يديها، وهي تصرخ:

- اذهب .. اذهب .. لا أريد أن أراك ..

وبين ذهوله الزائد تلفت يمته ويسرة، فوقعت عيناه على

«إبراهيم أغا»، فهتف في خبث، وقد رأى رقة حاله وشحوب وجهه:

- أيمكن أن يكون هذا هو السبب؟! ياله من سبب تافه!..

قالت وهي تتميز غيظاً:

- هل علموك في باريس أن تفجأ حجرات النساء هكذا دون استئذان؟ إن تصرفاً هكذا يعد تصرفاً تافهاً من إنسان تافه.

احتقن وجهه، وتناوشته الشكوك وصرخ:

- من هذا؟

قالت وهي تشعر بلذة غريبة، وكأنها تتقم وتصفع كبرياءه وكبرياء ديوى من قبله:

- إنه صديقى العزيز «إبراهيم أغا»، هل عرفته؟.. لقد حدثك طويلاً عنه.

هزّ مالوس رأسه وقال:

- كنت أعتقد أن الموتى لا يُبعثون.. والآن أعلن انسحابى.

وجذب الباب بشدة وهو ينصرف، بينما ألقّت هيلدا

بجسدها المرتعش على المقعد، وسرعان ما تذكرت أن مالوس قد يخبر والدها بكل ما رأى، فاشتد بها الخوف والاضطراب، إنها ليست على استعداد لأن تعرض إبراهيم لأذى خطر.. .  
وذهل إبراهيم وهو يراها كالقطة، ثم تجرى صوب الباب وتهتف بصوت مرتفع:

- مالوس.. مالوس..

وتقابلا في منتصف الطريق، فقال مالوس:

- هل من إساءة أخرى توجهينها إليّ؟

قالت هيلدا والدموع تختلط بالخوف في عينيها:

- أيمكن أن أطلب منك كرجل نبيل شيئاً بسيطاً؟

- إنني في خدمتك.. . إنني أحترم الأوقات الرائعة التي.. .

فقاطعته قائلة:

- عدني بالأخبار أبي بأي شيء مما حدث الآن.

قال في ضيق وهو يستدير خارجاً:

- على الرغم من قسوة الموقف، إلا أنني أعذك بذلك.. .

\*\*\*

لحظات حلوة قضتها هيلدا مع إبراهيم، كانا يطفئان أواراً

اشتد وطال شوبه، وعلى الرغم من سعادته الفائقة إلا أن ما سمعه من هيلدا وما رآه من تصرفاتها وتصرفات ضيفها الغريب، قد بعث في نفسه تساؤلات حائرة، وشكوكًا كثيرة . . ولم يكن الوقت ليسمح بالاستفسار والتحري؛ لأن موعد أبيها قد أزم، وهي مصرة إصرارًا جازمًا على أن ينصرف قبل أن يأتي، وليمنحها فرصة كافية لتدبر الأمر . . وتمت في سعادة وهي تودعه متعجلة:

- إن لقاء الموتى لقاء رائع . .

وبعد أن انصرف إبراهيم فوجئت هيلدا بصديقة أبيها تنظر إليها في انهيار، قالت هيلدا:

- ما الذى أتى بك إلى هنا؟

قالت متخابثة:

- مجرد الصدفة، أهنك ما يضايقك؟

قالت هيلدا محتدة:

- يجب أن تفهمى وضعك هنا . . ليست بى رغبة لجرح شعورك، فلا تدفعينى إلى ذلك، وتذكرى دائماً أن لى الكلمة الأولى هنا . . وتركتها وانصرفت إلى حجرتها . .



كان إبراهيم يتصور أن الإقامة بالأزهر هينة، لا تحوم حولها الشبهات أو تلاحقها المنغصات، لكن الثورة وانبعائها من قلب الأزهر، قد أثار الشكوك في نفوس الفرنسيين وعيونهم، مخافة أن تحدث تجمعات مشابهة، أو تبذر بذور تدبير جديد لحركة تمرد ثانية، ثم إن ترك الأفكار المناوئة للعدوان لكي تنمو وترعرع، عملية خطيرة تكلف المحتلين الكثير من الوقت والجهد والدماء، ومن ثم بثوا الجواسيس في أروقة الأزهر؛ مما جعل إبراهيم أغا يشعر بالقلق المتزايد، حتى أنه أثر الاحتفاظ بملابسه الرثة، وعدم الاهتمام بهندامه، حتى يبدو وكأنه طالب علم فقير، أو مجذوب من المجاذيب، ولم يكن هذا يمنعه بأن يصلح الكثير من هندامه عند ذهابه للقاء هيلدا.

وحاول إبراهيم أن يقضى الجزء الأكبر من وقته خارج الأزهر، حيث شوارع القاهرة وأزقتها الكثيرة، وحيث يلتقى ببعض المماليك المتخفين، وبعض الأصدقاء من الترك أو

المصريين ، وكان حذراً غاية الحذر بحيث لا يلتقى بإنسان يشك فيه أدنى شك .

ولم يكن هناك مناص من أن يكون موضوع الساعة - الاحتلال - هو أهم ما يدور حوله الحديث ، ويلى ذلك فى الأهمية موقف المماليك بالذات ولم يكن «إبراهيم أغا» ليبدى ارتياحاً للأحداث الجارية ؛ فالفرنسيون يطاردون فلول المماليك فى الشرق وفى الجنوب ، و«مراد بك» قد تشتتت قواته أكثر من مرة ، وبعثرتها ضربات «ديزيه» . . . والذى ألم إبراهيم أغا ، أنه شعر بروح اليأس تدب فى صفوف المماليك ، حتى أن البعض يفكر فى مهادنة الفرنسيين والتعاون معهم ، وكان إبراهيم يثور ويقول : «كيف نمد أيدينا لمصافحة عدو غدر بنا وسفك دماءنا ، وأذل مجدنا ، وعاث فى الأرض الطيب فساداً؟!» ولعله لم يجرؤ على رمى مراد بك بالخيانة جهراً ، وإن كان فى قرارة نفسه يؤمن أعمق الإيمان أن مراد بك لا خلق له ولا مبدأ ، وأنه يضع نصب عينيه أولاً وأخيراً مصلحة الخاصة ، فإذا ما خير بين مصلحته ومصلحة وطنه - إن صح أن يسمى وطنه - داس على مقدسات الوطن وأمجاده ، فلم يكن غريباً أن يفكر فى التصالح مع الفرنسيين والتعاون معهم ، على أن يهبوه بعض السلطات الرسمية والميزات الوضيعة .

لهذا شعر «إبراهيم أغا» بالاختناق وهو يلهث فى أعماق الصعيد بحثًا عن الأمن وراحة الضمير، ويحثًا عن القيم الحقيقية التى تجعل من الإنسان إنسانًا بمعنى الكلمة . . . وعوّل إبراهيم على أن يرحل إلى القاهرة، أن يقتحم المخاطر والصعاب ليبلغ المدينة التى أحبّها، وليعيش بين أهلها - ولو متخفيًا - يجرى عليه ما يجرى على أهلها من الصراع الدامى، والتعرض للعدوان الغاشم بكل شجاعة . . . إن إبراهيم يشعر لأول مرة، أن انشقاقه على «جماعة» الممالك إنما هو عمل شريف نبيل، لقد قرر اتخاذ هذه الخطوة عندما قرّر مراد بك أن يبعث بمندوب إلى الفرنسيين للتفاهم معهم، وعقد صلح يحقق له أى كسب مهما كان رخيصًا . . .

لهذا عاد إبراهيم إلى القاهرة، إلى صدرها الحنون . . . إلى الأماكن التى أحبّها والمقدسات التى عشقتها روحه، وإلى ذكرياته الحلوة . . . ولكم تمنى فى هذه الأيام العصيبة ألا يجعله الله من طائفة الممالك، لكن ما الحيلة وقد أراد القدر، ولا راد لإرادته، إن لم يكن فى استطاعته أن يغير جنسيته، فلا أقل من أن يكون من حيث السلوك والتفكير والتطلعات مصريًا صميمًا، إنه تألف من نوع أصيل، تألف مع الأمة التى احتضنت صباه وشبابه وأمانيه، وهو سعيد بهذه النتيجة .



شئ آخر مهم ألح عليه إلحاحاً شديداً، بعد أن قضى فى القاهرة أياماً قليلة . . هذا الشئ انبثق فى ذهنه انبثاقاً، حاول أن يبعده عن ذهنه فلم يستطع . . «إن برتلمى الخائن يجب أن يموت»، ذلك الخاطر يطارده صباح مساء . . ويحاول إبراهيم أن ينظر فى عينى هيلدا الجميلة، ويحاول أن يستشف روحها الوداعة البائسة، لعل ذلك يحجب عن ذهنه ذلك الخاطر المُلح . . لكن النداء يتردد فى أعماقه: «إن برتلمى يجب أن يموت»، الرجل الذى ذبح المئات، والذى يمسك بمقادير التعساء فى هذا الوطن المغلوب على أمره، ويتصرف وكأن ليست هناك قوة أخزى تعلو عليه، ولا تعرف إلى قلبه سبب لآفة ذلك الذى تنكّر لكل المعانى الإنسانية الرفيعة: هل هناك فائدة من وجود هذا الإنسان؟ ثم، هل إذا حوكم أمام أية محكمة عادلة، أ يكون نصيبه غير الإعدام؟ هناك أشياء كثيرة لا تنفع، لا يحزم اقتلاعها، فما بالك إذا نتج الضر عن مخلوق سائن كبرتلمى؟ . . إنه إنسان خائن تحت أى فلسفة من الفلسفات المحايدة . . لكن دموع هيلدا تقف فى الطريق . . ومعها الحراسة المشددة، والجواسيس المنبثة فى كل مكان . . «آه يا قلبى المتأرجح بين الولاء للحب والولاء للأرض الطيبة . . إنك يا قلبى تكتوى بين ان حبين كلاهما غالٍ وعزيز» . .

وفى رحبة الأزهر الشريف، حيث يوجد الناس المتحمسون، والذكريات الدامية، والأفكار الملتهبة يعزم إبراهيم ويصمم على الانتقام من برتلمى، برغم كل شيء... وبين يدي هيلدا أميرة الحب، والأحلام، يتراجع إبراهيم خطوات وخطوات، وينسى فى نشوة الحب، وكلماتها الرقيقة، الرقيقة الوفية، كل أحقاد الحياة، ويأنف من العنف والدماء والخواطر المدمرة..



كان إبراهيم على موعد مع هيلدا، وكان يعرف الوقت المناسب لزيارتها بالاتفاق معها... ولم تغفل هيلدا، فقد كانت تدرس الأمريكى تجده له حلاً، أنفاس والدها، وتشرح له أمر إبراهيم وتطلب منه العفو عنه، والحماية له كميلوك مطارد؟ ولم تكن تعلم ما يدور خلف ظهرها، فعندما اقترب إبراهيم ذات مساء من باب البيت، انقض عليه خمسة من الرجال وأمسكوا به، فشلوا حركته وأغلقوا فمه؛ حتى لا يصيح ويشير الضجيج، وفى دقائق كان موثوقاً بالحبال ومدفوعاً فى عنف واحتقار إلى سجن القلعة..

وتمم وهم يقدفون به داخل زنزانه مظلمة...  
- أجل... إن برتلمى يجب أن يموت، لكن ما الحيلة،  
وقد سبق السيف العزل، وانقض على أرجاله كالقضاء النافذ؟

إن تصرفه هذا هو الذى قطع الشك باليقين . . آمنت الآن أن  
 مشاعر الحقد التى تعتمل فى قلبى ضده كانت على حق . .  
 لكن ماذا أفعل وقد فات الأوان . . وأصبحت فى حجرة  
 مظلمة لا أنيس ولا رفيق ولا سلاح؟ . . لينعم برتلمى  
 بطغيانه، ولينعم أيضاً بشقاء ابنته . . لكن هل من الضرورى أن  
 تشقى هيلدا؟ أه من مأساة العجز الساحقة! . .

والقى بجسده فى ركن من أركان الزنزانة . .

وتناهى إلى سمعه صوت حزين عميق التأثير، يتردد صده  
 فى ظلمة الليل الخالكة، ولم يكن يعلم أه صوت سجان أو  
 صوت مسجون:

لو كان بكايا على المحبوب يجيبهولى

لكنت أبكى وأجيب الناس بيكولى

بهاجته، يا رسالة

يا ليلى . . يا عينى . .

أجل، لا يجد البكاء أمام صولة القضاء، ولا تنفع الدموع  
 فى معركة ضارية أشعلها المجرمون . . اللعنة على برتلمى  
 الحقيير وعلى كل من رفعه إلى تلك المكانة الملوثة، وأباح له  
 إذلال البشر، والغدر اللثيم

لم يكن «إبراهيم» يعلم - بالطبع - أن هيلدا وقفت

تنتظر طويلاً موعده . . ودخل عليها أبوها ومعه مالوس، وهي تقطع الحجرة ذهاباً وإياباً، والقلق الشديد باد على وجهها، وقالت دون تدبر:

- جئتما في غير موعدكما .

- لا شك أن هذا يسعدك يا فتاتي العزيزة، ألم تشتكى كثيراً من غيابي المتكرر؟

وشم أنفها الحساس رائحة غدر مستتر، وخاصة أنها قرأت في عيني مالوس شماتة وخيماً، لكن عقلها لا يصدق أن يغدر بها الفتى البارئ «المهذب»، وفاتها أن الغيرة تصنع الخماقات المحطمة . . . لم تستطع أن تدارى شحوب وجهها واضطراب نظراتها، وأخذت تعثب بأناملها، ثم ولت هاربة، ففتحها أبوها قائلاً:

- ما بك؟

قالت في اقتضاب:

- لا شيء . . .  
- لا تخفي عني شيئاً . . .  
التفتت إليه كتمرة شرسة وصابحت: . . .  
- لا أريد أن أرى مالوس هنا بعد اليوم . . .

ابتسم في دهاء وهدوء قائلاً:

- لماذا؟

- لأنى لا أريد ذلك .

- ليس هذا بكاف .

- هل من الضرورى أن أبدى أسباباً أخرى؟

- أعتقد ذلك .

- إذن فأليك الحقيقة . . إننى أكرهه وأحتقره . . فلا يلجئنى

لأن أقول له ذلك فى وجهه، إن أردت الحفاظ على كرامته .

هز رأسه وقال :

- هل هناك رجل آخر؟

قالت فى حدة :

- هذا من شأنى . .

ثم استدارت إليه واستطردت :

- وإذا كان هناك رجل آخر، فأعتقد أن عيونك وعيون

مالوس لن تجهله .

قال محتجاً :

- لا يمكن أن يكون هذا بالنسبة لابتى الوحيدة .

اقتربت منه وقالت :

- أبى . . يمكن أن تصدقنى الحديث ولو مرة واحدة؟

- ومنذ متى كذبتُ عليك؟

قالت دون تحفظ :

- كذبتَ علىّ عندما أخبرتني أن إبراهيم أغا قد مات في

المعركة .

قال متصنعاً الدهشة :

- وهل حدث غير ذلك!؟

واندفع مالوس في رعونة وحمق نحو باب الصلاة تاركاً

خلفه حجرة الاستقبال وقال في شماتة :

- لقد انتهى أمر إبراهيم ، ولن تريه بعد الآن . .

وصاح برتلمى :

- ماذا تقول يا مالوس!؟

قالت هيلدا وهي تصر على أسنانها من الغيظ :

- يقول الحقيقة . .

وران عليهم صمت عميق لفترة وجيزة ، قالت هيلدا في

أعقابها :

- إذا لم يعد إبراهيم حتى الغد ، فلسوف أقتل نفسي . .

وجرت صوب حجرة نومها وهي تشهق باكية . . .

كان تهديد هيلدا حاسماً قاطعاً، فانفض برتلمى رأسه أمامها مستسلماً، بينما هاجت أحقاد مالوس، غير أنه كظمها، باذلاً في ذلك أقصى ما يستطيع من جهد . . .

قال برتلمى وقد انفرد بمالوس :

- لا تحزن يا مالوس، سوف نستجيب لرغبتها.

قال مالوس :

- ما معنى ذلك؟ . أيقهرنا ذلك المملوك الصعلوك؟ . .

أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية يا مالوس؟ إننى فقط أريد الحفاظ على حياة هيلدا المسكينة وتهدة أعصابها، ولا يعنى ذلك هزيمتنا أمام إبراهيم أغا . . إنه لم يزل - وسيظل - بين أيدينا، وسنوجه إليه الضربة القاصمة فى الوقت المناسب، بل إن وجوده إلى جوار هيلدا فيه عديد من الفوائد، ألا يجوز أن ترهد فيه، وتكتشف مزيداً من

النقائص؟؟ ثم لا تنسَ يا مالوس ، أن قلوب البشر قابلة  
لتحوّلات كثيرة .

هز مالوس رأسه قائلاً :

- كلامك يبدو منطقيّاً ومعقولاً ، لكنى لا أستطيع الصبر  
عليه .

قال برتلمى :

- تماماً مثل هيلدا . . تحكم عواطفك فى مصيرك لا يصحّ  
أن تكون هكذا دائماً عزيزى مالوس .

- أنا لا أطيق رؤية هذا المخلوق .

بل يجب أن تبشّ فى وجهه . . لمَ لا نستغله؟؟ ألا يمكن  
استعماله فى الكشف عن خبايا المماليك ، وأعداء الحملة  
الفرنسية فى أنحاء البلاد؟! وعندما يصبح غير ذى فائدة ،  
وتصبح هيلدا أكثر تعقلاً ونضجاً ، نمسك بإبراهيم ونقذف به  
فى أعماق الجحيم . . إنها خطة ماهرة يا مالوس الصغير . .



توجه برتلمى إلى القلعة ، إن قلبه يخفق من شدة السعادة  
وهو يدلف عبر بوابتها السوداء المتجهمة ، هناك يكتشف لنفسه  
سلطات مطلقة ، ونفوداً لا حدّ له ، ابتداء من السب وضرب

السياط، حتى القتل.. ومر - وهو في الطريق إلى زنزانة إبراهيم - بمر ضيق طويل.. كان هناك ينظف المشى بقطعة من الخيش، وعندما حاذاه برتلمى هتف الشيخ فجأة:

- إلى متى نبقى محبوسين يا سيد برتلمى؟! إن سجننا هنا بلا محاكمة وبلا نهاية محددة.

ركله برتلمى فى عنف، فاتكأ الشيخ على الحائط وابتسم فى مرارة وقال:

- أليس لى حق الشكوى؟! إننى أتمس العدالة..

وصاح برتلمى طالباً يعقوب، وقال برتلمى وهو يصير على أسنانه من الغيظ:

- هذا المجنون فيه بقية من رجولة وشجاعة.. إن الذلّ المستمر والتجويع والشقاء فى ظلام الزنزانة لفترة طويلة، قد يصلح حاله، ويجعل منه طفلاً سلس القياد.. ضاعفوا له العقوبة.. مائة سوط على الأقل.. مفهوم؟؟

هزّ الحاج مصطفى البشتيلى رأسه، لم تفارقه تلك الابتسامة المرة، وقال وقلبه يدق:

- ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

لم يلق برتلمى بالأ بعد ذلك لما قاله الحاج مصطفى، كانت

مشكلة هيلدا وإبراهيم أغا تشغل تفكيره . . شعر بالذلة والهوان وهو يذهب إلى القلعة لاستخراج إبراهيم بنفسه . . ما أكثر الرغبات المكبوتة فى داخله . . تلك الرغبات التى لا يستطيع أن ينفث عنها، إنه دائماً عاجز عن تحقيق الكثير مما يصبو إليه، ومع ذلك فالناس - كل الناس - يظنون أنه قادر على صنع المستحيل . . .

- مساء الخير أيها الفارس الصديق . .

قالها برتلمى، بعد أن فتح السجان زنزانة إبراهيم الذى مضطجعاً على الأرض فوق لوح متسخ من الخشب . . لم يتحرك إبراهيم من مكانه، وصاح وهو يدقق النظر من خلال الضوء المتدفق إلى الزنزانة المظلمة:

- مَنْ؟؟ برتلمى؟؟

- إنه أنا . . .

قال إبراهيم وهو يتنهد:

إنه مكان رائع لكى تضع فيه الأصدقاء .

اقرب منه برتلمى مصافحاً وهو يقول:

- إن ما حدث كان نتيجة سوء فهم خطير . . تصور . .

وصلتنا رسالة من رجالنا فى الصعيد، أعنى رجالنا المندسين

بين المالك، وأخطرونا بقدمك ويأنك تعمل على إثارة  
الفتن، والكشف عن خطط الجيش الفرنسي وأسراره . . . ومن  
ثم كان على أن أقبض عليك بأمر من السلطات العليا، ولو لم  
أفعل ذلك لأصابني رزاز الاتهام والشبهات . . . أنت تعلم  
موقفي الحرج . . . لو أنت ابني لما فعلت غير ذلك . . .  
قال إبراهيم :

- إن شيئاً من هذا لم يحدث . . . لا أنكر أنني ساخط على ما  
يجرى سخط أى فرد من أفراد الشعب، لكن سخطى لا يرقى  
لدرجة التآمر والتجسس، ثم إن هيلدا تعلم كل شيء . . . لشد  
ما أخشى أن تكون الرسالة التى وصلتك ملفقة . . .

وخرج برتلمى وإلى جواره إبراهيم، كانا يتجاذبان أطراف  
الحديث كأصدقاء لم يحدث بينهما شيء من الجفوة أو سوء  
الفهم . . . وتذاكرا الأيام الجميلة، ثم جاء ذكر الحرب والثورة  
والخراب والدمار . . . وهنا قال برتلمى :

- إن التسليم بما هو قائم أمر لا بد منه، وهزيمة  
الفرنسيين مستحيلة، والمقاومة غباء . . . إن جيوش العالم  
كلها لم تستطع قهر فرنسا، فلا يعقل أن تأتى دولة صغيرة  
متخلفة ممزقة وتحاول هزيمة أقوى جيوش الأرض . . . فما  
رأيك فى ما أقول؟

قال إبراهيم :

- هذا رأى غالبية المماليك . .

- لكن لماذا يصرون على المقاومة؟

- لتحقيق أكبر قدر من الشروط التى يقدمونها لعقد الصلح . .

- وغير المماليك؟

- آه . . إن باقى الشعب مُصرّ على المقاومة . . أنت تعلم ذلك . . أنت تسمّيه غباءً وجنوناً وهم يسمّونه دفاعاً عن الحق والحرية . . المسألة معقدة كما ترى ، ولن يحلّها مزيد من الدماء والسياط يا سيد برتلمى .

قال برتلمى :

- ما هو الحل فى رأىك يا إبراهيم؟

- أن يعود الفرنسيون من حيث أتوا .

- أنت تهذى . . أهذا هو رأىك أنت؟

- رأى رجل الشارع .

- وأنت؟

- أنا؟ وما قيمة رأىي؟ أنا مجرد مملوك طريد، يتلمس

الحياة، ويبحث عن الأمن من شارع إلى شارع . .

---

توقف برتلمى عن السير ، وأدرك ما تنطوى عليه كلمات إبراهيم من إصرار وعناد . . لو قال هذه الكلمات رجل غير إبراهيم ، إذن لمزق برتلمى جسده إرباً إرباً ، لكن هيلدا تقف حائلاً بين إنفاذ رغباته . . ورأى برتلمى أن من الحماقة الصبر على تلك الروح المتمردة الثائرة ، فقال :

- يا سيد إبراهيم . . إنك مملوك عقوبتك الموت . . ثم إن آراءك الخطرة التى تعترف بها الآن توردك مورد التهلكة ، وأنت تعلم دقة مركزى فضلاً عن أن الكابتن مالوس يعرف الكثير عن صلتك بنا . . وهو حاقد وناقم عليك . . لو كنت تحب هيلدا حقيقة لوفرت لأبيها الأمان ، ولانسحبت من حياتنا فى هدوء وخفة ، دون أن تشير خلفك ضجة صاحبة . . حسناً . . لسوف أستقبلك فى بيتى لبضعة أيام ، ومن الضرورى أن تنصرف بروية خلال هذه الأيام ، إن أنايتك قد تؤدى بى وبك وبهيلدا إلى الدمار الكامل . . أتفهمنى ؟

قال إبراهيم :

- أدرك تماماً ما ترمى إليه . . أنا لست أنانياً . . إننى أحب ابتك وأعتقد أنها تحبني كذلك ، لكنى لن أستغل هذه العاطفة النبيلة استغلالاً يشوه جمالها ؟

استقبلت هيلدا حبيبها استقبالاً حاراً ، لم يخفف من

حرارته وجود أبيها، وشعرت أنها وهى تلاقاه فى النور والهواء  
دون خوف، أنها قد انطلقت من قمم رهيب خائق، ونظرت  
إلى أبيها فى ود وحنان وتمتت:

- شكراً لك يا أبى . . الآن أستطيع أن أقبل وجتتك وأنا  
واثقة من أنك تحبنى أكثر من أى شىء فى الوجود . .  
وتمت إبراهيم بينه وبين نفسه:

- «بل إنه يحب نفسه أكثر منك، وأكثر من أى شىء فى  
الوجود» . .



أقفرت الدار من الصحاب، ولم يعد فيها سوى الدموع  
 الحزينة والذكريات المريرة، ونسوة يلبسن السواد.. . وقدم ذات  
 يوم الشيخ الأعمى «على الجنجيهي» وطرق الباب، فاستقبله  
 الحسين - نجل الحاج مصطفى البشتيلي - استقبالاً حاراً،  
 وكانت الدموع تترقق في عينيه، وتمتم الجنجيهي:

- ألم يعد الغائب بعد؟

رد الحسين في أسى:

- وكل مسافر سيثوب يوماً.. .

وهز الجنجيهي رأسه، بعد أن قصد حجرة الضيوف، يقوده  
 إليها الحسين، وقال:

- إن رضائنا بما هو قائم، وذلك الانتظار القاتل يبعثان في  
 نفسى الضيق والأسف.. .

- وماذا نفعل؟

- يجب أن نتحرك .

- كيف؟

- إن برتلمى قد يبيع ابنته بالتقود . .

قال الحسين :

- لا أفهم ما ترمى إليه . .

أت فتاجين القهوة السادة، وأعطى الحسين الشيخ واحداً منها، ورشف الشيخ رشفة طويلة، ثم قال :

- تستطيع أن ترشوه بالمال، وبهذا نشترى أباك من الضنك والعباب، إن يوماً واحداً فى السجن يساوى ألف دينار، ثم إن حياة السجن مهددة بالمخاطر، من يدرى؟ لعل حركة تقوم، أو ثورة تنشب، أو نزوة تطوف برأس برتلمى فيقضى على المسجونين . . إنه حقود مجنون . .

كان الحسين ينصت فى اهتمام، ويدرك عن يقين ما يرمى إليه الشيخ الأعمى، ولعل العبارة الأخيرة قد أيقظت الرعب والخوف فى قلبه . . ولم يتركه الشيخ لخوابره، فاستطرد يقول :

- لو استطاع أبوك أن يتصل بك لأوعز إليك بذلك . .

- بل أعتقد أنه يأنف من هذه الوسائل . .

- افهمنى يا ولدى . . إن خروج أبيك أمر له أهميته

القصوى . . هذا بديهى فى الأمور العادية، لكن فى مثل تلك الظروف يتحتم طرق كل باب لإنقاذه . . إنه حفاظ على حياته، و حياة الأمة وشرفها .

وران عليهما الصمت، ووثبت إلى ذهن الحسين صورة أمه الحزينة الباكية التى لا تنام من الليل إلا أوقاتاً قصيرة. و صورة وجه أخته الشاحب، والقلق والعناء النفسى وهما يتواثبان فى محجريها . . وذلك البيت الموحش الذى أصابه الوجوم والهموم منذ أخذوا أباه . . وتذكر أيضاً أن المعركة ستطول وأنها ليست هينة، فقوات نابليون تحقق انتصارات وتكسب أرضاً فى الجنوب والشرق، وجيشه يهرول نحو الشام ويطرق أبواب «يافا»، ويذبح من العرب والمدافعين الأحرار أربعة آلاف . . ويتسلل إلى «عكا» . . يريد أن يثبت للعالم أنه أقوى من النكسة، ومن أسطول إنجلترا، ومن ثورات الشعب المصرى، ومن تحديات أوربا، وليثبت أن أماله الكبرى ستتحقق برغم تحديات الظروف والأعداء، ويمضى فى طريقه غير هياب . . لقد أعطته الأقدار من القوة والطموح ما جعله يشق طريقه فى عناد وإصرار برغم الخسائر . .

وقطع الجنجيهى على الحسين حبل أفكاره حين قال :

- إن كلامى لا يعنى أن أباك ليس أهلاً للتضحية . . كلنا

على يقين أنه أقوى من الهزات والعذاب الذى يسقيه له  
المجرمون . . إنه رجل مؤمن قوى الإيمان ومن ثم فلا خوف  
على كرامته وشرفه والقيم العليا التى يؤمن بها .

خفض الحسين رأسه فى حياء وقال :

- لكن كيف الطريق إلى منزل «فرط الرمان»؟

- تستطيع أن تمهد الطريق بنفودك . . أليس لديك ما يكفى

من المال؟

- نحن لا نضنُّ على أبى بأى شىء .

- إذا لم يكن لديك ما يكفى ، فيمكننى أن أتصل بالشيخ

إبراهيم سلامة ونذهب إلى الشيخ السادات ، لعلنا نستطيع أن

نجمع بعض المال . .

رد الحسين على الفور :

- لا . . لا . . إن أبى لا يرضيه ذلك . . إن لدينا من المدخرات

والمجوهرات وبعض العقارات ما يفى بمطالب برتلمى . .

\*\*\*

عندما انصرف الجنجيهى ، وعاد الحسين إلى والدته وأخته

زينب ، شرح لهما وجهة النظر التى عرضها صديق أبيه ،

فأبدت الأم حماسة زائدة ، وأيدتها أشد التأييد . . إنها لا تمنع

فى آفة وسيلة لإعادة زوجها إليها ، فقلبها دائماً يرتجف من  
الخوف على مصيره ، والخواطر السوداء تلعب برأسها دائماً ،  
وهى لا ترى فى السماء غير الغيوم السوداء المنذرة ، مهما رأى  
الآخرون زرقة السماء وصفاءها ، وعلقت زينب قائلة :

- أنا على استعداد لأن أضحي بروحى من أجل أبى . . ولا  
يعيننا أن نلبس الخيش ، ونقتات كسرات الخبز ؛ حتى يعود إلينا  
من ذلك المكان الرهيب الموحش . .

وهز الحسين رأسه قائلاً :

- وفى هذا المكان ترتكب أسوأ الخطايا فى حق الشرفاء . .  
ولحظات العناء قد تساوى دهرأ طويلاً مريراً . .

وأردفت الأم فى حدة :

- إن تركك لأبيك هذه الفترة يعتبر عقوقاً لا يغتفر . .

\*\*\*

الله وحده يعلم مدى ما تكبده الحسين من مشاق ، وهو  
يطرق الأبواب ، ويتحسس الطرق ، كى يصل إلى برتلمى . .  
لقد قصد أحد الخواجات من كبار تجار المجوهرات ، وقصد  
أحد كبار تجار الخمور ، وذهب هنا وهناك ، وكل واحد يريد أن  
يقبض الثمن من أجل خطوات تمهيدية قد تسفر وقد لا تسفر

عن أية نتيجة . . وأمام الإصرار والبذل والتضحيات المتنوعة،  
استطاع الحسين أن يصل إلى هدفه . .

قبض برتلمى الثمن، ودسه فى جيبه وهو يضع ساقاً على  
ساق، وينفث دخان نرجيلته، ويشمخ بأنفه . . وعاد فى المساء  
ليداعب خليلته وابنته، وليقضى وقتاً قصيراً مع الزائر الذى لا  
يرتاح إليه . . الصديق اللورد «إبراهيم أغا» . .

\*\*\*

وذات مساء، فى السجن الكبير الرهيب، صاح أحد  
السجانين:

- مصطفى البشتلى . . مصطفى البشتلى . .

ووجفت قلوب الرجال فى الزنزانة الضيقة، وساد  
الشحوب وجوههم، وانتصب الحاج مصطفى واقفاً، ماذا  
هناك؟ أهو فصل جديد من فصول العذاب فى المأساة التى لا  
تنتهى، أم أنه حكم إعدام أصدره برتلمى بينه وبين نفسه؟ ربما  
ينادونه لكى ينظف مكاتب الضباط، وليسخروا من رجل له  
ماضيه وشهرته، وهى تسلية لذيدة على الرغم من  
وحشيتها . . وتمتم أحد الرجال:

- خيراً . . اللهم اجعله خيراً . . لا تقلق يا حاج . .

فصاح الحاج مصطفى:

- أنا هنا . . زنزانة رقم عشرين . .

ودقت أحذية غليظة ثقيلة على أرض المشى الضيق، وكان  
لوقعها صدى مزعج فى النفوس . . وعندما فتح الباب، قال  
السجان بابتسامة قذرة:

- يبدو أن أمك قد دعت لك فى «ليلة قدر» . . مبروك يا  
مصطفى . .

أصبح الحلم حقيقة . . الحاج لا يصدق أذنيه ولا عينيه . .  
كثيراً ما خدعوه وكذبوا عليه، وخيبوا آماله . . لكن ألا يمكن  
أن يصدقوا ولو مرة واحدة؟!!

وهتف أحد المسجونين بصوت ضعيف:

- إذا وصلت سالمًا إلى بيتك يا حاج، فبلغ السلام للعيال  
والنساء والرجال، واقرأ لنا الفواتح عند أهل البيت . . ولتدع  
لنا الله بالسلامة والستر دنيا وأخرى . .

وتساقطت الدموع من عيني الحاج مصطفى، وعجز عن أن  
ينطق بكلمة واحدة . .

وخرج من الزنزانة ثم استدار وقال:

- الله معكم . . السلام عليكم ورحمة الله . . واصبروا . .  
إن العاقبة للمتقين . . قاسه برتلمى بنظراته، وقال:

- كان درساً قاسياً . . أليس كذلك؟ . . من العيب أن يحاول حمل صغير زحزحة جبل ضخمة بقرنين هزيلين، أليس كذلك؟ . . إن فكرة المقاومة فكرة جنونية أمام الجيش الفرنسي . . وقد كان فى استطاعتى أن أنفذ فيك حكم الإعدام، أليس كذلك؟ . . ومع هذا فنحن نلجأ إلى الرحمة كحل فى بعض الأحيان؛ حتى لا نتهم بالقسوة والجمود . . وتصرفنا معك الآن دليل أكيد على ما أقول، يا زعيم ثوار بولاق . . أليس كذلك؟ . . إننى أغامر بالإفراج عنك؛ لأن تقارير رجالى عنك تؤكد خطورتك، ومع ذلك فأنا القادر على البطش بك فى أى وقت أشاء . . فحذار أن تنسى نفسك . . وإلا . . أليس كذلك؟ . .

سدد الحاج نظرات متوجسة إلى وجه برتلمى المحتقن، وقال:

- بلى . . أفهم كل ما ترمى إليه .

- إذن فقد أمرت أن تعود إلى أهل بيتك فهم أولى بك، وعسى أن تتحول بولاق المشاكسة إلى حى هادئ وادع، يعرف معنى النظام، ويدرك قيمة الطاعة لأولى الأمر . . والآن تستطيع الانصراف . .

والتفت إلى رجاله قائلاً:

- افتحوا الباب، ودعوة ليمضى فى الطريق حرّاً وحده . .



آه . . . عدت إليك يا ليل القاهرة، يا ذا الأسرار الغريبة . . . يا  
ذا الرموز والأشباح والذكريات والمواويل الحزينة . . . عدت إلى  
الشوارع الخالدة من مئات السنين التي لا تهجرها الخطوات  
العنيدة والسير المستمر إلى الأبد . . . إلى المساجد السامقة بمآذنها  
وقبابها . . . إلى القبة الزرقاء الصافية . . . إلى الرجال الذين  
تجمدت الدموع في مآقيهم، وامتلات قلوبهم بالعزم  
الحديدي . . . إلى الأطفال يا قاهرة المعز . . . وللأطفال في قلبي  
منزلة فريدة تزخر بالحب والحنان والبراءة والحيوية والسعادة  
البالغة . . .

آه . . . عدت إليك يا ليل القاهر . . . يا قلبها الخافق . . . هذا هو  
عهد الله . . . أن أظل أنسج من خيوط الليل المدلهم الدرع الواقى  
لمجلك يا بلدى . . . وأظل أدق أعتاب «المقطم» حتى ينبثق فجر  
المنى . . . ويبدد الشقاء والعناء . . .



اشتعلت النار في قلب «مالوس»، وشعر أن قبضة حديدية تكاد تعتصر عنقه، وتحسس عنقه فلم يجد أثراً لتلك القبضة، ماذا جرى له؟! إنه يكاد يجن، ولم لا يجن وهو الجندي الفرنسي المتصر الذي يقف عاجزاً أمام قوة مملوك هارب، لا حول له؟! . . لو كانت القوة سلاحاً وكرآ وقرأ لاستطاع أن يحسم الأمر، لكن مالوس يتجرع هزيمة من نوع غريب . . يواجهه قوة خفية لا يستطيع الإمساك بها وتدميرها.

أجل . . إن «إبراهيم أغا» يعيش الآن في بيت «برتلمى»، ينعم بالمتعة والسعادة في حضرة «هيلدا» الجميلة، تلك التي تجاهلته منذ أن بزغ نجم إبراهيم . . لقد بذل مالوس جهوداً جبارة في إقناع برتلمى بالقضاء على إبراهيم، لكن برتلمى لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء إصرار هيلدا وتهديدها بقتل نفسها، وحاول مالوس أن يجتذب إليه قلب هيلدا بطرق شتى، لكنها انصرفت عنه، وولت وجهها وقلبها شطرها الأول، فلم

يبقى أمام مالوس إلا أن يتجه إلى إبراهيم، فلم لا يوجه القذيفة الأخيرة إلى ذلك المملوك المطارد؟ . . . وستكون قذيفة من نوع مدمر خبيث . . . إن هيلدا تبدو أمام إبراهيم فى صورة الملاك الطاهر والمحب الولهان، وهى - بالتأكيد - لم تفكر فى سرد قصتها الدامية مع ديبوى على أسماع إبراهيم، لا شك أنها تكتم سرها فى قلبها، وتحاول جاهدة أن تخفى أساها عن فتاها، ولعلها تعيش معذبة تنتظر اللحظة المناسبة التى تستطيع فيها أن تدلى باعترافها مبللاً بدموعها، لكن متى تأتى تلك اللحظة؟ إن مالوس وحده هو القادر على أن يقربها، ويكشف الستر عن كل ما حدث . . .

ولم يضع مالوس وقته هباءً، فقد حاول التقرب والتبسط مع إبراهيم فى الأوقات القليلة التى يجتمع فيها شمل برتلنى وإبراهيم ومالوس، وحاول مالوس - فى الوقت نفسه - أن يبدو وكأن أمر هيلدا وعلاقته بها لم تعد تؤثروا على مشاعر الصداقة بينهم جميعاً، لكنها كانت معركة أقر الجميع فيها - بروح رياضية صرفه - بانتصار إبراهيم، هذا ما بدا واضحاً للعيان . . . غير أن الشعب الجريح لم يكن يستطيع النوم فى هدوء، وكيف ينام مالوس الشاب الذى تركت هيلدا فى نفسه أعماق الأثر؟ . . . إن فى إمكانه أن يطيح برأس إبراهيم، أو يشى به لأولى الأمر من الفرنسيين، لكنه لا يجرؤ على فعل ذلك، إن

معناه ضياع كل أمل فى الفوز بهيلدا، ولهذا كان عليه أن يعتصم بالدهاء والخبث، ويلجأ إلى الدس والخديعة، لعله يضرب عصفورين بحجر واحد: أن يتخلص من إبراهيم، ويحظى بهيلدا فى الوقت نفسه. . ما أبشع ما يقاسى مالوس. . الحقد يشتعل فى قلبه، لكنه يخفى لهبه بضلع تحترق وتتألم، والغيط يدفعه إلى الحماسة دون هواة، لكنه يكظمه، ويكز على أسنانه فى صبر نافذ، ويتهد فى حسرة، وهيلدا تبدو أمام عينيه كالرحيق الحلو الشهى، وهو ظامى جائع لا يستطيع لمسها، ثم يدارى عجزه الفاضح، وغيرته المتقدة، ولم لا يعتصم بالصبر والهدوء أمام أمر عجز السيف عن حسمه؟

و ذات مساء، تأبط ذراع إبراهيم أغاء، وطلب منه أن يتجولا قليلاً فى بعض شوارع القاهرة الآمنة تحت جنح الظلام، فلم يمنع إبراهيم، كأننا يتخبطان فى الحديث عن هنا وهناك، واستغل مالوس الظلام الضامى كى يخفى انفعالات وجهه، ثم تمتم قائلاً:

- أيها الصديق العزيز، لا أدرى كيف أفتحك فى الأمر، إنها تجربة شائكة ثقيلة على نفسى. . ومما يزيد الأمر صعوبة أنك تتوهم علاقة عاطفية بينى وبين هيلدا. . حسناً. . أنا لا أحب المداورة. . أقصد ما أريده صراحة، وأنت كذلك. . إنها أخلاق الفرسان فى كل الدنيا. . ربما تضاب بضربة نفسية قاسية، ولكن هذا أهون من الخديعة. .

قال إبراهيم وقد تلاحت ضربات قلبه:

- أنا لا أفهم شيئاً .

- بالطبع . . لأن هيلدا عمدت إخفاء الحقيقة الشائنة خلف ستار من الدموع والعبارات المعسولة، كي تحتفظ بحبك . . لأنها فعلاً تحبك . . لا أنكر ذلك مطلقاً . . لكن أتعرف شيئاً عن علاقتها بالجنرال ديوى؟ . .

هتف إبراهيم أغا:

- ديوى؟!!

- أجل . . ديوى . . ذلك الذئب الذى سلبها أعز ما تملكه فتاة . . سلبها شرفها . . أتفهمنى؟

- مستحيل . .

قالها إبراهيم فى انفعال، بينما استطرده مالوس:

- لك أن تستغرب الأمر وتستبعده . . لكن كلامى لا

يحتمل الشك . . المسكينة وقعت فريسة ظروف قاسية . . إن

أياها المغرور السافل قواد من نوع رخيص . . أنت تعرفه . .

والجنرال ديوى كان ذا مركز خطير، ودهاء من نوع خبيث . .

وتحت تأثير الخمر والإغراء واليأس والضياع، سقطت

هيلدا . . أجل سقطت هيلدا . .

أمسك إبراهيم بكتف مالوس وصرخ فى انفعال ملحوظ :

- أنت تكذب ..

قهقهه مالوس ، وتردد صدى قهقهاته عبر الظلام الممتد ،

وقال :

- يخيل إلى أنك لم تهتز لسقوط القاهرة كما تهتز الآن

لسقوط هيلدا ..

وسادت فترة صمت ، تتم مالوس بعدها قائلاً :

- ثم مات ديبوى قتيلاً بأيدى الثوار فى شوارع القاهرة ، بعد

أن نفض يده من أمر هيلدا فى تبجح و صفاقه . لقد رفض

الزواج منها ، عاملها كما تعامل الخادم ، دفعنى للزواج منها .

تحركت إليها بالأمر العسكرى .. وأنت تدرك تماماً المهمة

القاسية التى أوكلت إلى .. يالها من مأساة .. لكن المأساة

الأبشع هو أنى تعلقت بها .. لا أدرى كيف .. لم أفقد الأمل

برغم مضارحتها لى بحبك .. ثم عاشت هيلدا حياتها منذ تلك

الفترة وهى مخمورة .. تترنح وتهذى وتدواس كل المقدسات

إلا حبها لك .. لقد عاش فى قلبها .. إننى أعترف .. ولم أكن

أريد أن أقول هذا الكلام كله .. إنه لشيء غريب حقاً ..

أنهمرت الدموع من عيني إبراهيم أغما ، وأخذت جسده

يرتجف من شدة البكاء .. كان وجه هيلدا الجميلة يرتسم فى

خياله ملطخاً بالأوحال، ومن خلفها تبدو صورة أبيها أشبه ما تكون بصورة شيطان قذر . . ووراء ذلك كله آلاف الوجوه الفرنسية اللعينة، وكأنها تقهقه في سخرية وشماتة . .

ثم استدار إبراهيم ناحية مالوس، ورمقه بنظرات نارية، ثم دفعه في عنف وهو يصيح:

- ابعدي عني . . أيها السفلة . . أنتم المستولون عن هذا الشقاء كله . . عليكم اللعنة . .

ثم انطلق إبراهيم مسرعاً في خضم الظلام الكئيب، حتى غيبته ستائره السوداء . .

وبقى مالوس صامتاً فترة، يفكر فيما حدث، وينظر عبر الظلام باحثاً عن الطريق الممتد الغامض الذي سلكه إبراهيم، ثم انفجر ضاحكاً . . كان يضحك في هستيرية، ثم استعاد هدوءه، ولم شعته، ويم وجهه صوب قصر برتلمى . .

عندما رآته هيلدا قالت:

- لقد عدت بسرعة . . أين إبراهيم؟ ترى هل دب بينكما الشقاق؟ . .

قال مالوس وهو يلقي بجسده المضطرب فوق أقرب مقعد:

- لقد ذهب . . وأظنه لن يعود.

هتفت فى قلق :

- ماذا؟

- تلك هى الحقيقة .

- أنت تمزح .

- صدقينى . . لقد كان صديقاً رائعاً بالفعل .

- مستحيل أن يحدث ذلك يا مالوس . . لقد كان هنا منذ

فترة وجيزة ، وكان يتحدث فى مرح وثقة ، لم يكن يبدو عليه

أنه يعانى قلقاً أو عذاباً يدفعه للرحيل . . ترى هل قدمتموه إلى

السجن ثانية؟ تكلم . .

هز مالوس كتفه فى حيرة وقلق :

- أنا لم أستطع تفسير موقفه . . كان تحولاً مفاجئاً . . أكان

يخدعنا؟

لا أدرى . . أم هل أتى من قبل المماليك للقيام بمهمة سرية؟

لا أفهم . . المهم أنه ذهب ولن يعود . . هذا ما أكدته لى .

انقضت عليه هيلدا وقالت وهى تضربه بلكماته الراهنة :

- ولماذا لم تمنعه من ذلك؟! لماذا لم تحضره إلى هنا بالقوة؟!!

إننى أتهمك بالتواطؤ معه . . أنت تتقم منى أيها الخبيث لأنى

احتقرتك ودست عواطفك . . يجب أن تفهم . . لن أكون لك . . مستحيل أن أكون لك . .

ومرت إلى حجرتها، وتناهى أنينها الحزين إلى سمع مالوس وهو يجلس مرتبكاً وحيداً حزيناً فى حجرة الاستقبال، لا يدرى ماذا يفعل .



فى حجرة منزوية بالأزهر الشريف . . جلس إبراهيم ينادمه أساه العميق . . لقد كان حقه على برتلمى أكثر من حقه على ديسوى . . إن خطيئته فى حق ابنته من نوع شاذ غريب . . وهيلدا هى الأخرى . . الذكريات الحلوة . . العهود والمواثيق . . بنت «فرط الرمان» الحلوة الساذجة . . الأحلام الوردية التى يحيا به فى أقاصى الصعيد وعلى سفوح الجبال . . كل هذا ذهب مع الريح العاصفة المحملة بالتراب والأوبئة والخطايا . . تلك الريح التى وفدت من الغرب تتضمن فى ثناياها الأسى والعذاب . . لقد كان يفكر فى قتل برتلمى من أجل خيانتته للأسرة الكبيرة - الوطن - لكنه اليوم خان الأسرة الصغيرة، ابنته الوحيدة . . هذا المخلوق الشائن «برتلمى» لكأنما خلق من كل نقائص الحياة وذرائلها . . فلم يعيش بعد هذا كل؟؟ أليس الموت أبسط عقوبة توجه إليه؟!

لكن الحقيقة المرة تصدم إبراهيم . .

إن برتلمى يعرفه جيداً . . وبرتلمى حوله مجموعة من الرجال اليقظين، فكيف يخترق هذا الحصار المضروب؟ . . إن إبراهيم فى مأزق، ويجب أن يفكر بحذر وروية . . قد ينقض عليه برتلمى فى غفلة ويقضى عليه . . إنه خائن ملعون . . أصبح البقاء فى القاهرة تهاوناً وتفريطاً . . لا بد أن يرحل إبراهيم مرة أخرى إلى الصعيد . . هناك معركة . . وهنا معركة . . لكنهما فى الحقيقة معركة واحدة . . فلسوف يعود إلى «مراد بك» ورجاله ليحارب الفرنسيين . . وعندما تحين الفرصة فلسوف يأتى ثانية إلى القاهرة، لينتقم من رأس الأفعى . . برتلمى اللعين . .



أقبل الحاج مصطفى على حى بولاق فى شغف بالغ، لقد أصبح للحياة مذاق جديد رائع، والحرمان الشديد جعله يوشك أن يندفع لمعانقة كل من فى الشارع، حتى الأشجار والبيوت والحيوانات يجد رغبة عارمة فى لثمها واحتضانها . . إنه لا يشعر برغبة فى النوم أو تناول الطعام، إنه يريد أن يستمتع بكل لحظة وكل كلمة وكل مشهد أمامه . . روحه جائعة لكل الكائنات . . لكأنما الحرية والحب والحياة شىء واحد . . لوحة رائعة يتلاءم فيها جمال الألوان بحسن التنسيق وعظمة التعبير . . لعنة الله عليك يا برتلمى، أيتها اللوحة الملطخة بالسواد . .

قالت زوجه :

- نحمد الله على أن عدت إلينا سالمًا .

أجابها بقوله :

- بل عدت وفي قلبي أظنان من الحقد المتقد.

صاحت في احتجاج:

- ماذا جرى لعقلك يا حاج مصطفى؟ لقد ضحينا بكل ما  
ملكك حتى تعود إلينا، وكنت أعتقد أن ما قاسيناه في غيبتك،  
وما تعرضت له من إيذاء في السجن، سوف يغيران من  
طريقتك في التفكير والتصرف.

قال الحاج وهو يصر على أسنانه من الغيظ:

- أعرف كل ذلك .. لقد تغيرت فعلاً .. آمنت للمرة المائة  
أنه لا حياة بدون حرية، ولا ضمان في وجود المحتلين، ولا  
كرامة بغير الثورة.

هتفت في رعب:

- ماذا دهاك؟!

قال كالحلم وقد شحب وجهه:

- الشياط على ظهري تصرخ بالثأر .. وضحايا الظلام في  
القلعة لهم نداء من نوع غريب أسمعه فيهبز كياني، ويحرق  
مشاعري .. كنا بالنسبة لبرتلمي غير آدميين بالمرّة، مجرد  
حيوانات .. لا .. لا .. أقل من الحيوانات .. أنتم هنا  
تتنفسون وتنامون وتمارسون حياة نظيفة .. إننى أدور بنظراتي

فى أنحاء بيتى الرحب النظيف . . وأشم رائحة الشواء . .  
وأفعل ما يحلو لى . . وهناك . . فى ذلك الوادى الرهيب . .  
القلعة . . مجموعة من الأبرياء يحيون أحط حياة . . سلم على  
الخبابيب يا حاج مصطفى . . لا تنسنا يا حاج مصطفى . .  
دعواتك يا حاج مصطفى . . هكذا كانوا يودعوننى . . كانت  
العيون الدامعة ترمقنى فى أسى ، المصير المجهول المعذب  
يرتسم على الجباه الشاحبة التى هدها الظلام والرعب  
والتعذيب . . ماذا تقولين يا امرأة؟ تريدن أن ألزم بيتى وأتناول  
طعامى وشرابى . . ثم أنام مرتاح الضمير؟ ! يا ليت ! ! صدى  
الأنين يدق أذنى ويتخلل روحى ودمى . .

وحانت منه التفاتة إليها ، فوجد الدموع تنهمر على خديها  
فى صمت ، وبدت لعينيه مسكينة تعسة ، فقال فى رقة :

- ما بيكيك يا زوجتى؟

أجابته قائلة :

- لشد ما أنا سعيدة بعودتك سالماً .

هز رأسه قائلاً :

- أعرف ذلك . .

فأردفت قائلة :

- وهذا لا يعنى أن قلبى قد قُدم من حجر فلا آسى على  
الذين يتعذبون . . لكن إلى متى أظل رهينة الخوف والقلق؟ . .  
إن قلبى لم يعد يحتمل . .

و . . نقرات خفيفة على الباب . . وقدم الحسين، وأخبر أباه  
أن الجنجيهى والشيخ إبراهيم سلامة فى الانتظار . . كان لقاء  
عامراً بالمشاعر الفياضة . . وقبل أن يجلس هتف الجنجيهى:

- ألم تسمع آخر الأنباء؟

تطلعت إليه الوجوه المتلهفة، فاستطرد:

- سوف تضحكون كثيراً حتى تستلقوا على أقفيتكم من  
الضحك . . إنها مفاجأة المفاجآت . .

صاحوا بصوت واحد:

- ماذا؟

- لقد عاد المنجوس «أحمد المدبولى» .

وصاحوا ثانية:

- كيف؟

- لقد استطاع نابليون أن يقبض على الهاريين المصريين فى  
يافا . . وعندما فشل فى احتلال عكا، عاد ومعه بعض الأسرى،

وكذلك بعض السادة الهاربين، وفيهم السيد عمر مكرم،  
وحضرة المحترم أحمد أفندي المدبولي تاجر البارود. . . لقد حضر  
إلى بيته القديم المنهوب وهو يرتجف، على الرغم من حسن معاملة  
نابليون لهم، وإعطائهم وعداً قاطعاً بأنهم لن يمسا بأذى.

قال البشتيلي:

- ولمَ لم يأتِ؟

جلس الشيخ على الجنجيهي، ثم قال وهو يهز رأسه هزات  
متتدة وقال:

- إنه في بيته لا يريم. . . يقولون إنهم قد حققوا معه: هل  
اتصل بأحد من ضباط السلطان أم لا؟ وهل لديه أية معلومات  
عن تحركات تركيا في الشام؟. . . وأخذوا عليه تعهداً مكتوباً  
بالأ يمارس أى نشاط ضد الفرنسيين، وأن يحاول تهدئة  
الجماهير، والإبلاغ عن أية حركات يشتم منها رائحة الثورة.

هز البشتيلي رأسه قائلاً:

- لقد جندوه جاسوساً لهم.

قال الجنجيهي:

- على الرغم من الصداقة التي تربط بيننا وبينه، إلا أنني  
أعتقد أنه على استعداد لأن يبيع أباه للحفاظ على حياته. . . إنه

يخاف السجن والموت أكثر مما يخاف من نار الجحيم . . ورأى  
أن نقطع صلتنا به .

وعلق الشيخ إبراهيم سلامة قائلاً:

- «إنها فتن كقطع الليل المظلم، نجانا الله منها» .

والتقط الجنجيهي خيط الحديث وقال:

- هناك شائعات تقول إن سارى عسكر نابليون قد ترك الديار  
المصرية، وترك نائبه كليبر خليفة عنه؛ نظراً لاضطراب الأمور  
فى فرنسا . . والعائدون من الشام يؤكدون أن الإنجليز والأتراك  
يدبرون أمورهم لغزو الديار المصرية وطرد الفرنسيين منها . .

وكان اتفاق الجميع يكاد يكون تاماً على أن الأيام المقبلة  
تحمل فى ثناياها أحداثاً جساماً، وأن البلد مقدم على أخطار  
بالغة لا يعلم إلا الله مداها . . ثم طلبوا من البشتيلى أن يحكى  
لهم كل ما رآه فى السجن، فأظهر ترددًا وعزوفًا عن ذلك،  
فأراد الجنجيهي أن يستثيره كى يدفعه إلى الكلام دفعاً، فاتهمه  
بالخوف من العيون التى يبثها برتلمى، وتمتم:

- «ليس فىنا جاسوس على أية حال» .

قال البشتيلى وهو يشرذ بنظراته:

- السجن أيها الأصدقاء عالم غريب معزول . . دنيا من

الانحراف والخطايا والانحطاط . . برتلمى أستاذ ضليع من  
 أساتذة السفالة فى العالم . . الأحداث الجارية تخلق مثل هذه  
 الكائنات الشائنة . . وتخلق فى الوقت نفسه رجالاً يرفعون  
 جباههم فى إباء تصدياً لخطايا الطغاة . . وفى السجن أيها  
 الأصدقاء، إما أن تهتز القيم وتضطرب المبادئ أمام أعين  
 المكافحين، أو تزيدهم صلابة وإصراراً . . إنها - بالاختصار  
 - تجربة مريرة عنيفة . . أنين . . دموع . . دماء . . رؤى  
 مزعجة . . يأس مطبق . . ماذا أقول؟ دعوا هذا الأمر؛ فإن  
 قلبى يبكى . . الأيدي العجفاء المعروقة كانت تلوح لى وأنا  
 خارج عبر البوابة السوداء . . الكلمات المتعثرة الحزينة تصدم  
 قلبى . . ما أبشع ظلم الإنسان لأخيه الإنسان! . .

وسادت فترة صمت . . وتربع الجنجيهى فى مكانه،  
 ووضع يده اليمنى على يمين وجهه، ثم تنحنح وسعل واستعاذ  
 بالله من الشيطان الرجيم، وسمى باسم الله الرحمن الرحيم،  
 وأخذ يترنم:

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

والجميع صامتون يتمايلون فى تأثير وهم يستمعون إلى  
 صوته الرحيم يرتل آيات سورة يوسف.

كان برتلمى يثق بقوة نابليون أكثر من ثقته بأى شىء فى الوجود، إنه نوع آخر من العبادة، لأنه ليس مجرد تعشق للبطولة والأبطال، وقد كاد يسقط انهياراً عندما علم برحيله إلى فرنسا. وعاد برتلمى إلى البيت صاحباً حانقاً، وهو يهتف:

- إن هذه الثقة المفرطة بالنفس التى يعتصم بها الفرنسيون قد تجاوزت حدودها، وقد تجلب عليهم الويال . . كيف يسافر نابليون بعد هزيمته أمام أسوار عكا، وبعد أن ضحى بالكثير من الجنود؟! إنه يسافر دون أن يساوره أدنى شك فى احتمالات المستقبل . . وهذا خطأ . . ليس بين القواد من يستطيع أن يحل محله، أو يفكر تفكيره الممتاز . . هذا الذى يهزأ بالهزائم، ويحيلها إلى نصر، والذى لا تستطيع أقوى النكبات أن تنال من أحلامه وطموحه . . وهيهات أن يكون كليبر مثل نابليون! . .

قال مالوس الذى يجلس قبالة:

- إن لكبير ماضياً عظيماً، لقد حقق انتصارات كبرى فى أوربا . . ثم إن نابليون قد يعود ثانية، ولسوف يكون أكثر تقديراً لظروفنا فى مصر، ولن يتوانى عن إرسال النجيدات والمؤن والذخيرة اللازمة .

هزّ برتلمى رأسه وقال:

- إن رحيله خسارة كبرى مهما كان الأمر . . فالأعداء يحيطون بنا من كل جانب . . الأتراك . . الإنجليز . . الثوار فى مصر . . المتسللون من أنحاء العالم العربى والإسلامى . . .

وخرجت هيلدا محتقنة العينين وقالت بصوت مرتعش:

- أين ذهب إبراهيم؟

قال أبوها:

- لقد رحل نابليون . .

صاحت:

- إلى الجحيم . . إننى أسأل عن إبراهيم . .

أجابها:

- إن ما نقاسيه من حيرة بسبب رحيل نابليون أهم بكثير من

---

فتى شريد كإبراهيم . . لقد تركك وهرب . هذا كل ما فى الأمر . . اتخذك النذل وسيلة لتحقيق أطماعه ، محاولاً الكشف عن أسرارى . . كان غباء منى أن أفتح له بيتى . . لكن ماذا كنت فاعلاً أمام إلحاحك؟ . . لو فكرت يا ابنتى بروية لما خدعنا هذا الصعلوك المتمرد . . وأخيراً تأتين لتسألى عنه ، وكان الأحرى بك أن تبصقى على ذكراه وأدعاءاته فى الحب والإخلاص .

قالت فى انفعال :

- معذرة يا أبى ، لم أعد أثق فى كلامكم .

تدخل مالوس قائلاً :

- يجب أن تهدئى يا هيلدا . . أنت توجين إلينا اتهاماً خطيراً . . ثم لا تنسى أنك تخاطبين أباك . . يجب أن تضعى هذا فوق كل اعتبار .

قالت هيلدا :

- وما ذنبى؟؟ أنتم تدفعوننى إلى التشكك فى كل شىء ألم تخبرنى أنه قدمات ، وأقسمت على ذلك؟ . . ثم ها هو قد عاد . . أنتم تحكمون على الأمور حسب هواكم ، من وجهة نظركم البحتة . . وبدون أن تمضى الحياة حسبما ترغبون متجاهلين إرادة الآخرين وأمانيتهم . . فمعذرة إن كنت أشعر

بهوة ساحقة تفصل بينى وبينكم ، حتى لكأنى غريبة هنا عن كل شىء .

احتقن وجه برتلمى وصرخ :

- لا .. لا .. هذا كثير .

قال الكابتن مالوس :

- يجب أن تعتذرى لأبيك ..

زمت شفيتها وقالت :

- إننى أستطيع أن أقول كلاماً كثيراً من طرف اللسان ، لكن ما قيمته؟ إنه خداع رخيص ، وأنا أكره الخداع ، ومن ثم فلا يمكن أن أغش أبى ، إننى ببساطة أعبر عن حقيقة مشاعرى .

قال مالوس :

- حتى ولو سببت إيذاءً وجرحاً لمشاعر الآخرين؟

- عزائى أننى أقول الحقيقة ، فإذا كان قولها يؤذى فما

ذنبى؟ إن الذنب ليس ذنبى .

وأعطتهم ظهرها وانصرفت ، وعادت إلى حجرتها حزينة

كثيبة ، تستشعر فراغاً رهيباً ، يمتد أمام خيالها المكدود كليل

طويل صامت محير ، تحوطه الألغاز والخيارات المرعبة ..

لشدّ مال أصبحت الحياة ثقيلة سمجة ، لم تعد تجد العزاء لدى أيها الغريب الطباع والأطوار ، وليس فى إمكانها أن تأنس لمالوس ، ثم إنها تتجرّع صحبة المرأة التى جذبها أبوها من سوق الرقيق الأبيض على الرغم منها ، فأين الصدر الحنون الذى تأوى إليه ، وقد رحل إبراهيم فى ظروف غامضة مريبة؟ . . إن قلبها يحدثها أن هناك مؤامرة دنيئة دبّرت بليل ، وأن وراء المؤامرة خسة أيها ونذالة مالوس . . وهيلدا لن تتقبل الطعنة ، لسوف تحاول مرة واحدة أن تستغل دهاءها . . إنها تريد الوصول إلى الحقيقة التى تكمن وراء اختفاء إبراهيم المفاجئ؛ لأنها لا تؤمن بما زعموه عن دوره المشبوه إن إبراهيم ليس جاسوساً ، ولنفترض أنه كذلك ، ليكن . . فهو يؤدى واجباً وطنياً . . ومع ذلك مستحيل أن يختفى هكذا فجأة . . لقد كانت البسمة فوق شفّته ، وكانت السعادة بادية على وجهه يوم أن خرج . . أى تحوّل خطير أصابه؟ . .

تسلل الكابتن مالوس إلى مخدعها ، فقالت فى شىء يشبه الغضب عندما رآته :

- ما الذى أتى بك إلى هنا؟

قال فى تذلل :

- إنه حبي يا هيلدا . . تعرفين أنني خادمك المطيع ، وأنتى على استعداد لأن أفديك بروحى يا أحب إنسان فى الوجود .

قالت وهى تغتصب ابتسامة شاحبة :

- ألهذه الدرجة؟!!

أجابها قائلاً :

- إننى أعبدك يا حبيبتى . . أحبك برغم ما فىك من عناد وكبرياء وتجاهل بالنسبة لعواطفى الفياضة . . كنت أتقبل الإساءة بصدر رحب ، والحب يغفر الكثير يا هيلدا . . ما نظرتُ إليك قط على أنك مجرد متعة زمنية . . أنت حياة كاملة بالنسبة لى ، لقد اتسعت روحك حتى شملت الوجود من حولى فلا أكاد أتنفس إلا عبيرك ، ولا أرى أمام عينى وفى خيالى إلا صورتك الجميلة . . .

تنهدت قائلة :

- تتحدث وكأنك تقرأ فى كتاب أحد الروائيين فى فرنسا ، يا مراهقى مراهقى الكبير . . هل نسيت أنتى امرأة لها ماضٍ؟؟

قال مالوس :

- إن الحاضر الجميل الذى أعيشه إلى جوارك ، فى بوقتته الماضى والمستقبل ، حت أصبح حاضرنا بلا حدود .

- إنها كلمات شاعر .

- هل حدث فى سابق علاقتى بك ما يشكك فى مشاعرى؟

قالت هيلدا :

- إننى أستطيع أن أسمع هذا الكلام من أى معجب بجمالى .

هتف فى إصرار :

- كلا . . .

ضحكت فى خلاعة وقالت :

- وما دليلك؟

تردد قليلاً ثم قال :

- لا أستطيع .

- لماذا؟

- قد تغضبين .

- أعدك بالأأغضب . . إننى أميل إليك يا مالوس ، فلا

يصح أن تخفى عنى شيئاً . . إن كلماتك الغنية بالعواطف

الملتهبة تجعلنى أعيد النظر فى أمرى .

صمت برهة ، وعيناها ترمقانه فى لهفة ، ثم قال :

- ليس ما حدث نذالة منى على أية حال؛ لقد كان الدافع نبيلاً، وهو أنني أريدك لنفسى . . ومع ذلك فقد كشفت لى التجربة عن حماقة، «إبراهيم أغا» وكذب ادعاءاته نحوك.

- ماذا تعنى؟

- أعنى . . أعنى . .

- قل لا تخف .

قال مالوس وقد احتقن وجهه وارتعشت أطرافه :

- حسناً . . اعذرينى . . إن الغيرة قاتلة . . لقد أخبرته بما حدث بينك وبين الجنرال ديبوى . . فشار ثورة عارمة، وسبّ ولعن، ثم ولى هارباً وقال إنه لن يعود ثانية .

هتفت فى انهيار :

- أنت؟!!

- أجل يا حبيبتى . . لم يستطع المافون الأحمق أن يغفر لك مثلما فعلت أنا الآن . . وهذا هو دليلى على إخلاص وصدق كلماتى .

صرخت وهى تصرُّ على أسنانها فى غيظ قاتل :

- اخرج من هنا أيها الوغد السافل .

- ماذا؟!!

- قلت لك .. اخرج .. وإلا حطمت جمجمتك بحذائي! ..  
وانسحب مالوس، والعرق الغزير يتساقط على وجهه ويبلل  
قميصه، كان يمشى كالتائه المذهول .. وقابله برتلمى قائلاً:

- ماذا جرى؟

فروى مالوس القصة بتفاصيلها لبرتلمى، وكان مفاجأة له  
أن يحتقن وجه برتلمى، ويبدو الغضب على وجهه ويصيح:

- ماذا؟! هل جنت؟! أنسيت أنها ابنتي؟؟ فكيف تلتخ  
سمعتها في الأوحال؟! ماذا يقول الناس عني وعنهما؟ .. إننى  
أكره إبراهيم أشد الكره، لكنى ما رغبت قط فى أن يعرف  
الحقيقة .. إنها مسألة كرامة أيها الطفل الغرير .. والآن  
تستطيع أن تغادر بيتى دون إبطاء.

وقف مالوس وقد ثارت الدماء فى رأسه وقال:

- أنت توجه إهانة بالغلة لضابط من ضباط الجيش  
الفرنسى، ثم لا تنس أنك تسترت على مملوك هارب.  
قهقه برتلمى قائلاً:

- هذا لا يخفى عني يا عزيزى .. إننى أتصرف حسبما  
تقتضيه مصلحة الجيش الفرنسى، وقد كان فى نيتى أن أستغل

«إبراهيم أغا» فى عمل يخدم به فرنسا . . لكن حماقتك هى  
التي جعلته يفلت منا قبل أن تتم خطتنا . . لقد كنا نريد أن  
نسوى علاقتنا مع المماليك عن طريقه ، ونضمهم إلى صفوفنا ،  
لكنك تصرفت فى رعونة ومن ثم فلا بد من محاسبتك بشدة . .  
والقيادة العليا كانت تعلم كل شىء . . لسوف أبذل جهدى  
للبحث عن إبراهيم أغا ، لكنى سأطلب من القيادة معاقبتك .  
طأطأ الكابتن مالوس فى أسى ، ثم انصرف محنتاً . .



أعاد كليبر النظر فيما حوله، محاولاً تقييم الموقف تقييماً دقيقاً، ماذا رأى؟ الترك والإنجليز يتحفزون، الشعب المصرى لا يكتنُّ له ولجنوده سوى الكراهية، وبالتأكيد سوف يتعرض الفرنسون لمعركة عاصفة قد تقضى على زهرة شبابهم ومشاهير قوادهم. . إن القائد الذى لا يفكر فى أبعاد المعركة واحتمالاتها قائد فاشل؛ إذ ليست المعركة كراً و فرأ فحسب، وإنما تحكمها الظروف والأهداف والنتائج، وما جدوى أن تخوض معركة فاشلة؟

واجتمع كليبر مع نخبة من ضباطه، وكان بينهم «برتلمى الرومى»، قال كليبر:

- أيها السادة الأصدقاء. . إن مصر - بالرغم من السكون الظاهر الذى شملها - لا تعتبر إلا مذعنة لحكم القوة، والشعب المصرى موزع الفكر، قلق على مصيره، ولا يرى

فينا - مهما فعلنا - إلا أعداء مُلكه وماله، وقلبه متجه دائماً إلى الأمل في حدوث الانقلاب الذى يتوقعه .

تتم برتلمى لنفسه قائلاً: دون أن يسمعه أحد:

- «آه . لقد صحّ ما توقعته . . إننى أشمُّ فى كلامك أيها الخائف رائحة الجبن» . .

قال رئيس أركان حرب الحملة «الجنرال داماس»:

- ماذا يعنى سيد القائد؟

- أعنى أننى أفكر فى البشر فى هؤلاء الجنود، قبل أن أفكر فى أى مجد شخصى .

قال برتلمى:

- كلنا فداء فرنسا .

قال كليبر:

- نحن فرنسا . . إن الوطن ليس مجرد رقعة أرض . . إنه مجموعة البشر القاطنين فيه، بآمالهم وأفكارهم ونضالهم . . وللتضحيات أهدافها وغاياتها النبيلة . . لم أكن لأقول هذا الكلام لو كان العدوان يقع على الوطن الأم . . إننا أتينا هنا لنتفتح أسواقاً جديدة، ولنحقق مجداً قومياً . . من أجل مَنْ؟ من أجل الفرنسيين، وليس من المعقول أن نضحى بهم من

أجل المجد الذي ننشده لهم . . ثم إن حملتنا جاءت إلى هنا مبكرة بعض الشيء . . لقد كنت من أنصار غزو مصر في الماضي ، غير أنه تبين لى أن الوقت لم يحن بعد لذلك .

وصمت برهة ثم قال :

- إننى أخسر الكثير من سمعتى الحربية ، حينما أعلن أمامكم الآن أننى على استعداد للتفاوض مع الأتراك والإنجليز ، على أساس الجلاء بقواتنا ومعداتنا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

قال برتلمى :

- إن هذا الموقف قد يُغضب حكومة الدير كتوار فى فرنسا .

قال كليبر :

- لا تنسَ يا برتلمى أن نابليون كان يفكر فى شيء من هذا القبيل ، ولعلنى لا أذيع سرّاً حينما أقرر الآن أنه قد أرسل رسالة بهذا المعنى ، وهو فى مصر إلى السلطان فى تركيا وإلى حكومة الدير كتوار .

واحتدم الجدل بين رجال القيادة ، فالضباط المتحمسون يرفضون المفاوضات ويصرون على الاستمرار فى احتلال مصر ، ويرددون وعد نابليون بإرسال المدد والمؤن والذخائر ، والعقلاء يميلون لرأى كليبر ويؤيدونه ، وطائفة ثالثة جلست

ترقب المناقشات فى حيرة لا تعرف أية وجهة تتخذها . .  
وهتف برتلمى وهو يرتجف من الغيظ :

- لقد ضاع كل شىء إذن . . إننا بذلك نتنكر لشهادتنا  
الأبطال وللدماء الغالية التى سالت على ثرى وادى النيل ، فى  
المدن والقرى والوديان والجبال ، ونعطى فرصة عظمى  
للشامتين والحاقدين .

هز كليبر رأسه ، وهو يسدد نظرات ثابتة نحو برتلمى ، وقال :  
- إننى أعنى ما أقول يا برتلمى ، وكل الاعتبارات واضحة  
فى ذهنى تمام الوضوح . . من الخير لنا ولفرنسا أن نجلو عن  
وادى النيل ، انتظارا لفرصة أخرى . . .

قال برتلمى فى إصرار :

- معذرة سيدى الجنرال ، إن الجلاء كارثة كبرى .

وبانت علامات الاهتمام والإصرار على وجه كليبر وهو  
يقول :

- برتلمى . . أنت لا تفكر فى مجد فرنسا بقدر ما تفكر فى  
نفسك .

كاد برتلمى يصعق من هذه اللهجة الحازمة ، بل إن الحقيقة  
المرّة التى صدمته هى التى أذهلته ، لا يفكر إلا فى نفسه !! يا

للكارثة أهذا هو رأيهم فيه؟ . . إنه أيضاً رأى ابنته هيلدا، تلك الشيطانة الصغيرة .

ثم التفت إلى كليبر وقال :

- سيدى القائد، إننى أضحى عن عقيدة بكم، وأبذل كل ما فى وسعى عن طيب خاطر قبل الحملة وأثناءها . . وسأظل على عهدى مهما كانت الأحوال .

وأدرك كليبر قسوة العبارة التى وجهها إلى برتلمى، فعاد يقول :

- إن فرنسا تدرك خدماتك العظيمة، وستضع على صدرك أرفع نياشينها، لكننى أفكر فى الجلاء لاعتبارات عليا . . ألم أقل لك إن الجلاء على يدي سوف يؤذى سمعتى الحربية أشد الإيذاء؟ . . أنت كذلك . . هؤلاء الضباط والجنود سيتعرضون لنفس الأذى . . لكن الاعتبارات الإنسانية والسياسية تملئ علينا تصرفات لا نستطيع الهروب منها يا برتلمى .



مضى برتلمى فى شوارع القاهرة الواسعة يترنح، ضباب كثيف يخيم على رأسه، إنه يرمق السائرين فى الطرقات بنظرات نارية، هل سيأتى اليوم الذى يعجز فيه عن أن يصدر أوامره فتنحنى الرءوس، وتضرب الأعناق، وتلهب السياط الظهور،

وُسَاقِ النَّاسِ أَفْوَاجًا إِلَى السَّجُونِ الدَّامِيَةِ؟ ! لَنْ يَقِفَ الْأَذْلَاءُ  
بَيْتِي يَذْرَفُونَ الدَّمْعَ وَيَطْلُبُونَ الصَّفْحَ وَالْغُفْرَانَ . . وَالكَارِثَةَ  
الْكُبْرَى ، هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْقَى هُنَا بَعْدَ رَحِيلِ الْفَرَنْسِيِّينَ؟ إِنْ كُلُّ  
شَيْءٍ يَنْهَارُ . . نَبْوءَاتِ الْمَلْعُونَةِ الصَّغِيرَةِ هَيْلِدَا تَتَحَقَّقُ . . فَقَرَاءَةُ  
الْقَاهِرِ الَّذِينَ يَهْرُولُونَ حُفَاةَ أَشْبَاهِ عَرَاةٍ يَنْتَصِرُونَ . يَا  
لِلْمَهْزَلَةِ! . . شَيْخُ الْأَزْهَرِ سَوْفَ يَسِيرُونَ فِي مَوَاكِبِ النُّصْرِ  
رَافِعِينَ الْأَعْلَامَ ، وَالطَّبُولُ تَصْمُ الْأَذَانَ . . نِدَاءَاتِ الْغَوْغَاءِ «اللَّهُ  
أَكْبَرُ . . اللَّهُ أَكْبَرُ» يَتَرَدَّدُ صِدَاهَا فِي الْأَفَاقِ . . مَاذَا جَرَى؟ أَيْمَكُنْ  
أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ؟ إِنْ الْمَوْتُ لِأَهْوَنِ مِنَ الرِّضَى بِهَذَا الْهَوَانِ ،  
لَسَوْفَ أُسْطَرَّ رِسَالَةٌ إِلَى نَابِلْيُونٍ وَإِلَى حُكُومَةِ الدِّيْرِكْتَوَارِ أُشْرِحُ  
فِيهَا الْأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ . . أَمْ أُنْدَسُ فِي صَفُوفِ الْفَرَنْسِيِّينَ  
الْمُتَحَمِّسِينَ وَأَحْرَضَهُمْ عَلَى عَصِيانِ كَلْبِيرٍ وَالانْتِصَامِ لِمُنَافِسِيهِ ،  
وَرُكْلِهِ خَارِجَ الْقِيَادَةِ؟ أَمْ أَنْضُمُ إِلَى ثَوَارِ الْقَاهِرَةِ وَأَتْرَاكِيهَا  
وَمَمَالِيكِيهَا قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ؟ لَا . . لَا . . هَذِهِ أَحْتِمَالَاتُ  
سَخِيفَةٍ . . إِنِّي أَشْعُرُ بِالِاخْتِنَاقِ . . إِنْ السِّيَاطَ الْحَارِقَةَ لِأَهْوَنِ مِنَ  
هَذَا الضِّيْقِ الْقَاتِلِ الَّذِي أَعَانِيهِ . . مَاذَا أَفْعَلُ يَا رَبِّي؟ أَشْعُرُ أَنْ  
الطَّرِيقَ أَمَامِي مَغْلُوقٌ ، وَفِي نَهَائِيهِ تَنْتَضِبُ أَشْبَاحُ الْخَوْفِ وَالْيَأْسِ  
وَالْعَذَابِ وَالضِّيَاعِ . . إِنَّهُ عَقَابٌ لَا مِثِيلَ لَهُ فِي الْوُجُودِ . .

وَدَخَلَ بَيْتَهُ مَتَوْتِرًا شَاخِبَ الْوَجْهِ ، وَهَتَفَ وَالدَّمْعُ فِي

عَيْنِيهِ :

- إلى يا هيلدا الحبيبة . . إن أباك يوشك أن يقضى نحبه .

أت هيلدا مهرولة، وهى تقول فى لهفة:

- ما بك يا أبى؟

- أشعر بألم خانق فى صدرى .

ووضع يده على صدره اللاهث وقال:

- ليتنى أموت كى أستريح مما أعانيه .

قالت هيلدا:

- أنا لا أفهم شيئاً . . إذا كنت مريضاً فلماذا لا تستدعى

كبير أطباء الحملة «المسيو ديـجنت»؟

قال فى ثورة:

- لعنة الله عليهم جميعاً . . هذا الثور الجبان المدعو كليبر

ينوى الفرار .

- ماذا؟!!

- ألم أقل لك عندما رحل نابليون إن قلبى يحدثنى بأن

المستقبل مشحون بالكوارث؟ . . كليبر يريد التفاوض مع

الأتراك على أساس الجلاء عن مصر . . تصوّرى! . .

تدفقت فرحة مباغثة فى قلبها، فأنعشت روحها، فحاولت

أن تدارى انفعالاتها وقالت:

- معنى ذلك أن يعود الأمر للأتراك والمماليك .

قال برتلمى :

- أجل . . ويعود إبراهيم أغا . . وعلينا - أنا وأنت - أن نتحرر  
أو نرحل مع الراحلين إلى فرنسا . . كى نعيش كلاجئين نضع  
الأحزان والوهم والذكريات . . مستحيل أن يحدث ذلك يا  
هيلدا .

لم تستطع هيلدا أن تعلق بشيء على الفور، لكنها قالت  
بعد فترة صمت :

- لعل ظروفًا قهرية تدفع كليبر للتفكير فى الجلاء .

صاح فى انفعال :

- أنت تتحدثين مثله تمامًا، أية ظروف تلك؟ إنه يريد  
الهروب بجلده؛ لأنه جبان، ولأنه لا يريد أن يدفع ضريبة  
المجد، ثم إنه خلق آخر غير نابليون العظيم . . إن هذا المأفون  
سوف يفرض بجلده، لكن سوف يلتصق به عار الأبد .

طأطأت رأسها فى خشية وتمتمت :

- أنت تتكلم يا أبى كمحارب شجاع، وهو يتصرف

كسياسى لبق .

قال بحدة :

- إنه جبان ولا شيء غير ذلك ..

وطرق الباب أحد الخدم، ثم قال بصوت خفيض:

- إن مالوس ينتظر الأمر بالدخول.

صاح برتلمى:

- ما الذى أتى بهذا المجنون التافه؟! لقد أمرته ألا يعود إلى

هنا ثانية ..

ثم تنهد فى غيظ وقال:

- لكن .. دعه يدخل ..

ثم التفت إلى هيلدا قائلاً:

- إذا لم يكن لديك مانع.

قالت هيلدا فى حزم:

- إن وجوده كعدمه .. لقد انتهى أمره بالنسبة لى.

دخل مالوس، يصفى الشحوب على وجهه غلالة شفاقة لا

تخفى انفعالاته، وقال بصوت مضطرب:

- معذرة إن كنت قد أتيت فى وقت غير مناسب.

قال برتلمى:

---

- اجلس أيها المجنون، ولا داعي لهذا الارتباك .. هل علمتَ ما حدث الليلة؟ ..

قال مالوس، وقد شعر بقليل من الارتياح:

- ماذا؟

- القائد الهمام كليبر ينوى الجلاء.

- الجلاء! ..

- أجل، لسوف تبدأ المفاوضات مع مندوب الصدر الأعظم .. وسينتهى كل شيء .. أجل كل شيء .. ما كنت أتصور أن الجنود التي دوّخت أوربا، وحققت الانتصارات المذهلة، سوف تنهار هكذا فجأة وتستسلم! .. أنتم تطعنون أصدقاءكم، وتبعثون السعادة في قلوب أعدائكم.

قال الكابتن مالوس:

- لا أعتقد أنه قرار نهائي، إن باريس لا بد أن يكون لها رأى، ونابليون هو الآخر رأيه فوق كل اعتبار، والمفاوضات قد تطول وقد تفشل، وقد تجر أمور تفسد كل التخطيطات .. أشياء كثيرة رأيناها طوال المعارك المتعددة خلال السنوات الماضية.

رمقه برتلمى بعين ذئب، بعد أن انصرفت هيلدا، ثم قال :  
- مالوس، أنت تتكلم بمنتهى العقل والاتزان، لأول مرة  
أسمع الليلة كلاماً يبعث فى نفسى شيئاً من الراحة  
والاطمئنان . . إذا لم تفسد الأقدار مخططات كليبر، فعلينا  
أن نفسدها نحن، من أجل سمعة الإمبراطورية، ومن أجل  
مجد فرنسا.

وأخذ برتلمى يقهقه، ثم صاح طالباً الخمر والطعام، وقد  
شعر برغبة شديدة لأن يلتهم عشاءه التهاماً.



تمتم الحاج مصطفى البشتيلي شارداً:

- «لك الملك وحلك يا صاحب الحَوْل والطَوْل».

- لقد وقّع الفرنسيون اتفاقية الجلاء مع الأتراك، وأخذ المماليك والأتراك يتدفقون إلى المدن والأقاليم والقاهرة.. من كان يظن ذلك؟ لكن الرواية لم تتم فصولها يا زوجتى.. تصورى منذ أن قدم الأتراك وهم يمارسون سلطاتهم القديمة فى تبجح وغطرسة، وكانهم لم يتلقوا درساً قاسياً.. إنهم يفرضون الضرائب، ويبدلون الوعود، ويشمخون بأنوفهم التى مرغها نابليون فى الرغام، سيعيدون المأساة، من جديد، صدقيني يا زوجتى.. الناس فى الشوارع لا يستشعرون مذاق الفرحة الحقيقية؛ إذ ما معنى أن يرحل طاغية، ويأتى الطاغية القديم؟! المماليك أتباع مراد بك وإبراهيم بك قد أقبلوا من الصعيد ومن ناحية الشرق، ليعودوا إلى أماكنهم ويمارسوا سلطانهم القديم.. والشعب، الشعب صاحب التضحيات الذى قاسى

وتعذب وبذل الكثير، يرقب الأحداث فى قلق وأسى . . لسوف  
يرحل الفرنسيون دون أن أشفى غليلى منهم . .

قاطعته زوجه قائلة :

- عجيب أمرك يا حاج مصطفى، ألا تحمد الله على  
رحيلهم؟! أم تراك تريد أن تشعل نيران الحرب حتى تثار  
لنفسك وللضحايا، إن هزيمتهم هى العقاب الإلهى . . وكفى .

وهمست زينب فى حزن :

- ستعود المياه إلى مجاريها، لكن «مصطفى الفرماوى» لن  
يعود . . لسوف تدق طبول الحرية والنصر وهو راقد فى قبره لا  
يشعر بشىء .

ربت على كتفيها فى حنان وقال :

- لا تحزنى يا ابنتى . . إنه أدى دوره كأروع ما يكون  
الأداء، ولا شك أن ما سينعم به الناس من الحرية والكرامة  
كان من صنع يديه ويدي أمثاله، ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ  
عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] .

وانبرى الحسين قائلاً :

- يجب أن تستمر المعركة ضد الأتراك والمماليك؛ حتى  
تخلص بلادنا لأصحابها الحقيقيين، ولقد سمعت السيد عمر

مكرم يتحدث بشيء من هذا القبيل ، ومن ثم فلا سلام ولا  
اطمئنان قبل سنوات من الصراع والتضحيات .

هزّ الحاج مصطفى رأسه قائلاً :

- هذا عين الصواب .

لكن صوت على الجنجيهى يتردد فى أروقة المنزل قائلاً :

- يا ساتر . . أين أنت يا حاج مصطفى؟ . .

وتقلدون فتضحك الأقدار وعند جهينة الخبير اليقين

هرول إليه الحاج مصطفى قائلاً :

- ماذا وراءك من أخبار؟

قال الجنجيهى وهو يشدّ على يد الحاج مصطفى مصافحاً :

- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] صدق الله العظيم . . إن ما حصلت

عليه من أخبار سوف يهزّك هزّاً .

- ماذا؟؟

- خذ عندك . . نقض الأتراك المعاهدة واشتعلت الحرب

من جديد بين الفرنسيين والأتراك فى الشرق . . والإنجليز

يقبضون على ضباط فرنسا المسافرين عبر البحر إلى فرنسا . .

أنت تعلم أن الإنجليز رفضوا التوقيع على المعاهدة . . هم يريدون استمرار الحرب لشغل فرنسا عن معارك أوروبا . . هذا الخبث الإنجليزي سوف يشعل الحريق مرة ثانية .

هزّ الحاج رأسه قائلاً :

- إن أخبارك خطيرة للغاية .

- هي الحقيقة التي لا مفرّ منها . . لقد صدرت الأوامر الفرنسية الآن بالانسحاب بقيادة كليبر . . الشائعات تؤكد انهزام الفرنسيين في المناوشات الأولى .

شرد الحاج مصطفى بضع لحظات وقال :

- إن صحّ ما تقول من نقض الاتفاقية، وبدء الحرب، فإنني أعتقد أن جولة حاسمة دامية ستدور رحاها على أرض الوطن . . فلتنطلق الثورة من جديد، هذا أنسب وقت . . فلتنطلق الثورة . .

وخرج الحاج مصطفى كالمجنون يصيح في الناس، وينادي في الأسواق، ويحرّض على الانقضاض على الفرنسيين، فتجمهر أهالي بولاق بصورة لا مثيل لها، ويصيح الحاج مصطفى :

- «أقيموا المتاريس . .

جهّزوا المدافع . .

أقيموا مصانع البارود» . .

وجاءت الأنباء تترى، إن الشيخ عمر مكرم والسادات والسيد أحمد المحروقي شيخ التجار، والشيخ الجوهري، قد صاحوا صيحة الثورة في الأزهر وشوارع القاهرة، حتى لكأنما كان جميع الناس على موعد . . المحروقي يبذل ماله من أجل دفع ثمن المأكل والمشرب للشوار . . الأثرياء والمماليك يرون بأعينهم خوارق مذهلة لم تكن تخطر على بالهم، فينضمون للشوار . . إنهم يبحثون عن الكفة الراجحة كي يميلوا نحوها . . ويتجه «المشتولى» على رأس الشوار صوب ساحل النيل، حيث ترابط مجموعة كبيرة من القوات الفرنسية، وينقضون عليهم . . إن مدافع الفرنسيين وقنابلهم لدى الساحل لا تغنى قليلاً . . إن طوفان البشر الثائرين يغرقهم في جحيمه؛ حتى يسقطوا صرعى عن آخرهم، ويحتل الشوار الموقع . . ويتنادى الرجال في أرجاء بولاق العامرة «الله أكبر» . . فيتردد صدى الهتاف القوى في الآفاق .

ويتسلل «أحمد المدبولي» صديق البشتيلي القديم، وتاجر البارود، وعندما يلتقى بالحاج مصطفى يمسك بيده ويهمس:

- أين عقلك يا حاج مصطفى؟ هل علمت ماذا جرى؟ لقد سحق الفرنسيون قوات الأتراك في «عين شمس» . . إن

الفرنسيين لم يُهزموا بعد، فإذا ما عادوا متصرين أذاقوا الثوار الهوان، وارتكبوا أبشع ألوان الانتقام.. يجب أن تثوب إلى رشك.

قال الحاج مصطفى ساخرًا:

- أشكرك على نصيحتك الغالية. إننى أفعل ما أوّمن به، لو اجتمع العالم كله لحربنا فلن ألقى السلاح وفى روى رمق.. الفرنسيون الآن يا سيدى بين نارين: الأتراك من أمامهم، ونحن من خلفهم.. وهذا يوم الثأر، فأين يهربون؟ أنت يا مدبولى لم تشعر بألم الشياط، وهى تمزق ظهرك.. كنت تنعم بالهدوء فى يافا، ونحن نخوض فى النار ونخطو فوق حقول الموت.. عد إلى بيتك يا مدبولى، وإلا عاملتك كما يعامل الخونة.. أنفهمنى؟.. عد إلى بيتك..



عشرة آلاف ثائر يهاجمون مقر القيادة الفرنسية فى الأزبكية، فى غيبة كليبر وجنوده الذين يحاربون الأتراك.. القوات الفرنسية المرابطة فى المدينة تتعرض لهجمات الثوار العتيقة.. المتاريس والحواجز والحصون يكمن فيها الثوار يأبون الاستسلام، لكن الحقيقة التى يجهلها البشتلى هى أن كليبر ينتصر.. وينتصر.. ويسحق قوات الأتراك فى عين

شمس . . ويصدر أوامره بملاحقة الجيش التركى المنهزم، وفى الوقت نفسه يصدر أوامره لقواده خارج القاهرة كى يسارعوا لنجدة الفرنسيين المحاصرين فى المدينة . . الخونة يسقطون واحداً إثر الآخر . . إن محافظ المدينة «مصطفى أغا» له سجل حافل بالمظالم والخيانات، ومن ثم فإن الجماهير تتدفق نحو بيته، وتصدر حكمها بالإعدام، فيخر صريعاً، فاغر الفم، جاحظ العينين، أمام الإرادة الشعبية الغلابة التى لا تُقهر . . يوم الحساب . .

لكن نجدات الفرنسيين بقيادة الجنرال «لاجرانج» والجنرال «فريان» تأتى وتصب نيرانها من فوق القلاع والحصون على أحياء المدينة الباسلة، ومع ذلك فالمقاومة تشتد، وخاصة فى باب اللوق والمدايغ والناصرية والقصر العينى والشيخ ريحان وياب النصر وياب الحديد والرويعى . .

ويطلُّ برتلى من شرفة منزله مرتجفاً، على الرغم من الحراسة الفرنسية والأرمنية التى تحيط بيته بالمدافع، ويقول واجف القلب:

- هذا يوم مشثوم يا هيلدا . . الفرنسيون لا يستطيعون اقتحام الحصون، والثوار يناضلون فى عناد . . كل هذا راجع لغباء كليبر الجبان . . ها هو يخوض المعارك الضارية على

الرغم منه . . لو تفوق الثوار يا هيلدا فلسوف تغرق المدينة فى بحر من الدماء ، وسنسقط نحن ضحايا لحماقة كليبر وسوء تصرفه .

قالت هيلدا :

- ولماذا لا نهرب يا أبى؟

- إلى أين؟ الثوار يسدون كل المنافذ . . ومجرد الخروج مخاطرة كبرى قد تكلفنا حياتنا . . لنصبر حتى يعود كليبر إلى القاهرة ونرى ماذا سيفعل . . إنها أعنف ثورة رأيتها فى حياتى . . لم أكن لأتصور أن تثور القاهرة هذه الثورة العارمة ، بعدما لاقت من هوان وحملات تأديبية تكفى لقتل الروح المعنوية تماماً . . لست أدرى من أين انطلقت هذه الإرادة المدمرة . . إن عمر مكرم والسادات والمحروقى وغيرهم ، قد أشعلوا هذا الجحيم ليحرقونا فيه . . آه لو نجونا هذه المرة ، فلسوف يكون انتقامنا مروعاً . .

وعاد إلى مقعده الأثير ، وتجرع كأساً من الخمر ، وقال :

- يقولون إن حى بولاق قد بلغ الغاية فى العنف والانتقام ، وإن الحاج مصطفى البشتيلى ، ذلك الملعون الذى عفوت عنه منذ فترة وجيزة ، قد أفنى جميع الفرنسيين لدى شاطئ بولاق ، ولم يكتف بذلك ، بل هاجم مركز التجمع الفرنسى فى قنطرة

الليمون . . هذا الرجل هو الذى أشعل الشرارة الأولى، لو  
أمكنتنى منه الأقدار فلسوف أعطيه الدرس الأخير الحاسم . .

ثم قهقهه :

- والماليك . . لقد جاءوا ليقدّموا لنا فروض الطاعة  
والولاء، فإذا بهم يتواطئون وينحازون للشوار . . الناس مع  
الغالب دائماً . .

ثم صرخ وأخذ يدق المنضدة بيده المرتعشة :

- لا . . لن نستسلم، لسوف يعود كليبر . . لم أزل أثق به،  
إن فيه بقية من رجولة وحزم . .

وعاد يقول لهيلدا :

- لا تخافى يا عزيزتى . . إننى أدرك ما تعانينه من رعب  
لكن . .

فقاطعته قائلة :

- صدّقنى يا أبى . . أنا لست خائفة . . لا أدرى لماذا، بل  
معذرة إن صرخت لك بأن صياح الشوار فى الشوارع والأحياء  
يهزنى هزاً عنيفاً . . إننى أكره ديوى وكل رجال ديوى .

فصاح وهو يجرع الكأس الثانية :

- وأنا؟ أبوك؟ ألا تفكرين فى مصيرى؟

قالت وهى شاردة :

- ما أروع الأيام الخوالى !!

- نحن هنا يا بلهاء فى أتون المعركة . . ألا تعلمين ماذا يحدث لو انتصر الثوار؟ سترين أباك مصلوباً فى ميدان الأزهر تنهال عليه الأحجار والبصقات واللعنات . . وأنت تحلمين بالأيام الخوالى! . .

وصمت برهة ثم قال :

- فى الثورة الأولى خرجت مع ديبوى . . كنت أشق حشود الجماهير دون خوف، وعندما سقط ديبوى ولّيت هارباً، إنى أعترف، لكننا عدنا من جديد لنسحق المقاومة . . كان نابليون رجلاً رائعاً يتصرف بهدوء وثقة فى أحلك الظروف، ويتزع النصر من بين مخالِب الهزيمة . . لم أستطع أن أتصور هذا الرجل مهزوماً . .

وعب كأساً ثالثة وقال :

- لكن هذه الثورة لها طابع آخر . . تصوّرى، لقد ذهب الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدي والشيخ البكرى، وغيرهم من أعضاء الديوان، محاولين تهدئة الثوار، ماذا كانت النتيجة؟ لقد ضربوهم ونزعوا عماثمهم، ورموهم بأبشع الاتهامات .

بلع ريقه ثم هتف :

- يجب أن يخمد الفرنسيون هذه الثورة بأى ثمن ، لو  
هزمتنا لحلت كارثة كبرى . . الهزيمة معناها أن يؤخذ  
الفرنسيون كأسرى حرب ، وأن يستولى الأعداء على  
سلاحهم ، وأن تُصاب سمعة فرنسا بنكسة مريعة ، وأن يُمثل  
بأعوان فرنسا هنا أبشع تمثيل . . إنه عار الأبد والتاريخ . . ولا  
شك أن كليبر يدرك ذلك . .

\*\*\*

عاد كليبر فى اليوم السابع والعشرين من شهر مارس عام  
١٨٠٠ ، وقد هزم الأتراك فى واقعة عين شمس هزيمة  
نكراء . . وعندما علم برتلمى بمجيئه امتشق سلاحه ، وركب  
جواده وهرول إليه ، فوجده وإلى جواره مجموعة من كبار  
القواد ، وسمعه برتلمى يقول فى هدوء :

- إن انتصارنا على الأتراك قد جعل المعركة الكبرى فى  
صالحنا . . كانت معركة عين شمس الخالدة فرصة ذهبية أثبتنا  
فيها بطولة خارقة ، وكتبنا فى التاريخ الحربى والسياسى صفحة  
رائعة . .

ثم أردف يقول :

- لكن ثورة القاهرة هذه المرة ، أيها الأصدقاء ، فى منتهى

العنف والقوة . . إن الاقتحام مع الشوار لن يؤدي إلى نتيجة طيبة . . لسوف نخسر الكثيرين من الرجال والعتاد، ولن نحقق نصراً سريعاً . . لسوف نلجأ إلى الصبر . . إن عامل الزمن مهم في هذه الأيام . . علينا أن نفرض الحصار على القاهرة، وأن نبذر بذور الشقاق بين صفوف الشعب، وبينه وبين المماليك والأتراك، ثم نضرب ضربتنا في قوة .

قال برتلمى :

- الزمن؟ مستحيل أن يكون في صالحنا .

- كيف؟

- ألا يمكن يا سيدى الجنرال أن يتجمع الأتراك من جديد ويشعلوا الحرب؟

- فلتطمئن يا برتلمى . . لقد سحقناهم سحقاً . . إنهم ينسحبون دون نظام وقد فقدوا الكثير من الرجال والعتاد . . والكرامة . . أتفهمنى؟ . .

قال برتلمى وهو يشمخ بأنفه :

- ما وثقتُ فى هؤلاء الكلاب قط . .

قال كليبر :

- إننى أفهم ما تقول يا برتلمى، إنك تلومنى من أجل

الاتفاقية . . أعرف ذلك ، لكنى أؤكد لك أننى عقدت الاتفاقية من أجل هدف كبير نبيل ، وكنت مقتنعاً بها تمام الاقتناع ، كما أؤكد لك أننى حاولت هذه المرة من أجل هدف كبير نبيل أيضاً ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بما أفعل . . ورُبّ ضارّة نافعة يا برتلمى العزيز . . .

وأراد برتلمى أن يطمئن أكثر فقال :

- وما رأى سيدى الجنرال فى الموقف الراهن؟

قال كليبر وعيناه تبرقان فى ثقة وهدوء :

- النصر لنا يا برتلمى . . ولسوف نعيد النظر فى كل شىء . . لكن الثورة عنيفة ، وتحتاج إلى تفكير أكثر مما تحتاج إلى سلاح ورجال . . وعندما يسقط الثوار ، بفعل الدهاء والزمن والمكيدة ، سيلعب السلاح دوره ؛ لأن القائد العام لا ينسى دماء الشهداء ، ولا بد أن يثار من الذين طعنوه من الخلف مهما كان الأمر . .

وهتف برتلمى فى فرح غامر :

- عاش القائد العام .

وردّد الحاضرون بصوت وقور أجشّ :

- «عاش القائد العام» . .

عاد «إبراهيم أغا» إلى الصعيد، حيث التقى بمراد بك وشرح له حقيقة الأمر في القاهرة. . . . وأدرك مراد بك - من خلال حديث إبراهيم - أنه يميل إلى الانصياع إلى جانب المصريين والتصدى للحملة الفرنسية، فأشاح مراد بك جانباً وقال:

- لا فائدة.

- ماذا تعنى يا سيدى؟

- لا بد من الاتفاق مع الفرنسيين على أساس التعاون معهم مقابل إعطائنا حكم الصعيد.

قال إبراهيم:

- لسوف يلغظ أهل القاهرة بكلام كثير شائن.

- تعنى أنهم سوف يتهمونا بالخيانة؟

- معذرة يا سيدى.

قال مراد بك وهو يتشاءب في ملل :

- لقد دأبنا طوال الفترة السابقة على محاربة الفرنسيين ،  
ماذا كانت النتيجة؟ أنت لا تنكر أننا خسرنا معظم المعارك ،  
إنها معركة ميثوس منها ، فلماذا لا نطلب الأمان ونحقن  
الدماء ، ونرضى بحكم الصعيد خالصاً لنا ، وندفع لهم مبلغاً  
بسيطاً من المال كل عام؟!

تمتم إبراهيم :

- تتكلم يا سيدى وكأن الفرنسيين باقون في مصر للأبد .  
- هل تتصور أن الأتراك قادرون على دحر فرنسا؟ . . إنه  
احتمال بعيد . .

- أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية ، لقد رأيت الناس  
في شوارع القاهرة والضواحي والأقاليم مُصروُن على مواصلة  
الكفاح ، وهذا هو العامل الحاسم في المعركة .

قال مراد بك :

- أوه يا عزيزى . . العامة كمٌ مهمل لا حساب لهم . . لقد  
جربوا حظهم فى ثورة القاهرة ، فسحقهم نابليون سحقاً ، فإذا  
ما عاودوا الأمر فإن كليبر قادر على إعادة الكرة .

ثم عاد يقول بعد فترة :

- إننى أزن الأمر بميزان المكسب والخسارة، وأعتقد أن اتفاقنا مع الفرنسيين واجب تلمية الضرورة. . . ولهذا فأنا لا أذيع سرّاً حينما أقول لك إننى أرسلت الرسل إلى كليبر، والأمور تبشر بخير كثير، ولسوف نرحل صوب القاهرة، وستصل طلائعنا فى شهر مارس على الأكثر. . . إن أغلبية رجال أمثال البرديسى بك وحسين كاشف وغيرهما يؤمنون بما أوّمن به . . .



أوى إبراهيم إلى مخدعه حزينا واجماً، لشدّ ما ألمته كلمات «مراد بك»، ذلك الطاغية القيم يتنكر للوطن الذى آواه، ومدّله فى حبال الرغد والنعيم، واحتمل عسفه ومضايقاته لسنين طويلة. . . إنه يدرس المشكلة متجاهلاً ملايين الجماهير التى تسكن وادى النيل، لا يقيم لها أى وزن، لم يزل يعيش بفكر عقيم، وعقول خربة متخلفة، وينسى أن ثوار القاهرة قد كبّدوا العدو خسائر فى الأرواح والعتاد تفوق ما فعله المماليك عشرات المرات .

ووثبت إلى ذهن إبراهيم صورة هيلدا. . . ذلك الوجه الجميل الملتخ بالعار وبالطين. ياله من حلم رهيب، ويا لها من ذكريات مريرة! . . . مراد بك ويرتلمى، وهيلدا. كله شىء واحد فى نظره لأنهم يرمون بأنفسهم تحت أقدام الغزاة

المتصرين . . يا له من عالم زائف ملئ بالبهتان والضعف والانحلال ! . كانت هيلدا تحدّثه عن الحب والمستقبل ، وكان تغدق عليه من برها وحنانها ما جعله يصدق كل كلمة تقولها ، وكان - وهو فى غربته - يحيا على أمل اللقاء الحلو ، والوفاء الذى لا يزول ، فإذا به يعود ليرى كل شىء فى مدينته الحبيبة قد تغير . . حتى ملاكه الطاهر هيلدا . . والغريب أنها استقبلته استقبالا رائعا أنساه آلام الليالى الطويلة السوداء ، ومسح عن قلبه متاعب المعارك الشديدة . . كانت تؤدّى دورها فى الخداع والكذب ببراعة فائقة ، من يدرى ؟ . . لعلها كانت تنوى تجنيده ضمن رجال أبيها وجواسيسه . . ولم يكن هناك من ملجأ يلجأ إليه سوى العودة إلى الصعيد ، حيث الرجال والجبال والليل والحرب . . لكن للأسف ، لقد عاد فوجد «مراد بك» النذل يلقي السلاح ، ويتزلف للفرنسيين ، ويعزم على الرحيل صوب الشمال ، فماذا يفعل «إبراهيم أغا»؟؟

لا مناص من أن يرحل مع مراد بك ، ويعود إلى القاهرة ، وفى القاهرة سوف يفعل ما يحلو له . . إن مدينته الواسعة الكبيرة سوف تحمى أسراره ، وتغذى مشاعر الكفاح والنضال فى روحه ، وبهذا يستطيع أن يؤدى دوره على أكمل وجه حسبما يرى ضميره الذى استيقظ ، والذى لن يموت ثانية . .

\*\*\*

قام مراد بك ورجاله قرب حلوان، فجاءت أنباء معاهدة الصلح التي عقدها كليبر مع الأتراك، والتي رفض الإنجليز التوقيع عليها، فتردد وأخذ يفكر، إن التحاقه بالفرنسيين فى هذا الوقت عملية خاسرة، فما قيمة الاتفاق معهم وهم على وشك الجلاء؟؟

وطرب «إبراهيم» لأنباء الاتفاقية الجديدة، لأنها - على الأقل - تؤيد وجهة نظره القديمة فى ضرورة الانحياز للشعب؛ لأنه خالد وبق، والغزاة هم الزائلون . . وأرسل مراد رجاله يتحسسون الأخبار، ، وفجأة نقض الأتراك الاتفاقية واحتدمت الحرب من جديد، وقاد كليبر جيشه الضخم لملاقاة الأتراك فى واقعة «عين شمس» الشهيرة، التى دمر فيها قوات الأتراك، وهزمهم هزيمة مرة . . لشد ما حزن «إبراهيم أغا» عندما انتصر الفرنسيون، وأخذوا يعدون العدة للبقاء فى مصر، أما مراد بك فقد أسرع بإيفاد الرسل إلى كليبر لإتمام الصلح . . واندلعت ثورة القاهرة الثانية، وتسلسل عدد كبير من الأتراك والمماليك إلى القاهرة، وكان «إبراهيم أغا» واحد من هؤلاء .

الثورة فى بولاق، فى الأزيكية، فى الناصرية، فى باب الحديد . . فى كل مكان . . و«إبراهيم أغا» يختلط بالشوار الذين يهاجمون مقر القيادة العامة فى الأزيكية، لقد أبلى بلاءً حسناً،

كان يبحث عن برتلمى، لكنه لم يعثر له على أثر . . . ويبحث عن مالوس هو الآخر، لكن لا فائدة، ومن ثم أخذ يسدد طلقاته وضرباتة نحو أى فرنسى، إنه يرى فى كل واحد منهم ديوى أو مالوس أو برتلمى، وجه الغدر والخيانة، هو وجه كل فرنسى أو عميل يؤازرهم . . .

وتصمد المقاومة الشعبية بدرجة مذهلة، برغم النجذات التى يقودها جنرالات فرنسا، وبرغم مقدم كليبر متصراً من معركة «عين شمس»، ويغمغم إبراهيم أغا فى فخر:

- ليات مراد بك ليرى «الكم المهمل» الذى يتحدث عنه، وهو يسحق أعداءه، ويسقيهم كثوس الهوان .

لكن «إبراهيم أغا» يفاجأ بإخوانه من المماليك والأتراك يتجمعون ويهمسون، ويهتف إبراهيم بهم: «ماذا هناك؟؟» فيخبرونه أن الأوامر قد صدرت بانسحاب المماليك والأتراك من معارك الشوار، تلبية لنداء وجهه الوزير التركى الأسير «مصطفى باشا»، و«مراد بك» . . . وقد وقع مصطفى باشا فى الأسر أثناء معركة «عين شمس»، فأحسن كليبر معاملته، ثم حاول استغلاله إبان احتدام ثورة القاهرة الثانية، فحاول الوزير الأسير أن يقوم بدوره الشائن فى خلخلة صفوف الشوار، بعقد اتفاق مع كليبر، ينسحب بمقتضاه الأتراك،

وكذلك قام مراد بك بنفس الدور، بعد تأكده من هزيمة الأتراك . . . وبقى الشعب وحده يناضل في المعركة، رفض التسليم أو المفاوضات، لم يدعن لأوامر أعضاء الديوان أو الوسطاء الذين أوفدهم كليبر . . . وبقيت الثورة مشتعلة الأوار، وبقى «إبراهيم أغا» في مكانه مع الشائرين، مخالفاً بذلك أوامر مراد بك .

وضرب كليبر حول القاهرة حصاراً رهيباً، فشحت الأقوات، وقل الداخلون إلى القاهرة، وأصبح الثوار بين نيران ثلاث: مقاومة الفرنسيين، وغدر الأتراك والمماليك، وضرورة التصرف في حفظ الأمن والحصول على الأقوات . . . وقام إبراهيم بدور كبير في تهريب الأقوات أثناء الليل من القرى القريبة من القاهرة . . . وذات مساء كان يخطو من ناحية باب الحديد، فإذا بمجموعة من الجنود تحيط به، وصاح أحدهم بصوت أجش:

- من أنت؟

ارتبك إبراهيم، لكنه تمالك أعصابه واسترد هدوءه، وقال ضاحكاً:

- إبراهيم أغا . . . أحد ضباط مراد بك .

وسمع إبراهيم من خلفه صوتاً يقول:

- ها نحن نلتقى مرة ثانية أيها الصديق العزيز، ما الذى أتى

بك إلى هنا؟

واستدار إبراهيم ليجد نفسه أمام «برتلمى» وجهًا لوجه،

لقد عرفه على التو، بالرغم من أن برتلمى كان ملثمًا لا يكاد

يظهر من وجهه سوى عينيه الواسعتين، وتتم إبراهيم أغا:

- طاب مساؤك يا سيد برتلمى . . كنت أمضى دون هدف .

وقال برتلمى بعد أن صرف رجاله :

- لشد ما تشوقت إليك، إنها لفرصة ذهبية أن ألقاك هكذا

دون سابق ميعاد . .

قال إبراهيم فى ثبات :

- رب فرصة خير من ألف ميعاد .

قال برتلمى :

- لقد سألت عنك مراد بك، فأخبرنى أنك قدمت معه . .

أنا واثق أن هيلدا ستسعد بلقائك .

همس إبراهيم :

- دع هذا الأمر جانبًا .

قال برتلمى مستغربًا :

- ماذا جرى أيها الصديق؟! إن ما بيننا من عقبات قد انتهى أمرها بعد أن تم الاتفاق بين كليير ومراد بك .

قال إبراهيم في حزن :

- هناك عقبات أقسى وأبشع . .

ارتجف جسد برتلمى فى غيظ وقال :

- أعرف أن الكلب الحقيير مالوس قد أفسد ما بينكما من ود قديم .

- إنها مشيئة الله .

وهدر برتلمى كذئب جريح :

- إن ابنتى أشرف من نابليون نفسه .

ابتسم إبراهيم فى مرارة وقال :

- ليس نابليون مقياساً مثالياً للشرف . . معذرة يا سيدى . . كانت هيلدا فى قلبى وخيالى أتمودجاً عالياً للطهر والنقاء .

قال برتلمى وهو يدق الأرض بعصية :

- ولم تزل يا إبراهيم . . إنها دسيسة خبيثة من صنع مورتور .

- أعتقد أن مالوس كان يكذب؟

- بكل تأكيد .

نظر إليه إبراهيم فى توجس قائلاً :

- أتشك فى كلامى ؟

- لا أعرف ماذا أقول .

قال برتلمى وقلبه يخفق :

- إذن . . هيا بنا .

- إلى أين ؟

- إلى قصرى .

- لكن . .

قاطعته برتلمى :

- لن أقبل عذراً . . لقد تركتنا دون وداع . اعترف مالوس

بكل شىء ، لسوف تبتهج هيلدا ابتهاجاً فوق الوصف عندما

تراك ، وما أظنك تقبل حرمانها من هذه المتعة الفريدة . . إنها لا

تفتأ تسأل عنك منذ عقد الصلح مع الممالك .

وقع إبراهيم فى حيرة شديدة ، ماذا يفعل ؟ لقد أثلج صدره

ذلك النفى القاطع لاتهامات مالوس ، وشعر برغبة جارفة فعلاً

فى لقاء هيلدا ، لكن دوره فى المعركة سيتعطل ، والموقف

حرج ، ولم يجد إبراهيم مانعاً من أن يقطع من وقته بضع ساعات ، ثم يعود ثانية إلى موقعه الحصين بين الثوار .



عندما رآته هيلدا تشبثت به فى استماتة ، وأخذت تقول من بين دموعها الغزار :

- لم أفكر قط فى خيانتك حتى فى أحلك الظروف ، وفى أقدر ساعات عمري ، إن الخطيئة الحقيقية هى التى تركبها وأنت فى كامل وعيك وبكامل إرادتك . . لا أعرف كيف أشرح لك الأمر .

صاح أبوها فى انفعال :

- كفى يا هيلدا . . ليس هذا وقت الشرح . . يجب أن تقدمى لضيفنا العزيز مشروباً ساخناً ، وإذا أراد فلتقدمى له كأساً من النبيذ .

جلس إبراهيم فى هدوء ، وإلى جواره جلست هيلدا وقلبها يعلو ويهبط . . ويرغم الدموع ، فقد كانت تشعر بمتعة كبرى لا تضارعها أعظم متعة فى الوجود .



ونجحت خطة القائد الكبير «كليبر» . . لقد استطاع أن يحاصر المدينة حصاراً قاسياً، كما استطاع أن يحشد الكثير من الجنود والسلاح، وأن يجتذب إلى صفه المماليك والأتراك . . ويمضى ضابطه الجنرال «بليار» إلى الوجه البحرى ليرتكب البشائع فى «المحلة» وغيرها من مدن الوجه البحرى، ويسفك دماء المئات فى «طنطا»، ويستولى على التاج الذهبى للسيد البدوى وزنته خمسة آلاف مثقال من الذهب الخالص، ويفرض الغرامات والإتاوات على علماء الجامع الأحمدى .

وفى اليوم الرابع من شهر أبريل عام ١٨٠٠، يبدأ الهجوم على ثوار القاهرة من ناحية باب الحديد، فتدك المدافع المبانى فى غير شفقة، ثم تحرق البيوت فى غلظة بمن فيها ومن عليها من الرجال والنساء والأطفال، ومع ذلك فإن الفرنسيين

يعجزون عن الوصول إلى مآربهم ، فيهرول «بليار» قادمًا من الوجه البحرى ليدعم قوات الاحتلال برجاله وعتاده وقسوته البالغة .

ويجلس مؤرخ العصر الشيخ الجبرتى ، ليسجل بعض الوقائع بأسلوبه المميز ، ويكتب على الصحائف :

« . . . وصل كليبر إلى داره بالأزبكية ، وأحاطت العساكر الفرنسية بالمدينة ويولاق من الخارج ومنعوا الداخل من الدخول ، والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة ، وقطعوا الحالب ، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، فعند ذلك اشتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمي المتتابع ، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات ، من أعالي التلول والقلعات ، خصوصًا البنبات الكبار ، على الدوام والاستمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، فى الغدو والبكور والأسحار ، وعدمت الأقوات ، وغلت أسعار المبيعات ، وعزّت المأكولات ، وفقدت الحبوب والغلات ، وارتفع وجود الخبز فى الأسواق ، وامتنع الطواقون به على الأطباق . . واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، وشدة البلاء والكرب ، ووقوع القنابل على الدور والمسكن من القلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء من

البيوت، والصغار من الخوف، والجزع والهلع، مع القحط وفقد المآكل والمشرب، وغلق الحوانيت والطواوين والمخازن، ووقوف حال الناس من البيع والشراء . . حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة، ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن، ومقامهم أبدأ بالأزقة والأسواق، وكأنا على رءوس الجميع الطير . . وأما النساء والصبيان، فمقامهم أسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية . . وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته، فضلاً عن جزئياته . .



وكان أمر بولاق يشغل بال الجميع؛ لما ظهر في ثورتها من عناد وعنف بالعين، ولما تكبده الفرنسيون من خسائر جسيمة . . وأقبل برتلمى محتقن الوجه ثائراً، وانحنى أمام كليبر، وقال:

- سيدى . . إن بولاق قد استعصت على قواتنا . . معذرة . . لا بد من عمل ضخم يسكت بولاق؛ لأن سحقها سيكون بداية موفقة للقضاء على باقى الأحياء الثائرة . . ورجالى يؤكدون أن لدى البولاقين رصيماً ضخماً من العتاد والرجال والروح المعنوية العالية.

هز كليبر رأسه فى إصرار وقال :

- لسوف أقوم بمهاجمة بولاق بنفسى .

وشردد برتلمى بنظراته إلى بعيد وقال :

- هناك رجل متوحش ، كان لعب الدور الأكبر فى إشعال الثورة فى بولاق خاصة والقاهرة عامة .

قال كليبر :

- تقصد الشيخ السادات؟

- كلا . .

- الحاج مصطفى البشتيلى . . إنه خصم عنيد فظ . . لست أدرى كيف أفلت من يدي؟ . . لقد قبضنا عليه فى أعقاب الثورة الأولى ثم أفرجنا عنه . .

ليتنى قطعت رقبتة .

- أهو عالم من العلماء؟

- إنه تاجر . . وعالم . . وفلاح . . جن أحمر .

ثم صاح كليبر طالباً الجنرال بليار وقال :

- جهز جنودك . . لسوف نرسل للشوار إنذاراً ، فإذا رفضوه فسوف تهجم بقواتك ، وتنفذ كل أوامرى بدقة . . سنجعل من بولاق العصية عبرة لكل المتمردين .

وجاء رجل من أعضاء الديوان يحمل الإنذار، وإلى جواره  
وقف تاجر البارود أحمد المدبولي، قال عضو الديوان:

- يا حاج مصطفى.. يا أهل بولاق.. إنها إرادة الله التي  
تعلو كل إرادة.. إن الفرنسيات يقفون في الجانب الأقوى،  
ومعهم السلاح والرجال والتفوق الكامل..  
صاح أحد الرجال:

- بل نحن في الجانب الأقوى؛ لأن الله معنا.

قال عضو الديوان:

- لا تقاطعوني.. ليس فينا من ينكر شرف الجهاد،  
والتضحية من أجل الوطن والكرامة.. لكن ما الحيلة وأنتم  
تشعلون نيران معركة خاسرة؟ إن قبولكم وقف إطلاق النار  
عمل يقتضيه العقل، وتفرضه ظروف المدينة التي تعيش تحت  
وابل القذائف والجوع والأرق لليالٍ طويلة..

وصاح أحد العامة:

- سندافع حتى الموت.

- إنه تهور وطيش أيها السادة.

وأقبل الحاج مصطفى البشتيلي نحوه وقال:

- ليس هذا وقت الكلام، ولكنه وقت العمل . . إن مصيرنا مرتبط بمصير القاهرة بأسرها، فلن نوقف القتال، وإخواننا في جميع الأنحاء يناضلون في استماتة.

قال عضو الديوان:

- هناك زملاء لى يتفاهمون مع الثوار لوقف إطلاق النار.

قال الحاج مصطفى بإيجاز:

- لقد عاهدنا الله على الاستمرار في الحرب، إما الموت أو النصر.

صاح أحمد المدبولى تاجر البارود الذى كان صامتًا طوال الوقت:

- إن الحاج مصطفى البشتيلى سيودى بالناس إلى كارثة ماحقة؛ إذ ما جدوى هذا الصراع اليائس . . لسوف تندم حيث لا ينفع الندم.

صاح البشتيلى، ومن خلفه هدير الجماهير:

- يجب أن تصمت يا مدبولى.

- وكيف أصمت ومصيرى مرتبط بمصيركم؟ أليس لى الحق

فى أن أبدي رأى فى أمر خطير كهذا؟

---

قال البشتيلي ساخرًا:

- تستطيع أن تعود إلى يافا إن شئت .

- وماذا في ذلك؟! ألم يكن معي السيد عمر مكرم ونخبة  
من الرجال الأفاضل؟!!

هتف البشتيلي في حدة:

- عمر مكرم يحمل السلاح الآن ويقود الجماهير، وأنت  
تثبط العزائم يا مدبولي، وعمر مكرم هاجر من أجل أن يفعل  
شيئًا لصالح المعركة، وأنت رحلت إلى الشام خوفًا من  
التضحية والموت .

وساد هرج ومرج، ولوح مندوب الديوان بيده قائلاً:

- جئت إليكم أيها الإخوة أحمل إنذار كليبر . . إما أن  
تضعوا السلاح، وإما أن تستعدوا لحرق بولاق عن آخرها،  
وسفك دماء الكثيرين دون فائدة . . فما رأيكم؟

وانطلق هدير كالرعد القاصف:

- الحرب . . ولن نسلم .

- أهذا هو رأيكم؟

- أجل . .

وسادت فترة صمت قال مندوب الديوان بعده :

- نسيت أن أؤكد لكم، أن الفرنسيين قد هزموا جيش السلطان هزيمة نكراء، وبهذا فقد فرغوا لكم، وأصبح ظهركم مكشوفاً .

وارتقى الحاج مصطفى مكاناً عاليًا بعض الشيء، اتخذه كمنبر، وأخذ يقول :

- إننى مدرك أننا نخوض معركة قاسية مريرة، ولا يخفى عنى قوة العدو العسكرية، وأعرف أن العدو انتصر على الأتراك، وأن المالك والأتراك قد خانوا الأمانة، ووضعوا أيديهم فى أيدي العدو، ولسوف يسجل التاريخ هذا العار عليهم؛ لأنه تصرف ياباه الضمير الحى، وينكره الدين الحنيف، وقد عاهدنا الله على أن ندافع عن حریتنا وكرامتنا وحدنا، ندافع عن أرضنا وعرضنا وديننا، وسندفع الثمن مهما كان غالياً، فإذا انتصرنا فهذا عين المراد، وإذا حدث غير ذلك، فسنلقى الله شهداء راضين بعد أن أدينا الواجب، وأبينا الذل والهوان . . والله المستعان .

وانسحب مندوب الديوان ومعه أحمد المدبولى، وسط تكبير الجماهير وهتافاتهم الراحدة، وتمتم عضو الديوان :

- إنهم على حق .

قال المدبولى :

- ماذا تقول؟! إنهم يتصرفون فى حماقة وجنون .

- لكنهم اختاروا الطريق الشاق ، والتضحيات الجسام .

قال المدبولى فى خوف :

- دعنا من هذا الأمر . . أريد أن أخرج معك . . لا أستطيع

البقاء فى بولاق بعد الآن . . إن رميات الفرنسيين لا تفرق بين

العقلاء والمجانين . . أرجوك ، خذنى معك .

نظر إليه عضو الديوان فى ازدراء قائلاً :

- لماذا لا تبقى معهم؟

- لأنى لا أو من بما يفعلون .

- هيا بنا . . لكم تمنيت أن أبقى إلى جوار هؤلاء الشرفاء .

- ولم لا تفعل؟

قال الرجل فى أسى :

- إن أعضاء الديوان يا مدبولى هم رصيد الأحداث . .

نحن نقف فى منتصف الطريق ، ونشب فى الوقت المناسب

لنمنع تفاقم الأحداث . . بعد أن هزمت ثورة القاهرة الأولى ،

ظهرنا فى الميدان لنهدئ من روع سارى عسكر نابليون ،

ونطلب منه الصفح . . إننا نؤدى دورنا الوطنى بأسلوب قد  
يغضب البعض ، لكننا مؤمنون بما نفعل . . والله الموفق . .



تدفقت جموع الفرنسيين من ناحية البحر ، ومن ناحية بوابة  
أبى العلاء ، كانوا يمطرون الحى الباسل بأطناب من القنابل  
والنيران ، والشوار يردون بالمثل ، لا يتوقفون عن الحرب ، سواء  
فى النهار أو الليل ، وأصبحت المعركة ممتدة لا تعرف الفرق بين  
نور وظلام . . وعاد برتلمى يرقب الأحداث فى غيظ ، ليس  
فى ذهنه سوى الحاج مصطفى البشتيلى ، ذلك الثائر العنيد  
الذى أفلت منه ذات ليلة ، بعد أن دفع ذووه مبلغًا تافهًا من  
المال ، وعندما عاد برتلمى إلى بيته بعد يومين من احتدام  
المعركة ، كان مرهقًا مكدودًا ، فألقى بغطاء رأسه ، وتخفف من  
معطفه ، ثم هتف بهيلدا ، فأقبلت مهرولة :

- ما بك يا أبى؟ إنى أرى أثر الغبار والإرهاق على وجهك .

قال وهو يصر على أسنانه من الغيظ :

- هؤلاء السفلة فى بولاق .

- ماذا جرى؟

- يرفضون الاستسلام ، أليس من المضحك أن نهزم عساكر

السلطان، ونأسر وزراءه وضباطه فى عين شمس، ونجعلهم يولون الأديبار فى يوم وليلة، نبدد شمل جيش ضخيم منظم، ثم نأتى الآن ونعجز عن احتلال بولاق، أليس هذا عجيباً؟! مجموعة من العراة الحفاة الجياع يتصدون لجيش فرنسا، ويستعصون عليه؟!

ثم سعل، وعاد يقول:

- كنت يا هيلدا تتحدثين عن الرحمة، أنرحم هؤلاء الوحوش؟ لم يكن استسلامهم فى الماضى إلا قناعاً زائفاً ماكرأ، يختفون وراءه ليجمعوا صفوفهم ويعدوا أنفسهم، إن البشتيلى ورجاله يحاربون كالوحوش الضارية.. الوحوش لا تستحق الرحمة، بل لا بد من تقليص أظافرهما، وكسر أنيابها، وسلخ جلودها.. هذا ما أؤمن به، والعفو فى مثل هذه الظروف جنابة كبرى.. إن نصف الحى يحترق، ومع ذلك يرفضون التسليم على الرغم من وعد كليبر بالعفو عنهم.. تصورى..

قالت هيلدا فى حيرة:

- إن ما أراه اليوم يؤكد لى أن لا حياة للفرنسيين وسط هذا الشعب.

- كيف؟

- لا يمكن أن يعيشوا في هذا الجو المشحون بالكرهية والثورات والخسائر، ولهذا فإنى أرى أن المستقبل مظلم بالنسبة لهم.

قهقه برتلمى ساخراً وقال:

- لسوف يشورون مرة.. مرتين.. ثلاث مرات.. ثم يصيبهم اليأس، ويمتلك الفرنسيون زمام الأمور للأبد.. لقد ارتكب كليبر خطأ فاحشاً حينما عقد اتفاقية العريش للجلاء.. لقد فهم المصريون أن الجيش الفرنسى قد تعب ومل ويش.. هذا هو مصدر المتاعب.. وعندما يعلم العامة أن الفرنسيين باقون فلسوف يستسلمون، وسترين يا عزيزتى أن أباك على حق.. إن الأتراك يحكمون هذه البلاد لعدة قرون.

- هناك فرق بين الأتراك والفرنسيين يا أبى.

- فرق تافه، لكن الأتراك غزاة محتلون مهما كان الأمر.

- ووجود الأتراك كان دائماً مهدداً، لقد استطاع المماليك أن يستقلوا بالأمر، حتى أصبحت سلطة الأتراك سلطة اسمية.

وسادت فترة صمت، قال برتلمى بعدها:

- عزيزتى.. النصر للأقوياء.. لا تحاولى أن تفسرى الأحداث، أو تتدارسى التاريخ.. الأقوياء هم الذين يصنعون

الأحداث، ويكتبون التاريخ بسيوفهم وبالدم القانى . . هذا ما  
أؤمن به . .

ثم غير دفة الحديث فجأة، وقال :

- ألم يعد إبراهيم أغا بعد؟

- لم أره منذ أسبوع . . لقد عاد آخر مرة مكروباً مهموماً . .  
لقد هاجمه بعض العامة فى الطريق، ورموه بالخيانة والغدر،  
وزعموا أنه عميل من عملاء برتلمى .

ضحك برتلمى حتى كاد يستلقى على ظهره، ثم قال :

- أيؤله هذا الاتهام؟ إنه شرف كبير، ثم إنه يفتح أمامه  
الطريق إلى مستقبل أفضل مع الفرنسيين . . ثم ألم يعقد «مراد  
بك» الصلح مع «كليبر»؟! الحقيقة يا فتاتى أن إبراهيم يميل  
لهؤلاء الغوغاء، ولعله كان يبذل لهم العون لآخر لحظة، كنت  
أدرك ذلك، لكننى تغاضيت عنه؛ لأنه لن يحوز ثقة الجماهير  
التي أصبحت تشك فى نوايا المماليك، وتكن لهم أشد  
الكراهية . . لا شك أنهم رأوا إبراهيم معى، ولعل بعضهم رآه  
وهو يدخل بيتى . . لشد ما أنا مبتهج لهذا الذى حدث . .

ثم عاد يقول :

- ربما يكون إبراهيم قد ذهب إلى حلوان، ولسوف يعود  
فى أقرب وقت .

قالت هيلدا:

- إن هذا الجو المشحون بالمخاطر يجعلنى أشعر بقلق بالغ نحوه، وخاصة بعد أن حامت حوله الشبهات.

أجابها أبوها:

- لا عليك يا هيلدا. . إن إبراهيم يعرف كيف يحافظ على نفسه. .

ثم قال:

- ومالوس، ألم يأت؟

- لم يحضر إلينا منذ ظهر إبراهيم إلا مرة واحدة.

قهقه برتلنى فى خبث وقال:

- لقد أدركت أنك تستثقلين دمه، ولهذا دبرت الأمر،

وقذفت به إلى أتون المعركة فى بولاق. . أعتقد أنه مكان مناسب لشخص ثقيل وقح مثله.

لم تعلق هيلدا بشيء، لكنها قالت بعد لحظات:

- إننى أفكر فى الاعتراف بين يدي إبراهيم.

- كيف؟ إننى أرفض ذلك.

- لا أحب الخداع.

---

- إنه ضرورة في بعض الأحيان . . يجب أن تصبرى بعض الوقت حتى نتدبر الأمر، ثم هل تنوين الاقتران الأبدى به؟ إننى أشك فى ذلك يا هيلدا، إن حاجزاً ضخماً يقف بينكما . . حاجزاً صنعه الله .

قالت شاردة :

- الله؟

- أجل . .

- لكن دينه يبيح زواج المسلم من مسيحية .

- وديننا لا يسمح .

- الله واحد .

- والأديان كثيرة يا هيلدا .

- لا يمكن أن تكون شرائع الله متناقضة يا أبى .

هتف قائلاً :

- أنا لا أناقش قضايا فلسفية . . ولكنى أعرف شيئاً

واحداً . . إن دينك لا يسمح لك بالزواج منه .

- ودينه يسمح يا أبى . . وضميرى مستريح .

- أنت تضحين بالقيم الدينية التى تؤمنين بها من أجل رجل .

- لسوف أبقى على دينى .

- هذا لا يكفى ..

وقطع حديثه فجأة ، ثم قال فى صبر نافذ :

- دعى هذا الأمر . . إن القاهرة غارقة فى النار والدماء ،

وأنت تفكرين فى الاعتراف والزواج . . ثم ألا تعتقدين أن

الاعتراف بالحقيقة القاسية قد يبعد بينه وبينك؟

قالت هيلدا فى إصرار :

- لسوف أناقش الأمر معه فى الوقت المناسب ، لن أخفى

عنه شيئاً ، وليكن ما يكون . .



تتوارى الشمس خلف الشاطئ الغربى للنيل عند بولاق،  
 وطلقات المدافع واهنة متقطعة كأنها جريح ينزف ويصعد  
 أنفاسه فى إعياء وأسى . . ويتلفت الحاج مصطفى البشتيلى  
 حواليه، فيجد الدموع المتجمدة فى المآقى، والشحوب والغبار  
 يكسوان الوجوه المجهدة، والحرائق تنتشر فى كل مكان،  
 ومدفعية الفرنسيين لا تكف عن الضرب . . وقال أحد الرجال  
 مطرق الرأس حزينا:

- أوشتك الذخيرة على النفاذ يا حاج مصطفى .

قال الحاج:

- ألم تأت إمدادات من المدينة؟ إن الشيخ السادات يعرف  
 حقيقة وضعنا جيدا .

أجابه الرجل:

- نحن بين فكى كماشة رهيبة، والحصار شديد، وكليبر

يشرف بنفسه على معركة بولاق، والفرنسيون يضربون حولنا  
نطاقاً صلباً من ناحية البحر، والبيوت تشتعل فيها النيران منذ  
خمسة أيام كما ترى.. ماذا نفعل؟

وانبعث صوت من خلفهما:

- ليس هناك حل سوى التسليم.

والتفت الحاج مصطفى خلفه، وهتف:

- من؟ أحمد المدبولي؟!

- هو أنا.. إن دماء المئات الذين يسقطون كل يوم في  
رقيتك أنت..

وصرخ الحاج مصطفى:

- كفى.. الناس يموتون ويحترقون وأنت تتفرج!..

- لأنني لا أؤمن بجدوى ما تفعلون يا حاج مصطفى.. هذا  
رأى، وأرجو ألا تسميه خيانة..

وانهمرت دموع الحاج مصطفى فجأة، فكز على أسنانه في  
عصية، وجسده كله يتنفض، ثم قال:

- أيها الصديق القديم، أنت تعرفني جيداً.. أنا لا أميل  
لسفك الدماء، ولكننا ندافع عن حقنا المشروع في الحياة الحرة،

مهما كان الثمن . . أنت تعلم أننا على حق . . والفرنسيون  
يعلمون ذلك .

قال المدبولى :

- إن جيش السلطان نفسه قد هزم .

قال الحاج :

- إن هزيمة السلطان لا تفقده سوى بعض الجنود والمواقع ،  
أما هزيمتنا فمعناها ضياع أرضنا وحرقاتنا . . وحياتنا .

تمتم المدبولى متوتراً :

- حياتنا؟ أى حياة تقصد؟ . . إن بيتك تشتعل فيه النيران  
الآن ، بعد أن تهدم على كل من فيه . . ألم تعلم ذلك؟

التفت إليه الحاج مصطفى ذاهلاً وهتف :

- ماذا؟!

- تلك هى الحقيقة المرة .

صرخ فى رعب :

- إن فيه زوجتى وابنتى!

قال المدبولى :

- مئات غيرهما لاقوا المصير التعس نفسه .

أمسك به الحاج مصطفى فى جنون وصرخ :

- ماذا تعنى؟ هل دفنا تحت الأنقاض؟!

- لا أعرف على وجه اليقين . . فالنساء والأطفال والشيوخ تركوا بيوتهم، محاولين الاختفاء فى أماكن مأمونة . . إن الموت والدمار يحيطان بالناس من كل ناحية . . والفرنسيون يتقدمون . . ربما تكون أسرتك الصغيرة قد هربت . . من يدري؟!

وصاح الحاج مصطفى بأعلى صوته :

- أطلقوا الرصاص . .

وانقذت مجموعة من الطلقات، ثم أعقبها صمت مخيف . . وتمتم أحمد المدبولى :

- ثم ماذا؟ لم يعد هناك ما تدافعون به عن أنفسكم إلا العصى والطوب . . لكن مدافع الفرنسيين وقنابلهم قاسية لا ترحم . . استمع يا حاج مصطفى . . إن الأطفال الجياع الخائفين يصرخون ويستغيثون . . وأنين الجرحى والشكالى يملأ الشوارع . . حسناً . . لنفترض أنك على حق . ألا تقتضى الحكمة أن تحقن الدماء، وتدخرها لمعركة أخرى قد تكون بعد شهر أو شهرين أو عام؟ . .

وعاد الحاج مصطفى بذاكرته إلى بيته . . آه . . زوجه قائمة  
في حجرتها، تسمع الدوى الذى يصم الأذان، فيرتجف  
قلبها، وتسيل دموعها غزيراً . . وزينب المسكينة، تتأرجح  
نظراتها القلقة نحو السماء، هاتفة بقلبها الجريح . . والقذائف  
المتهبّة تضىء الليل البهيم . . يا للمساكين!! هل فاجأتهم  
قذيفة مجنونة فدمرت البيت وأشعلت فيه النيران، فلفظوا  
أنفاسهم تحت الأنقاض، أم أنهم لاذوا بالفرار من  
الجحيم؟ . .

وفكر الحاج مصطفى أن يهرع إلى بيته ليطمئن على ذويه . .  
لكنه العار يا حاج مصطفى . . إن الآلاف يقفون صامدون فى  
المعركة تاركين وراءهم أسرهم لا يعرفون عنهم شيئاً . . ثم مال  
على المدبولى قائلاً:

- «لليت رب يحميه يا مدبولى» .

- هذا حق . .

- ورأسى يدور يا مدبولى . . أكاد لا أرى شيئاً . . ساقاى  
لا تستطيعان حملى . . لقد بذلت أقصى ما أستطيع بذله من  
جهد، لم تبقَ إلا حياتى التى استعصت على الموت . . لم  
أغادر مكانى فى المعركة، ولم أكف عن العمل وإصدار  
التوجيهات، والاتصال بكل الجبهات . . القذائف كانت

تنهمر من فوق رأسى ، وتسقط من حولى ، والدماء تسيل فى الشوارع برگًا كبيرة . . لكأنما الموت قد خاصمنى يا مدبولى . . ليتنى استرحت . . انظر يا مدبولى . . الرجال يقبعون وفى أيديهم السلاح دون ذخيرة . . إنهم لا يتحركون . . ينظرون إلى أمام فى حقد هائل . . هؤلاء الرجال لا يعرفون الخوف . . لكن أين الذخيرة؟ . . انتهت المعركة يا مدبولى قبل أن نستسلم . العدو لم يزل واقفًا ينتظر . . حتى الرجال العزل يدخلون فى قلبه الرعب . . ماذا لو كنا نملك السلاح الذى يملكه؟ . . ربما استطعنا أن ندفعه إلى قلب البحر وربما تابعناه حتى أعتاب فرنسا . . لست أهذى يا مدبولى . . إن قوة الإيمان تحتاج معها إلى قوة الحديد . . الحديد يا مدبولى . .

ثم شهق الحاج مصطفى باكيًا، وقال :

- لا مناص من التسليم حقنًا للدماء كما تقول . . وبرغم الهزيمة التى حاقت بنا، إلا أنى أو من إيمانًا قويًا لا يتزعزع أننا قد فعلنا شيئًا عظيمًا . . يمكن أن نسميه بداية رائعة . . لهذا فأنا أرى أعلام النصر من بعيد تخفق فوق رؤوسنا فى سماء القاهرة . . وأرى الفرنسيين ينسحبون يجللهم العار والذل . . أكاد أرى ذلك يقينًا .

قال المدبولى :

- لنضع المستقبل فهو بيد الله ، لكننا ماذا نفعل الآن؟

والتفت الحاج مصطفى إلى رجاله قائلاً:

- ماذا ترون أيها الرجال الأبطال؟

قال واحد منهم :

- لم يعد فى الأمر خيار . . إن النيران والدخان ورائحة

الدم الغالى تزكم الأنوف . . يكفى ما قدّمناه من تضحيات .

قال الحاج مصطفى :

- أهذا هو رأيكم؟

طأطأوا رءوسهم فى أسى . . ثم قال :

- هذا أمر الله . .

وبدا الارتياح على وجه المدبولى ، وقال :

- أستطيع أن أحمل رسالتكم إلى الفرنسيين .

هزّ الحاج مصطفى رأسه فى سخرية وقال :

- هذا فضل لن ننسأه لك يا مدبولى . . لكن انتظر . . يجب

أن يرحل قادة المقاومة قبل أن يمسك بهم الفرنسيون .

قال المدبولى :

- لا بأس .. لكن الإفلات من الحصار أمر صعب للغاية ..  
وأنت يا حاج مصطفى .. إن الفرنسيين يعرفون دورك جيداً ..  
إن مشكلتك تستعصى على الحل ، لكنى لدى فكرة .

قال الحاج مصطفى :

- ماذا؟

- تستطيع أن تختبئ في بيتى .

سدّد إليه الحاج مصطفى نظرات شك وقال :

- فى بيتك أنت؟!!

- ولم لا؟! أأستَ صديق العمر؟ ..

- إنها مآثرة لا أنساها لك ، وفضل كبير تغرقنى به ..  
لكن ، ألا يعرّضك هذا للخطر؟

قال المدبولى فى انفعال :

- إننى أعنى جيداً ما أقول ..

\*\*\*

وخلا الميدان من الرجال فى اليوم التالى .. أقفرت الطرق  
والميادين ، وعلى ثرى بولاق الشهيدة يرقد القتلى والجرحى ،

---

ويمتزج التراب بالدم الزكى ، والنيران لم تزل تشتعل فى البيوت والأنقاض والأخشاب تسد الشوارع . . وأخذ المنادى ينادى فى الشوارع .

- ومن أرشد عن الحاج مصطفى البشتيلى فله مكافأة كبيرة . .

من أخفى البشتيلى فمصيره الإعدام . .  
من لديه أية معلومات عنه فليتقدم بها . .

وانقذت عساكر الفرنسيين ، وكذلك «برتلمى» ورجاله فى مختلف أنحاء بولاق ، ينهبون الوكائل ، ويستولون على الحبوب والأخشاب والمتاع والبضائع ، ويقتلون الكثير من الشوار ، ويدققون فى البحث عن السلاح . . وإلى جوار برتلمى مضى المدبولى شاحب الوجه مرتجفاً . .

قال برتلمى للمدبولى :

- إنه صديقك القديم . . أعرف ذلك ، ومن ثم فأنت أدرى الناس بالأماكن التى يلجأ إليها .

قال المدبولى :

- إن الشيخ إبراهيم سلامة ، أعزّ أصدقائه ، قد قضى نجه ، وتهدم بيته . . والرجل الأعمى على الجنجيهى هو الآخر قد

فقد، وبيته تحول إلى أنقاض . . ربما يكون البشتيلي قد لجأ إلى  
قريته «بشتيل» في الجيزة .

قال برتلمى :

- أعتقد ذلك؟ لكن كيف يفلت من هذا الحصار الصلد؟!  
إن رجلاً معروفاً كالبشتيلي، لا يستطيع أن يمشى فى الشوارع  
دون أن يلفت الأنظار إليه . .

هز المدبولى رأسه فى خوف وقال :

- الله وحده يعلم . .

وعاد المدبولى إلى بيته وهو عاجز تماماً عن السيطرة على  
أعصابه . . ونظر إليه البشتيلي بعينين محتقتين، وقال :

- لقد سمعتُ المنادى ينادى . . أعرف أنك قدّمت لى  
معروفًا لا يُنسى، لكنى لا يمكن أن أعرض حياتك للموت،  
وخاصة أنهم ينظرون إليك كصديق، ولهذا فإن أبسط  
أخطائك ستكون كبيرة فى نظرهم . .

وصمت برهة ثم قال :

- ماذا قال لك برتلمى؟

- أنت تعرف من أنت، وهم يعرفون .

وارتسم الجدّ على وجه الحاج مصطفى وقال :

- لقد عزمت على الرحيل يا مدبولى . . ولن يعرف أحد  
أننى كنت فى منزلك .

حاول المدبولى أن يتكلم ، لكن الحاج مصطفى لوّح بيده  
قائلاً :

- إننى أعرف ما أفعل ، وأقدر صنيعك أعظم التقدير .  
قال المدبولى :

- ألا تنتظر حتى المساء ؟

شرد ببصره قائلاً :

- نهار بولاق اليوم كليها . . إن ما يعذب هو أننى أجهل  
مصير زوجتى وابنتى وولدى .

- لسوف أتدبر الأمر بعد رحيلك يا أخى .



خرج الحاج مصطفى ملثماً يحث الخطى نحو المجهول ،  
متخذاً الحوارى والطرق الضيقة مساراً له ، الجنود الفرنسيون  
يجوبون الشوارع بعيون ثعالب ، ورجال برتلمى يتحسسون  
الطرق ويدورون ينظراتهم كالذئاب الجائعة . . «لو وقعت فى  
أيديهم يا حاج مصطفى ، فسيشربون من دمك ، ويقتاتون من  
لحمك . . لكن الرب واحد . . والموت واحد» . . .

شعر بيد ثقيلة تهوى على كتفه . . ونظر خلفه فى رعب :

- مَنْ؟؟

رجل من الأروام كان يسكن بولاق من زمن قديم ، ثم التحق بالعسس تحت رئاسة برتلمى . . دارت الأرض بالحاج مصطفى ، لكنه استجمع قواه وانقضّ عليه بكلتا يديه ، بعد أن صاح الرجل توجسًا ، وسرعان ما سقط الأرمنى على الأرض . . ورفع الحاج عينيه إلى ما حوله . لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقة . . لا شك أنها مجرد رؤى رهيبة . . إن بضعة من الرجال المسلحين يتقاطرون نحوه ، وفى أيديهم البنادق والسيوف والحقد الأسود . . وصاح أحدهم :

- لقد وقعت فى أيدينا . .

وسيق البشتيلى فى جمع حاشد من الرجال المدججين بالسلاح . وأهالى بولاق يرمقون الموكب الدامى من خلف الأنقاض ، والجدران النصف مهدّمة ، وما تبقى من النوافذ والأبواب . . البشتيلى يمضى رافع الرأس ، وقد شعر بنهايته الأكيدة . . وملايين الصور تمر على ذهنه الملتهب . . زوجه . . ابنته . . ولده . . أصدقائه . . أحداث كثيرة . . القلعة بسورها الضخم ويوابتها السوداء . . ليالى النضال الرهيبة . . امتداد ضخم لعمر طويل ملئ بالحركة والحيوية والفكر . . حياة

حافلة بكل ما تحمله كلمة «حياة» من معنى . . «مدد يا حسين .  
يا بنت النبي نظرة . . وسيد الشهداء حمزة، ورجل أتى إلى  
إمام ظالم فنهاء فقتله» . . . ذكريات . . وأصوات نديّة تترنم  
بآيات القرآن الكريم . . أنين . . وبكاء . . قدرة وعجز . . ليل  
ونهار . . ضجيج يملأ رأسه . . لكنه يعرف الطريق جيداً . .  
«حى . . مدد يا رسول الله» . . وأفاق من أحلامه وذكرياته على  
صوت يعرفه جيداً:

- مَنْ يظن أن كلباً تافهاً ضئيلاً مثلك يفعل كل هذا؟! -

قال الحاج مصطفى باسمًا:

- تستطيع أن تقول أى كلام، لكنك لا تستطيع الحكم على  
الرجال؛ لأنك لست برجل . .  
احتقن وجهه برتلى وصرخ:

- ماذا؟! -

- لا تتعجل يا برتلى . . إننى أعرف مصيرى جيداً . .  
لكن اعلم أن البشتيلى لم يكن سوى واحد من عامة الناس،  
وقتل البشتيلى لن يخمد الثورة التى تشتعل فى القلوب  
ضدكم . . والمعركة مستمرة يا برتلى حتى النصر . . والله  
أكبر . .

قهقهه برتلمى فى شماته وقال :

- انظر إلى النيران من حولك .

- اللعنة على مشعلها . .

- لن تحيق اللعنة إلا بك . .

وقال برتلمى فجأة ليحطم كبرياء الرجل العنيد :

- لقد بحثنا عن جثتك تحت أنقاض بيتك ، فلم نجد إلا

امرأتك وابتك . . وقد فاحت رائحتهما التنة . .

ضغط الحاج مصطفى على أسنانه ، وشعر بما يشبه  
الدوار ، وخيل إليه أن أكداً من الصخور تتساقط على  
رأسه ، لم يكن الأمر خيالاً كما توهم البشتيلى ؛ لأن برتلمى  
أشار إلى رجاله ، فانهالوا على رأس البشتيلى بعصيهم  
وبالقضبان الحديدية التى فى أيديهم حتى سقط بعد أن  
تحطمت جمجمته تماماً . .

وراح البشتيلى فى غيبوبته الأبدية . .

وتمت برتلمى بعد أن انتهى كل شىء :

- لم يكن لدينا وقت للتحقيق والمحاكمة . . لقد انتهى  
البشتيلى وانتهت بموته ثورة بولاق . . إن مما يسعدنى أن

الرجال الذين اتبعوه يرون بأعينهم مصيره التعس، ولعل  
بولاق قد تلقت درساً من مصرعه، ومما حاق بها من خسائر  
فادحة . .

وهتف من خلفه صوت ذليل :

- نعمَ ما فعلت . . هذا عين الصواب .

وقبل أن يرحل برتلمي صاح في رجاله :

- أشعلوا النيران في جثته، ولا تتركوها حتى تستحيل إلى

رماد . . إن برتلمي يعرف كيف يتقم، وكيف يؤدب المارقين . .

**تمت**



## مؤلفات الدكتور نجيب الكيلاني

- ١- تحت راية الإسلام.
- ٢- حكايات طيب .
- ٣- حمامة سلام .
- ٤- دموع الأمير .
- ٥- رأس الشيطان .
- ٦- الربيع العاصف .
- ٧- الصوم والصحة .
- ٨- الطريق الطويل .
- ٩- طلائع الفجر .
- ١٠- قاتل حمزة .
- ١١- مستقبل العالم في صحة الطفل .
- ١٢- موعدنا غداً .
- ١٣- نحن والإسلام .
- ١٤- النداء الخالد .
- ١٥- نور الله ١ / ٢ .
- ١٦- اليوم الموعود .